دكتور سعد ظلام

من الظواهر الفنية
فى الشعر الجاهلى

- مقدمة فى تاريخ العرب .
- الظاهرة الطللية ـ ظاهرة الانتحال .
- فى الشعر الجاهلى القضية والمنهج .
- ظاهرة اللغة الادبيـة .
- ظاهرة الثقـافة العـامة وأثرها فى العمليـة الابداعية .

١٩٨٤ م



دكتور سعد ظلام

من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي

- مقدمة فى تاريخ العرب .
- الظاهرة الطللية ـ ظاهرة الانتحال .
- فى الشعر الجاهلى القضية والمنهج .
- ظاهرة اللغة الادبيــة .
- ظاهرة الثقــافة العــامة وأثرها فى العمليــة الابداعية .

١٩٨٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك ونستفتح بالذى هو خير ، ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير •

وبعـــد

فالعصر الجاهلى بصدق أحاسيسه ، وتعبيره عن ذوات شعرائه فى ثراء وفيض ، وبتصويره للحياة الجاهلية أجمل تصوير ، وبقربه من الفطرة البعيدة عن المحاورة والالتواء ، وبلغته وقوة تراكيبه وبنيته ، وبعراقته وأصالته ـ ورسوخ جذوره فى أعمق أرضية التاريخ البشرى الانسانى •

هذا العصر الجاهلى مايزال منجما لم يلق من جمهور الباحثين العناية الكافية للبحث عن كنوزه ، وبرغم الجهود التى بذلت فى سبيل الكشف عن أسراره وتقريبه ، الا أنه فى حاجة الى جهود مكثفة كعدسات الضوء القوية التى تكشف عن أبعاده وجمالياته ، فى عملية تحديث له وتقديمه بلغة العصر ، حتى يقبل عليه النشء الذى لا يعرف عنه الا أنه مجرد ألفاظ وعرة وتراكيب خشنة وكفى ، فيبعدون عنه ويزهدون وفى هذا البعد بعد لهم عن مواطن الاصالة والتراث ••

وفى الحقيقة أننا حين قدمنا الشعر الجاهلى لهم،قدمنا مقطوعات وقصائد مختارة بعناية من أصعب الشعر الجاهلى وأغربه وأعقده قدمناها لهم فى هيئة ألفاظ وأساليب وركام من صحراء الجاهلية ورمالها وأبعادها ، وتهاويم من تفكيرها الغارق فى الضلال •

ولمنحاول أن نركز على أحاسيس الشعراء وأشواقهمولهفتهم الظامئة الى الحياة ، ووصف مواجدهم وتبريحهم والعوامل النفسية التى بداخلهم ، فى صحراء لا تحد العين مداها ، وصراعات تزحم آفاقهم وحياتهم بالالم ، وتعتصر أرواحهم اعتصارا •

ولم نقدم شعرهم فى ضوء حياتهم التاريخية ، ولم نحـكم عليه من خلال منظور تاريخى قديم يعايشهم ويراقبهم ثم يحكم ، ولكننا أخضعناه لمنظور عصرى فاختلت المعايير ، وطاش الميـزان وفسد الحكم وأسأنا الى العصر الجاهلى والنثر الجاهلى والشعر الجاهلى اساءة بالغة قصدنا أو لم نقصد •

ولم نشأ أن نراعى حضارتهم الشفوية ومقدار ما بذلوه فى سبيل أن يصل الينا تراثهم الشامخ وأدبهم العظيم ، وانما شككنا فى وجوده ورميناهم بالضحالة والضآلة والسطحية • والجهـل والغرور ، وانسقنا وراء الحاقدين من مستشرقى الغرب ومستغربى الشرق ، وانهلنا على العصر الجاهلى وأدبه وشعره بهراوات الاتهام والحمق والجاهلية •

ولم نحاول مجرد محاولة أن نتعب أنفسنا فى سراديب لغتهم وعاداتهم وقيمهم وأنسابهم وفى كهوف أنفسهم المسحوقة بالخوف والضياع والتشتت ، وفى بحثهم اللاهث وراء سراب الامن المؤرق بعوامل الفناء والمطلول بعوامل البقاء فى لهفة بشرية لمحاولة انتزاع الوجود من الموت ، والاصرار على الحياة فى الفناء •

ولم نبحث فى هذا الشعر الرائع الذى خلفه لنا آباؤنا فى ضـوء ومنهج فنى رشيد ، يبين لنا جماليات النصوص ، وصدق العواطف ، وواقعية النظرة ، ولتستوقفنا لمحاتهم التعبيرية الجميلة، وندرك من خلال ما قدموا كيف كانوا يكتبون وينظمون ويبـدعون ولنتعرف على أبجديات هذا الفن الادبى وكيف كونوا لفطرهم قوانينه ومعاييره وهم بدو رحل ، ثم أقنعونا بجدية تجاربهم وجمـال أوزانهم ومثابرة ايقاعهم انبهارا بهم وافتخارا •

ولم نراع كيف وصل الينا هذا الشعر ، وكيف بقى طوال ستة قرون أو خمسة قرون ونصف حتى دون ، لم نراع مدى المشـقة التى لقيت المدونين ، ولا ما ضاع من ذاكرة الرواة والحفاظ وتلاميذ الحرفة الشعرية ، ولا مقدار ما تعمدت القبائل اسقاطه من الشعر الذى يغمزهم أو يعرض بهم أو يسىء اليهم ، ولا ما تعـرض له شعر الصعاليك من ضياع نظرا الى ظروف تشردهم ، ولا ما تعمد الرواة الاسـاءة اليه •

لم ننظر الى كل ذلك ونحن نحكم على القصائد الجاهليـة بالتفكك وانعدام الوحدة العضوية مع أننا نعلم تماما أسباب خلخلتها وتهافتها وأن القصائد التى وصلت الينا انما وصلت مبتورة تعاورتها أسباب النسيان وتعمد النقص ، وأمزجة الرواة وطبائعهم واتجاهاتهم وأن شمس الاسلام حجبت كثيرا من شعر المبـاذل والاعـراض والاخلاقيات والسلوك التى لم تعد تتلائم ومعتقـدات المجتمـع المسـلم •

وبرغم ذلك كله تعمدنا أن نوجه الى الشعر الجاهلى أحكاما بالاعدام والاتهام دون مسوغ ودون دليل •

ولو أن الناقدين الذين أصدروا هذه الاحكام عمدا أو جهـلا راجعوا القصائد القريبة من عصر التدوين نسبيا كقصائد الاعشى لما أصدروا هذه الاحكام الجزافية ، وبقى تعمـدهم اخضاع الشعر القديم لمنظور أو اسقاط معاصر ، وهذا عيب وخطر ومزلق تعمدوا وضع أنفسهم فى تابوته الخسيس •

ولم نراع ونحن نحكم بالنقد والاخذ والسرقة على بعض الشعراء فى هذا العصر دور الشعر الجاهلى نفسه كمادة ثقافية وحيدة ، تؤدى دورا من أخطـر الأدوار الثقافيـة ، حكمت الوجود الثقافى كله ، فكان حتما من الحتم أن يتشابه القول وأن تتقارب الافـكار ، وأن تسيطر الظواهر العامة فى أغراض الشعر ولم نراع أيضـا ونحن نقوم النقد فى هذا العهد أن الناقد الجاهلى كان محكوما بعوامل

قبلية تمنعه من الحكم الصحيح السليم على شاعر أو له فى أسواق الشعر ولم تتجه الهمم بعد فى تكثيف وتعمق الى دراسة حـــركة التدوين لهذا الشعر ، وتنقيته وابعاد زيفه ، ومقدار ما زيف المنتحلون وأثره ، وتجليته ووضـــعه فى مكانه الصحيح من الصـــدارة فى الآداب .

صحيح أن أباءنا بذلوا مجهودا يشكرون عليه فى هذا السبيل ، ولكن لماذا لم نتجه بالدراسات الحديثة اليه . علنا نكون أحسن ظنا به ، وأكثر سلاحا وأقوى عدة .

وفى الوقت نفسه لم نقرأ دراسة توفق بين معطيات العصـــر الجاهلى القديمة ، فى الجانب التصويرى الباهر ومعطياتنا الحالية . وتراعى الفواصل الزمنية لنرى روائع التصوير الجاهلى وندرك كيف أمكن لهذا البدوى الضارب فى أعماق الصحراء أن يقدم هذه الصور وتلك المشـــاهد والرســـوم التى تقف أمام أروع المذاهب التصويرية الحديثـــة .

ولم نقرأ بعد تلك الدراسة القيمة التى تبحث فى تسلسل زمنى مراحل هذا الشعر الجاهلى ورصده مرحليا ، ثم فى كشف قيمى نستطيع أن نرسم رسما بيانيا مفيدا للتجارب الشعرية فى مراحلها الاولى وفى تطور وتتبع لنعرف كيف بدأت وكيف نمت وتطورت ، حتى استوت شامخة ثابتة الجذور أصيلة القواعد .

ولم تظهر بعد الدراسة التى تكشف لنا فى عمق وموضـــوعية كيف أقام الجاهليون الاميون مدارس الاحتراف الشعرى ، والتلمذة الفنية ، وبيوت الصـــنعة والخبرة التى تصقل المواهب وتهيىء الناشىء للابداع والتفوق .

ولقد كانوا من أسبق الامم الى ذلك .

ولم نعرف كيف استطاعوا أن يقيموا فى مجتمعهم البـــدوى غير المستقر ما يمكن أن نسميه الان قانون الاحتراف ، ثم تواضعوا

عليه وطبقوه دون جبر أو قسر أو ضغوط ،صحيح أننا قرأنا بحوثا أصيلة فى الادب الجاهلى والشعر الجاهلى بالذات مثل « الشعراء الصعاليك » للدكتور يوسف خليف ، و « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية» للدكتور ناصر الدين الاسد ، ودراسات فى العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف • الا أن هذه البحوث ركزت على الناحية التاريخية بصورة عامة وقرأت كتاب « الشعر الجاهلى » مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفى •

واذا كان هذا الكتاب تعوزه النظرة المستوعبة والتأصيل ، والتركيز ، الا أنه يعتبر خطوة فى هذا الموضوع •

كما أننى علمت أن الدكتور شوقى ضيف له بحث قيم فى الالفة والغرابة ولكنى لم أقرأه بعد •

وقد حاولت قدر استطاعتى أن أعالج ذلك ، وأن أبحث فى الشعر الجاهلى بحثا فنيا على ضوء دراسة ظواهره الفنية •

وقد لاحظت أن هناك كثيرا من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى ، فهناك مثلا ظواهر «المقدمة الطللية» و «التجريد والمناجاة» و « الالفة والغرابة » و « القبائل الشاعرة » و « الحسية فى التصوير» و « الرسم والتصوير » و « اللغة الادبية » و « التذوق الادبى » و «تمثيل الشعر الجاهلى للحياة الجاهلية» و « التكسب » و « الاحتراف ومدارس الشعرية والرواية » و « الثقافة العامة » و « تطور الشعر من البيت والبيتين الى القصيدة » و « المعلقات » و « التنقيح » و « الحوليات » و « الموسيقية » و «الاهتمام بالمبالغات» و « النبوغ أو قول الشعر على كبر » و « وحدة الفنون ودائرته فى العصر الجاهلى » و « الانتحال » و « الاحكام النقدية العامة فى هذا العصر » •

وهناك ظواهر أخرى بالطبع يمكن دراسة الشعر الجاهلى على أساسها ، وتختلف هذه الظواهر من حيث الاهمية والحاجة ، ومنها ما يمكن جمعه فى بند أو عنوان أو ضمه فى قرن •

وقد حاولت أن أتقدم لدراسة الشعر الجاهلى على ضـوء هذه الظواهر وقد قررت أن أفلت أو بالاصح اتفلت من عمليـة التنظير فى بداية البحث ، حتى أترك لنفسى جانبا من الحرية فى التصدى لبعض الظواهر العاجلة الملحة ، أو القريبة المأخذ والتناول والمعالجة ، مؤجلا عملية التنظيم والتنظير والفهرسة والمقابلة الى مرحلة لاحقة ان شاء الله عندما أكون قد استكملت أو أستكمل البحث مراحله واعداده •

وقد جعلت دراستى تقتصر على بعض الظواهر فى كل سنة ، لعدم التشتت وضياع الجهد ومحاولة التركيز ، وحتى يسـتوعب الناشئون من طلابنا هذه الكمية الصغيرة من الزاد الثقافى ، فـلا يتخمون ، فيقبلوا عليها فى شغف ودون ارتباك •

وأعد ان شاء الله أن أجمعها بعد استكمالها فى كتاب واحد ، أو فى أجزاء مراعيا التنظير الذى أسلفت ، على أننى صدرت بحثى هذا ببعض المعلومات التاريخية التى لابد منها •

وأرجو أن أوفق فى رصد هذه الظواهر وبحثها ، وتقديمها فى معاصرة واعية ، تقدم للاجيال خلاصة تراثية عن كنوز الآباء ، فتزداد ثقتهم فى التراث ، ويزداد اقبالهم عليه ، وايمانهم به والتردد على كنوزه العامرة فى مناشئها ، تأكيدا لدور رسالة الأزهـر العظيم وجامعته العريقة ، والله من وراء القصـد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ••

القاهرة : الدقى فى يوم الجمعة ١٥ من المحرم سنة ١٤٠٤ هـ
الموافق ٢١-١٠-١٩٨٣

دكتور
سـعد ظـلام
أستاذ الادب والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعة الازهر ـ القاهرة

الباب الأول

العــرب

أولا :

تطلق كلمة « عرب » فى التاريخ الحديث على سكان الجزيرة العربية كلها ومصر والشام والعراق والسودان والمغرب العربى كله .

ولكنها كانت فى التاريخ القديم تطلق على سكان الجزيرة العربية فقط ، لان أهل العراق ومصر والشام والمغرب والسودان كانت لهم لغات أخرى غير العربية . فلما فتح الاسلام هذه البلاد . وسادت اللغة العربية لسانهم سموا عربا استئناسا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية منكم بأب أو أم ، فمن تحدث العربية فهو عربى » ..

وقد كان لفظ « عرب» فى التاريخ القديم يرادف لفظ «بدو» أو « بادية » فى أيامنا قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام « وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ». « يوسف ١٠٠ » .

أى وجاء بكم من البادية . وكانوا أهل بادية وشاء وابل ، وكانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام أو بالاولاج ، أو ببادية الشام أو ببادية فلسطين ..

وقد ذكرهم الله بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية الى الحضر ، واجتمع شمل الاسرة بمصر (١) .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩١ ومختصره جـ ٢ ص ٢٦٢ وراجع صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٦٨ .

ثانيـــا :

والاعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد له • قـــال (٢) فى القاموس : العرب بالضم وبالتحريك خلاف العجم ، وهم ســكان الامصار ، أو هو عام ، والاعراب سكان البادية لا واحد له •

وقد ورد لفظ « الاعراب » فى القرآن الكريم تسع مرات مرادا به هذا المعنى •

قال تعالى : « الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلمـــوا حدود ما أنزل الله على رسوله » • وقال : « وممن حولـــــكم من الاعراب منافقون •• » التوبة ـــ ٩٧ ، ١٠٠ •

والاعراب فى الايتين هم سكان البادية • وأهل البوادى فيهم غلظة وجفاء ، روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوعا : « من سكن البادية جفا ••• » •

ولهذا لم يبعث الله منهم رسولا ، وانما كانت البعثة فى أهل القرى • قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى » •

لكن لما تحضر العرب واستقروا فى المدن والامصار ، استعملوا لفظ « الحضر » لاهل المدن ، و « البدو » لاهل البادية ، « وكان السبئيون الى تاريخ الميلاد اذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا : « القبيلة الفلانية وأعرابها » (٤) •

ثالثا :

واذن فهناك فرق كبير بين معنى العرب والاعراب •

---

(٢) راجع القاموس المحيط مادة « عرب » .

(٣) رواه أبو داود والترمذى والنسائى عن طريق سفيان الثورى وقال الترمذى هو حسن غريب لا نعرفه الا عن طريق سفيان الثورى .

(٤) راجع العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ٤١ ـــ ٤٢ .

وبعد هذا التوضيح وذلك التحديد وتلك التفرقة بين «عرب» وأعراب ، يتضح لنا أن ابن خلدون ظلم العرب ظلما شديدا فى مقدمته ، « فلم يفرق هذه التفرقة الدقيقة بين معنى « عرب » و « أعراب » . فوصف العرب بأقبح الاوصاف . ونسبهم الى أخس الصفات ، مع أن هذه الاوصاف ، وتلك الصفات لا يوصف بها العرب ، وءانما يوصف بها الاعراب .

فقد أفرد فى مقدمته (٥) الفصول « الخامس والعشرين والسادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين » للحديث عن العرب والملك . ووضع للفصل الاول من هذه الفصول عنوانا هو « ان العرب لا يتغلبون الا على البسطاء » .

ووصف العرب بالتوحش والنهب والعيث فسادا ، وذكر للفصل الثانى منها عنوانا هو « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » .

فذكر أن طبيعة التوحش جبلة لهم وخلقة ، وأنهم لا ينقادون لحكم حاكم ، وأن طبائعهم منافية للعمران ، ونسبهم الى الفوضى والفساد والخراب .

ووضع عنوانا للفصل الثالث من هذه الفصول هو أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية .. » وعلل لذلك بخلق التوحش الذى فيهم وهم لذلك — كما يقول — أصعب الامم انقيادا فقلما تجتمع أهواؤهم ، فاذا كان الدين كان وازعهم من نفوسهم فذهب كبرهم وسهل انقيادهم .

والفصل الاخير (الثامن والعشرون) جعل عنوانه « العرب أبعد الامم عن سياسة الملك » .

---

(٥) راجع المقدمة من ص ١٤٩ — ١٥٢ مطبعة دار الباز مكة السعودية .

وذكر أن من أسباب ذلك « أنهم أكثر بداوة وأبعد مجالا فى القفر وايلافهم ذلك وأن من طبائعهم أخـــذ ما فى أيدى الناس •• فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك ، وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم » •

ظلم ابن خلدون العرب ظلما شديدا • حين ألصق بهم هـــذه التهم الفظيعة ، لانه لم يستطع التفرقة الدقيقة بين العربوالاعراب• ولا يشفع له قوله بعد ذلك : « ولا تحسبن (٦) أن ذلك لظلم نــزل بهم أو عدوان شملهم ، فملكة الاسلام فى العدل ما علمت ، وانما هى طبيعة الانسان » !!

وقد انساق بعض المستشرقين وراء ابن خلدون ففسروا لفظ « عرب » بمعنى « البـــداوة » ويرون أن كلا من لفظ عربى وأعرابى معناه البدوى ، وينسبون اللفظين الى كلمة « العــــرابة » بمعنى الصحراء • ويقولون أن أهل البادية فى الجزيرة كان يطلق عليهم عرب وأعراب بمعنى سكان الصحراء • وكانوا يتميزون عن بعضهم بأسماء القبائل •• ولكن قبيل الاسلام فرق أهالى الجزيرة بينكلمتى « عربى » و « أعرابى » فأرادوا بالاولى الجنس كله أو ســـكان الحضر ،وأرادوا بالثانية المعنى الاصلى وهو البدوى الذى يخيم فى الصحراء •

وعلى أساس هذه التفرقة وردت الكلمات فى القرآن الكريم كما سبق أن ذكرنا (٧) •

رابعا ــ أصل تسميتهم :

قيل : أن سبب تسميتهم بالعرب أنهم كانوا يتكلمون العربية، أو أنهم كانوا يسكنون « العرابة » وهى الصحراء ، أو أنهم نسبوا

---

(٦) المقدمة ص ١٤٨ •

(٧) راجع العرب قبل الاسلام ــ ص ٣٩ ، ٤٤ وراجع دراسات فى العصر الجاهلى للاستاذ احمد أبو الفضل ص ٢٧ •

الى اسم جزيرة كانت تسمى « عربة » • أو أنهم نسبوا الى جزيرتهم التى أطلق عليها بلاد العرب (٨) •

خامسا ـ متى استعملت هذه الكلمة :

أوثق النصوص التى وردت بها كلمة العرب هو القرآن الكريم، فقد خاطب القرآن الكريم العرب باسمهم ، وهذا من أرجح الشواهد على أن هذا الاسم كان معروفا عندهم •

وان كان بعض المستشرقين مثل « موللر » يرى أنه لا يمكن الجزم بتعيين الوقت الذى استعمل فيه هذا اللفظ علما على أمة العرب ، متعللا بعدم وجود نصوص مدونة تبين بجلاء أن العرب حضرهم وبدوهم كانوا يسمون أنفسهم عربا ، وهو يشك فى صحة ما ورد فيه لفظ العرب فى الشعر الجاهلى وفى الاخبار المروية (٩) •

ولكن هذا الرأى ضعيف اذ يستحيل أن يخاطبهم القرآن باسم يطلقه عليهم وهم لا يعرفونه •

وعدم وجود النصوص المدونة لا ينفى استعمالهم للكلمة ، فالعرب كانوا أمة أمية ، ذات حضارة شفوية •

على أن الجزيرة العربية لم تكشف بعد عن آثارها ودفائنها ونقوشها حتى يمكن الجزم بما قرره هذا المستشرق •

ومادام القرآن قد خاطبهم بهذا الاسم فلابد أنهم كانوا يعرفونه قبله ، وهناك أدله كثيرة تؤيد هذا وتعضده :

(أ) ومن ذلك نقش النمارة الذى كشف فى مدفن امرىء القيس بن عمرو وقد كتب شاهدا على قبر هذا الملك الذى كان أحد ملوك اللخميين ، وتاريخ تدوينه يرجع الى شهر ديسمبر ٣٢٨ م •

---

(٨) راجع العرب قبل الاسلام ص ٤٢ .
(٩) دراسات فى العصر الجاهلى ص ٢١ .

والنمارة كانت قطرا صغيرا للروم فى الحرة الشرقية من جبل الدروز •

وكان امرؤ القيس هذا من ملوك الحيرة وامتد نفـوذه الى بادية الشام وقد جاء فى هذا النقش (١٠) :

١ ـ « تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج » •

٢ ـ وملك الاسدين ونزو وملوكهم وهرب مذحجـو عكدى وجـاء •

٣ ـ بزجى فى حبج نجران مدينـة شمر وملك معدو ونزل بنيه •

٤ ـ الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه •

٥ ـ عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده •

واذا أردنا توضيح هذا النص وتقريبه الى لغتنا كتبناه على هذا النحو :

١ ـ هذه نفس (قبر) امرىء القيس بن عمرو ملك العـرب كلها الذى عقد له التاج •

٢ ـ وملك قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وشتت مذحجا بالقوة وجـاء •

٣ ـ بانتصار فى مشارف نجران مدينة شمر وملك معـدا ، وولى بنيه •

٤ ـ الشعوب ، ووكله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه •

---

(١٠) راجع العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ط ٢ ص ٣٥ ـ ٣٦ دار المعارف مصر ، وراجع دراسات فى العصر الجاهلى ص ٢٢ ـ ٢٣ •

٥ ــ فى القوة . وقد هلك سنة ٢٢٣ يوم ٦ كسلول ليسعد الذى ولده •

ويمثل هذا النص طورا من أطوار اللغة العربية قبل نزول القرآن . وكلماته عربية عدا كلمة « بر » الآرامية •

وهذا النص مسجل قبل الاسلام بنحو ثلاثة قرون ، ويظهر فيه اطلاق لفظ العرب على هذا الجنس من سكان الجزيرة ، وهو يعنى أن امرأ القيس كان أعظم ملك عربى خضعت له جميع ملوك العرب ، الذين كانت لهم ممالك قريبة منه فى شمالى الجزيرة •

وقد استنتج بعض المستشرقين من هذا النص أن لفظ العرب فى هذا النص محدد بسكان المناطق التى حكمها امرؤ القيس المذكور فقط ، وقد فسر لفظ العرب بالاعراب الرحل أى البدو •

ولكن هذا الاستنتاج ضعيف •

(ب) وهناك نصوص عربية جنوبية أقدم من هذا النص وتطلق لفظ العرب على البدو والحضر (١١) •

ومن هذا ما ورد فى نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب (١٢) •

يقول : « وأعرب ملك حضرموت ، وأعرب ملك سبأ » وأعرب معناه أفصح وأراد وقد فسرها بعضهم (١٣) فى هذا النص بأن أصله أعراب جمع عرب وهو وهم فأعراب جمع ولا واحد له •

(د) وقد جاء ذكر العرب فى آداب اليونانيين القدماء أمثال

---

(١١) راجع دائرة معارف الكتاب المقدس ص ٢٧٥ .
(١٢) الدكتور خليل نامى من رقم ٧٣٧١ .
(١٣) أحمد أبو الفضل فى دراسات فى العصر الجاهلى ص ٢٤ .

« ايشيلوس ٥٢٥ ــ ٤٥٦ ق•م• وهيردوت ٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق• م•
واكسينفون ٤٣٠ ــ ٣٥٤ ق• م •

(هـ) كما جاء ذكر كلمة « عــرب » فى النصــــوص الاشورية والفارسية القديمة •

(و) كما ورد فى العهد القديم مثل « فى الطرقات جلست لهم كاعرابى فى البرية » (١٤) • ومثل (١٥) « وكل ملوك العرب •• » أى سواء كانوا حضريين أو بدويين •

واذا كان النص الاول وردت فيه « أعرابى » بمعنى بــدوى فان النص الثانى شمل البدو والحضر •

كذلك ورد فى العهد القديم (١٦) أيضا « العرب وكل رؤساء قيدار هم تجاريدك » والخطاب هنا لمدينة « صور » وقــد جــاء ذكر اسم « قيدار » وهم من آباء عدنان فى أنساب العرب •

وكذلك ورد لفظ العرب فى النصوص العبرية التى نزلت بعد نفى بنى اسرائيل ، ومعناه القبائل التى هاجرت الى شرقى منخفض وادى عربة والاردن • كقوله (١٧) : « ولما سمع سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى ، وجشم العربى هزأوا بنا واحتقرونا » •

وكل هذه النصوص القديمة تدل على أن اسم العرب قديم فى الجزيرة وأطرافها كما يدل على انتماء سكانها الى العرب ،واحساسهم بهــذا الانتماء الى ذلك الجنس العربى ، وتميزهم بهذا الاسم عمن عداهم •

ولا نقف كثيرا أمام تمحلات بعض المستشرقين وتغيراتهم التى

(١٤) سفر آرميا الاصحاح الثالث فصلة ٢ .
(١٥)سفر آرميا الاصحاح ٢٥ فصلة ٢٤ .
(١٦) سفر حزقيال ــ الأصحاح ٢٧ فصلة ٢١ .
(١٧) سفر نحميا الاصحاح الثانى الفصلة ١٩ .

لا تقدم ولا تؤخر كثيرا فى القضية . بعد أن أيد القرآن وجود هذا الاسم وخاطب العرب به . وهو أوثق مصدر تاريخى •

ويمكننا من خلال هذه النصـــوص التى استعرضناها أن نقف بالكلمة عند حد تاريخى هو القرن السادس قبل الميلاد فى المصـــادر اليونانية القديمة مثل «ايشيلوس» ٥٢٥ ــ ٤٥٦ ق•م• أو هيرودوت ٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق• م•

أما فى الحضارة العربية فأقدم نص يقف عند القرن الثالث الميلادى أو على التحديد قبل الاسلام بثلاثة قرون كما جـــاء فى « نقش النمارة » •

سادسا ــ تسميات أخرى للعرب :

وقد أطلق على أهل الجزيرة العربية أسماء كثيرة :

(أ) ومن ذلك لفظ « سراكينى » فى اليونانية واللاتينية ، وقد كان هذا اللفظ يطلق على القبائل العربية التى تقيم فى بادية الشام وشبه جزيرة سيناء وبعد ميلاد السيد المسيح اتسع مدلول هـــذا اللفظ وخاصة فى القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية فأطلق على العرب جميعا •

وأقدم من ذكر هذا الاسم هو « ديوسقوريدس » اليونانى فى منتصف القرن الاول للميلاد (١٨) •

وقد أطلقه المسيحيون بكثرة فى القرون الوسطى على جميـــع العرب ، وعلى جميع المسلمين عربا كانوا أو غير عرب •

وهذه الكلمة اما مأخوذة من مادة « سرق » فى العربيـــة ، وأن سراكينى تعنى سراقين فى اللغة العربية ، وفى هذا اشارة الى أن العرب قوم يغيرون وينهبون •

---

(١٨) دراسات فى العصر الجاهلى ص ٢٨ .

أو أن هذه الكلمة مركبة من كلمتين هما « سارى » و « قين » وسارى يعنى سارة و « قين » يعنى عبده ، ومعناهما معا قينة سارة أو عبدة سارة وهى هاجر أم العرب المستعربة وزوج ابراهيم عليهما السلام وأم اسماعيل أبى العرب •

وفى كلا التفسيرين سوء قصد ، وغرض التشنيع •

(ب) وهناك لفظ « سكنت » ومعناه سكان الخيام وهو مشتق من الكلمة الاغريقية « سكانى » أى خيمة ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان بادية الشام والعراق وسكان شمالى الجزيرة العربية •

(و) كما أطلق عليهم لفظ « شرق » ومعناه المشرق وقد أطلق هـــذا الاسم عليهم فى التوراة فقيل « بنو قدم » أى بنو المشرق •

وقيل أن هذا الاسم تحريف لكلمة «سراة» والمراد جبل السراة الفاصل بين تهامة والحجاز •

(جـ) وقد عرف العرب عند الفرس باسم « طى » ولعله مأخوذ من اسم قبيلة طيىء المعروفة وكانت تسكن قريبا منهم فى العراق وقد حرفت هذه الكلمة فى العبرية الى « طايوبى » (١٩) •

سابعا ــ الساميون وموطنهم :

١ ــ من هم الساميون :

لا خلاف على أن الســـاميين نسبة الى « سام بن نوح » الذى ذكرت التوراة أن من نسله كان الشعوب السامية التى تتفـــاهم باللغات السامية •

واللغات السامية هى لغات الشعوب التى تتفاهم بالعربيـــة والعبرانية والسريانية والحبشية ، والتى كانت تتفاهم بالفينيقيـــة والاشورية والارامية •

---

(١٩) راجع دراسات فى العصر الجاهلى ٢٨ ، ٢٩ •

وهذه اللغات لا خلاف على أنها متشابهة فى ألفاظها وتراكيبها •

٢ ـ وقد اختلف فى موطن هؤلاء الساميين :

(أ) فأصحاب التوراة يرون أن مهد الانسان هو ما بين النهرين ومنه تفرق الى الارض . ومرجعهم فى ذلك أقوال التوراة •• ولا يقول بهذا من علماء العصر الا القليل •

(ب) أما المستشرقون فقد نظروا فى ذلك باعتبار اللغات واشتقاقها ، فرأت جماعة أن هناك تشابها بين اللغات السامية والحامية (لغات افريقيا) فقالوا أن مهد الساميين فى افريقيا •

ومنهم من قال أن مهدهم كان فى الحبشة نظرا الى قربها لغة ومكانا من بلاد العرب •

وذهب كثير منهم الى أن مهد الساميين جزيرة العرب ومنها تفرقوا فى الارض كما تفرقوا فى صدر الاسلام ، ولهم على ذلك أدلة لغوية واجتماعية وأخلاقية وذهب البعض الى أن مهدهم كان فى بادية الشام الى نجد ، كما ذهب البعض الاخر الى أن مهد الساميين كان فى جنوبى الفرات •

وعلى أى حال فان مسألة مهد الساميين لا تزال من المسائل الغامضة ولكن يمكن أن نقول فى شىء من الاطمئنان الى أن الساميين كانوا فى أعالى جزيرة العرب (٢٠) •

وقد بقى بعضهم فى البادية بين العراق والشام ، وسمى أهل تلك البادية بالاراميين أى أهل المرتفعات أو الجبال ، وأهل ما بين النهرين (دجلة والفرات) يسمونهم « عمورو » أى أهل الغرب لان بلادهم واقعة غربى الفرات ، وسموهم أيضا « عريبى » أو عرب • وقد نطقها أهل اللغات السامية الاصلية « الغربيون » وكانوا يسمون بلادهم بلاد الغربيين أو بلاد العرب •

---

(٢٠) العرب قبل الاسلام ص ٤٦ ، ٤٧ •

ولا غرابة فى تسميتهم بالغربيين ، فهذا أمر نسبى ، فالشىء قد يكون شرقيا بالنسبة الى شىء ، وغربى بالنسبة الى شىء آخر ، وعندنا فى محافظاتنا الشرقية والغربية فالشرقية شرقى الدلتا ، والغربية غربها •

ثامنا ــ طبقات العرب :

قسم بعض المؤرخين العرب الى ثلاث طبقات :

١ ــ العرب البائدة وهم الذين بادوا ودرست آثارهم ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس •

٢ ــ العرب العاربة ، وهم العرب القحطانية من حمير ونحوها من أهل اليمن •

٣ ــ العرب المستعربة • وهم العرب العدنانية وهم أولاد اسماعيل عليه السلام الذين نشأوا فى الحجاز •

وقد جعل (٢١) بعض الباحثين الطبقات الثلاث طبقتين اثنتين• لانه نظرا الى العرب الباقين قبل الاسلام ، ولم ينظر الى العرب البائدة •

ويمكن أن نوزع تاريخ العرب على هذه الطبقات الثلاث ، ففى العصور القديمة كانت السيادة للقبائل الشمالية من جزيرة العرب، وهم من العرب البائدة مثل عاد وثمود وقد حكى القرآن عنهم وفى العصر الوسيط كانت السيادة للجنوبيين من أهل اليمن ، وأكثرهم من القحطانيين •

وفى العصر القريب من الاسلام ، أو فى الدور الثالث عادت السيادة للشماليين مرة أخرى ، وأكثر قبائله من العدنانية •

---

(٢١) راجع العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ٤٨ .

تاسعا ــ بلاد العرب :

اذا أردنا ببلاد العرب جزيرتهم فقط كانت حدودها هى بحر عمان وخليج العرب والمحيط الهندى وخليج عدن جنوبا ، والبحر الاحمر وسيناء والبحر الابيض المتوسط غربا ، ونهر الفرات الى قنسرين فى الشمال الغربى من سورية شمالا ، وقد سمى الجغرافيون من العرب بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها (٢٢) •

واذا أردنا بجزيرة العرب البلاد التى كانوا يسكنونها فان حدودها تختلف باختلاف العصور السياسية •

وعلى كل حال فان العرب كانوا يدخلون فى جزيرتهم كلا من سورية ولبنان وفلسطين نظرا الى تشابه السكان فى الاصل واللغة• أما علماء الغرب فيجعلون الحد الشمالى لجزيرة العرب خطا وهميا يمتد من خليج العقبة الى مصب دجلة والفرات المسمى «شط العرب» والتحديد العربى أقرب الى التحديد الطبيعى •

---

(٢٢) راجع معجم البلدان لياقوت أبى عبد الله الحموى الرومى البغدادى ليبزج بروك هوس سنة ١٨٦٦ م •

الباب الثانى : العصر الجاهلى

١ ــ الادب الجاهلى

٢ ــ العصر الجاهلى

٣ ــ جزيرة العــرب

٤ ــ المجتمع الجاهلى

٥ ــ الطبقات الاجتماعية

٦ ــ العلاقة بين القبائل

٧ ــ مكانة المرأة

العصر الجاهلى

نود فى البداية أن نبين معنى كلمة « أدب » ثم نبين بعد ذلك معنى ماذا يقصد بالعصر الجاهلى :

أولا — نشأة كلمة أدب :

١ — لم ترد كلمة « أدب » فى العصر الجاهلى مستعملة فى المعنى الذى نستعمله الان • وهو النشاط الانسانى الذى يعبر عن صاحبه وعن الحياة تعبيرا جميلا بل انه لم يرد الينا من مادة « أدب » فى العصر الجاهلى الا كلمة « آداب » بمعنى الداعى الى الطعام يقول طرفة بن العبد البكرى :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى
لا ترى الآدب فينا ينتقر (١)

وقد اشتقت من كلمة « آدب » بمعنى الداعى الى الطعام « مأدبة » وهى الطعام الذى يدعى اليه الناس ليأكلوا •

ولم تخرج كلمة « ادب » فى العصر الجاهلى عن هذا المعنى •

٢ — وفى العصر الاسلامى استعملت كلمة « أدب فى معنى تهذيبى أخلاقى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » •

٣ — وفى العصر الاموى نجدها تستعمل فى المعنى التهذيبى ثم تكتسب معنى جديدا هو المعنى التعليمى ، فلقد كان الخلفاء يستخدمون طائفة من المعلمين لابنائهم يسمونهم المؤدبين ،

---

(١) الجفلى بفتح الجيم والفاء الدعوة العامة الى الطعام . ومعنى ينتقر يخص جماعة دون آخرين بالدعوة . فهو يدعو الناس جميعا الى مأدبته ، وفى هذا مدح بالكرم .

يعلمونهم الخطابة والشعر وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم وبهذا أصبحت كلمة « أدب » فى هذا العصر مقابلة لكلمة « العلم » .

٤ ــ وفى العصر العباسى استعملت كلمة « أدب » فى المعنيين التهذيبى والتعليمى .

وقد سمى عبد الله بن المقفع (٢) كتابيه « الادب الكبير » و « الادب الصغير » لهذا المعنى ، وأطلق أبو تمام (٣) على الجزء الثالث من ديوان الحماسة « باب الادب » وأطلق البخارى (٤) « كتاب الادب » على باب من أبواب صحيحه الذى جمعه .

٥ ــ وفى القرنين الثانى والثالث الهجرى وما تلاهما من قرون كانت كلمة « أدب » تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم وقد ألف الجاحظ (٥) « البيان والتبيين » وألف غيره كتبا بهذا المعنى .

٦ ــ ولم تقف كلمة « أدب » عند المعنى التعليمى الخاص بصناعة النظم والنثر ، بل اتسعت لتشمل كل المعارف الدينية والثقافية والاجتماعية .

٧ ــ وظلت هذه الكلمة تدل على الثقافة حتى جاء القرن الماضى ، فتطورت وأصبحت على معنيين ، معنى عام ، ومعنى خاص

---

(٢) عبد الله بن المقفع كاتب من كتاب العصرين الاموى والعباسى، وكان فارسيا وله كتب كثيرة مترجمة الى العربية ، منها الادب الكبير والادب الصغير ، وكليلة ودمنة .

(٣) من شعراء العصر العباسى الاول .

(٤) من أكبر حفاظ الحديث وكتابه من أصح كتب الحديث الشريف.

(٥) هو أبو عثمان بن بحر والجاحظ وسمى بذلك لجحوظ كان فى عينيه وله كتب كثيرة منها البيان والتبيين والحيوان .

أما المعنى العــام :

فيشمل كل ما ينتجه العقل والشعور والوجدان سواء كــان أدبا أو علما أو ثقافة أو فلسفة •

وأما المعنى الخاص :

فهو الادب الخالص الذى يعبر عنه الاديب عن معنى من المعانى أو تجربة من التجارب بأسلوب مؤثر جميل •

ثانيـــا :

أما العصر الجاهلى فيقصد به تلك الفترة الزمنية التى سبقت الاسلام بقرن ونصف أو قرنين على الاكثر (٦) وهى الفتــرة التى اكتملت فيها للغــة العربية كل خصائصها ومميزاتهــا الصــــوتية والتعبيرية •

معنى كلمة الجاهلية :

ولا يقصد بكلمة الجاهلية أنها مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكنها تدل على المعنى الذى يقابل كلمة الاسلام •

وقد أريد بها فى الشعر الجاهلى معنى الحمق والطيش يقــول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـــن أحــد علينـــا
فنجهــل فــوق جهــل الجاهلينــا

ومعنى البيت : لا يكن من أحد سفه أو طيش أو حمق فيجد منا فى مقابلتها ثأرا أشد وأقسى منهما•

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه فى وصف عبــاد الرحمن

---

(٦) راجع الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٥٤ . اريخ الشعر قبل الاسلام. الكتاب اللبنانى بيروت •

« وعباد الرحمن الذين يمشـــون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (٧) •

وجاء أيضا على لسان موسى : عندما طلب من قومه أن يذبحوا بقرة ، فظنوا أنه يستهزىء بهم فقال « معاذ الله أن أكـون من الجاهلين » •

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لابى ذر عندما عير رجلا بأمه : « يا أبا ذر انك امرؤ فيك جاهلية » •

ثالثا ــ حياة العرب فى الجزيرة العربية :

١ ــ الجزيرة العربية واسعة مختلفة المناخ ، فيها المنطقةالصحراوية الجبلية المرتفعة ذات الاغوار المنخفضة الشديدة الحـرارة ، وفيها الجبال الشاهقة ذات القمم التى ربما تتوجها الثلوج ، وفيها الاغوار والجبال والمناطق الرملية الكثيرة المخاوف ، وفيها مناطق عرفت بالجدب الذى يدفع العربى الى الهجرة والتنقل وعدم الاستقرار •

وهناك مناطق أخرى عرفت بالخصوبة التى تغرى بالاقامة والاستقرار ، وتجعل العربى يحب أن يبقى بها لمـا فيها من المطر والـكلأ •

وفى الجزيرة أيضا بعض المناطق التى يحتبس عنها الماء فتموت الحياة ، وفيهـا السيول التى تتدفق فتجرف أمامهـا كل شىء •

٢ ــ وكان لهذا التضاد الجغرافى أثره فى أخلاق العرب ، وكان من مظاهر هذا التضاد النفسى المتمثل فى مبالغة البدوى فى الخير والشر ، فهو لا يعرف القصد والاعتـدال فى الامور ،

---

(٧) الفرقان ــ الاية ٦٣ (٣) البقرة ــ ٦٧ •

بل انه يسرف فى العداوة ويبالغ فيها جدا ثم يكون منه الحب الذى يسرف فيه ويبالغ ، ويمضى فى الغدر ، ثم يبذل حياته فى سبيل الوفاء •

٣ ــ وهذه الطبيعة غير المستقرة فرضت على العرب عدم الاستقرار، ومن هنا احتقروا الزراعة والصناعة وجعلوهما معاش الضعفاء وأهل العافية •

ولم يبق أمامهم الا الصيد والقنص والرعى والتجارة لانها فى زعمهم تليق بالكرماء •

٤ ــ وحياة الصحراء بمجاهلها ومخاوفها ربت فى أبنائها الاعتماد على النفس وخلقت منهم رجالا أقوياء يمتازون بالشجاعة والجرأة وعزة النفس والالفة كما جعلت الكرم من أخص شمائلهم وأبرز أخلاقهم •

٥ ــ وكانت هذه البيئة سببا فى وجود شىء كثير من الضيق فى العيش والفقر والحرمان لوجود المناطق المجدبة التى يتعرض أهلها للحرمان •

ولهذا نشأت طوائف الصعاليك الذين لم يجدوا وسيلة الا السلب والنهب والغزو والاغارة على الاغنياء •

ومن هؤلاء الشعراء الصعاليك : الشنفرى وتأبط شرا ، وسليك ابن السلكه وعروة بن الورد •

رابعا ــ المجتمع الجاهلى :

المجتمع الجاهلى بوجه عام مجتمع قبلى ، وحدته الاجتماعية القبلية التى تتكون من الاسرة الكبيرة •

ويرأس القبيلة شيخ كبير مجرب ، يمتاز بالحكمة وسداد الرأى وسعة الثراء ، وهو الذى يقودها فى الحروب ، ويفصل بينها فى

المنازعات والمشاحنات ، ويستقبل الوفود باسمها ، ويعقد الصلح والمخالفات نيابة عنها ، ويحمل القسط الاكبر من جرائرها ودياتها ، ويقوم بمعظم واجباتها وينهض بهـــا ، وله فى مقابلة ذلك حق الطاعة والتوقير •

ومن هذه الوحدات القبلية يتكون المجتمع الجاهلى •

وكان أبناء القبيلة يؤمنون بوحدتها ويتعصبون لها ، ويتضامنون فيما بينهم فيما يجنبه أحدهم كما يقـــول المثل العربى « فى الجريرة تشترك العشيرة » ويعملون بالمبدأ القائل : « أنصر أخاك ظالمـــا أو مظلوما » •

ولكن اذا خرج الفرد على وحدة القبيلة وتصرف تصرفا فرديا ، كأن يقترف جريمة فى القبيلة ، أو يرتكب ما يشين ، أو يجر عليهـــا بسلوكه وصمة عار ، أو تعددت جرائمه خارجها حتى عجزت عن نصرته ، أو تحمل تبعاته،عند ذلك تخلعه القبيلة وتسحب منه جنسيتها، وتتبرأ منه فيسمى « خليعا » •

وقد يفر الخليع الى الصحراء فقيرا مشردا ، وقـــد يلجأ الى قبيلة أخرى يعيش فى جوارها ، ومن هنا ينشأ «قانون الجـــوار » وحقوقه عند العرب •

فيعيش الخليع فى جوار هذه القبيلة التى لجأ اليها مواطنـــا من الدرجة الثانية ، يفنى فى شخصية القبيلة الجـــديدة ، ولا تعود له شخصيته الاعتبارية ، وربما رفض الخليع أن يفنى فى شخصية القبيلة الجـــديدة التى اســـتجار بها وربمـــا لا يرضى أن يعيش مواطنا من الدرجة الثانية ، فلا يكون أمامه الا الصحراء يقيم بهـــا حيث يزاول نشاطه •

ومن هؤلاء الخلعاء والشذاذ كانت طائفة كبيرة من الصعاليك ، ومنهم قيس بن الحـــدادية الذى خلعته قبيلته فألف عصـــابة من صعاليك العرب •

وكذا آمنت القبيلة بوحدتها آمنت كذلك بجنسها ودمها . فكان أبناؤها يؤمنون بامتيازها على كل القبائل ، ومن هنا كان الفخر وكانت المفاخرات والمنافرات .

خامسا ـ الطبقات الاجتماعية فى القبيلة :

وقد نشأ عن الايمان بوحدة الجنس وامتيازه أن نشأت عندهم طبقات ثلاث اجتماعية تتألف منها القبيلة .

أولا :

طبقة الاحرار الصرحاء ، وهم أبناء القبيلة الذين ينتمون الى أب واحد ، ويجرى فى عروقهم الدم العربى الخالص الذى لا تشوبه شائبة ، ومن هؤلاء تتكون الطبقة الارستقراطية فى القبيلة .

ثانيا :

طبقة الموالى وهم العتقاء من العبيد . أو الاحرار الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم . ولجأوا الى القبيلة ليعيشوا فى كنفها وحمايتها .

ومكانة هذه الطبقة وسط بين الاحرار ، وبين العبيد .

ثالثا :

طبقة العبيد : وهم الاسرى الذين يقعون فى يد القبيلة عند حروبها ، أو الرقيق المجلوب من البلاد الاجنبية وخاصة من الحبشة .

وأسوأ هذه الطبقات جميعا طبقة العبيد وقد كانت أسرع الطبقات استجابة الى دعوة الاسلام .

سادسا ـــ العلاقة بين القبائل :

هـــكذا كان النظام السياسى الاجتماعى فى المجتمع الجـــاهلى بين القبائل فى البادية التى استقرت فى بعض المدن مثـــل « مـــكة » و « الحيرة » •

ومع هذا فقد كان هناك اتحادات تجمع القبائل وتربط بينها بما يسمى « الحلف » حيث كانت القبـــائل الضعيفة تحالف القبائل القـــوية •

وكان لهذه القبائل المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يســـــمى « الندوة » يضم شيوخ العشائر ينظر فى شئون القبيلة وتدور فيه المناقشات ، وتتخذ القرارات الخاصة بها •

سابعا ـــ مكانة المرأة فى المجتمع الجاهلى :

تختلف مكانة المرأة فى المجتمع الجاهلى تبعا لحريتها ورقها ، فقد كان من بين الاماء عاهرات يتخذن كأخدان ، وفتيات يقمن فى حوانيت الخمر على تقديم الشراب والضرب على آلات الطـــرب •• ومنهن جوار تخدمن الشريفات ومنهن راعيات للابل •

أما الحرائر فكن أعلى منزلة ، وان كان من الحرائر من تقـــوم بالطهى ونسج الثياب والشريفات ومنهن كن مخدومات ، تقـــــوم الجوارى لهن بهذه الاعمال ، كما كن يخترن أزواجهن •

وعلى العموم ، فقد كان للمرأة الجاهلية قدرها ومكانتها ، وكان العربى يناديها بأخت القوم ، أو باسم أبيها أو أخيها •

الباب الثالث : الشعر الجاهلى

مقـــــدمة

أولا : الشعر الجاهلى ومكانة الشاعر فى القبيلة

ثانيا : روايتـــــه

ثالثا : مصـــــادره

مقـــــــدمة :

من دواعى اعتزازنا بلغتنا وأدبنا أن أدبنا عريق الجــذور ، قديم قدم التاريخ العربى ، فأقدم نص فيه يرجع الى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى أى أن عمره ألف وخمسمائة عام، ومع هذا لا نجد صعوبة شديدة فى قراءته وفهمه مادات ضوابطــه وقواعده وموازينه هى التى لغتنا وأدبنا والحمد لله الى اليوم •

وما نلاقيه الان من صعوبة فى فهم بعض الشعر ، ليس مرده الى اللغة ولكن الى عدم الماحنا أو معرفتنا بطبيعة الحياة الجاهلية ذاتها وتصورها بما كان يجرى فيها فلو أننا وضعنا الان من ليس على علم بالصحراء ليعيش عليها سيجد مهما كانت درجته الثقافية ، سيجد عنتا فى تصور الحياة على هذه الصحراء والتعــــرف على ما يعيش عليها أو يكون فيها ، اننا سنكون غرباء عن صحرائنا ونحن نزورها لاول مرة ، كما أننا سنكون غرباء على شواطئنا ونحن نأتى اليهـــا زائرين دون علم أو معـــرفة بهـــا ، وكذلك أهل الصحراء وأهل الشواطىء سيكونون غرباء على أقاليمنا اذا جاءوها دون سابق معرفة •

ونخلص الى القول أن سبب الغرابة ليست اللغة على أى حال ، وانما هو جهلنا بما يجرى على هذه الارض وما يدب عليها وما يعيش فيها أو يحكمها من تقاليد •

أما ما عدا هذا فالادب شعره ونثره يمكن أنيفهم وأن يقرأ وأن يتمثل معناه •

لنا نحن العرب أن نفخر بأدبنا الذى تمتد جذوره عبـــر ألف وخمسمائة سنة ، لم يتوقف الفن العربى ولا العقل العـــربى عن

الابداع طوال هذه الفترة السحيقة من الزمن حتى الان ، ولنا أن نفخر بهذا التاريخ وذلك الادب وذلك التواصل العقلى الرائع •

ويزداد اعتزازنا بتراثنا العظيم ، ويزداد فخرنا بأصالته ، اذا عرفنا أن أقدم نص غربى لا يزيد عمره عن ثمانية قرون ، أما أدبنا فأبو الاداب جميعا ، لان أقدم نص فيه عمره ألف وستمائة عام •

أولا ــ الشعر الجاهلى :

الصحراء بسكونها وهدوئها ووهادها وبعالمها السحرى تعلم الشعر ، والبدوى فى غدوه ورواحه ومسائه وصباحه يرى الالهام والفن أنى اتجه نظره أو أرسله فى الافق •

فالشمس ضاحية والقمر مشرق ، والحياة مجلوة مكشوفة واضحة ، ينظر العربى من فروج الخيمة وثقوبها فيرى الكون على مد البصر دون لبس أو غموض ويرى الشاعر العربى الطبيعة وقد تجلت أمامه كتابا مفتوحا • فيتضاعف فى نفسه الشعور بالجمال ، كما نما معه حب الوضوح والصراحة •

وكانت اللغة وهى أداة الشعر قد استقرت فى لسانه ، واستقر عليها لسانه فالتقى فى وجدان العربى حب القول ، وحب الفن والجمال ، وحب الصراحة والوضوح ، وحب الاعراب عما فى النفس ، فماذا يمنعه من القول • واللغة لغته ، والحياة كلها شعر أو صالحة لقول الشعر •

ثانيا ــ مكانة الشعر والشاعر فى الحياة الجاهلية :

كان الشعر يمثل الحياة الجاهلية أو قل ان شئت هو الحياة الجاهلية ، فقد كان الوسيلة الوحيدة لاذاعة المحامد ، والوسيلة الاعلامية الوحيدة ، كان هو الصحافة والكتابة والاذاعة بمختلف وجوهها وكان المدرسة والكتاب •

وكانت ذاكرة العربى قوية تحتفظ وتعى ، وتتشبث بما لديها من تراث شعرى ، ولهذا فرغوا بعضهم ليكون راوية للشعر ادراكا منهم لوظيفته ومنزلته ومكانته •

وكانت القبائل لا يهنىء بعضها بعضا الا بنبوغ شاعر أو ولادة فرس ، ولعل السبب فى ذلك أن الشاعر كان ملاذ القبيلة وحامى ذمارها والمدافع عنها ؛ وعنوان فكرها وثقافتها وحامل لواء فخرها •

وكانت للشعر صولة ومكانة فى النفوس وفى الحياة الجاهلية كلها • يرفع البيت من الشعر قدر قبيلة خاملة ، ويضع قدر قبيلة شريفة •

١ — ومن ذلك أنه كان فى الجاهلية رجل بسيط الحال اسمه المحلق. لا يعرف الناس عنه شيئا ، ولا يدور على لسانهم ذكره ويروون أن بناته قد أصبحن عوانس ، فمر عليه الاعشى فأكرمه ، فمدحه الشاعر الاعشى بقوله :

« وبات على النار الندى والمحلق »

فاشتهر ذكره على كل لسان ، وعظمت منزلته ، ونهض الشباب من سادات العرب ليتزوجوا من بناته •

٢ — وكان ينو أنف الناقه وهم بطن من تميم يعتبرون فى منزلة ثانية بين القبائل وكانوا يعيرون بهذا الاسم ، فمدحهم الحطيئة بقوله :

قوم هم الانف والاذناب غيرهم
ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فرفع هذا البيت من نقيصتهم •

٣ ــ وبنو عبد المدان قوم عظام الاجساد ، طوال القامة يعتــزون بهذا ويفتخرون ولما مثلوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجدوا ما يمدحون به أنفسهم الا طول قامتهم وعظم أجسادهم ، فهجاهم حسان رضى الله عنه بقوله :

لا بــأس بالقــوم من طول ومن قصــر
جســم البغــال وأحــلام العصــافير

كان للشعر وللشاعر فى الجاهلية هذه المنزلة الضخمة ، لانه كان النافذة الوحيدة ولا يزال النافذة الوحيدة للحياة الجاهلية كلها وأسرارها وغوامضها ، ولهذا اتجهت اليه همة المستشرقين بالــدرس والبحث ، ليتعرفوا على الحياة الجاهلية تعرفا صادقا .

ثانيا ــ رواية الشعر الجاهلى :

عرف العرب الكتابة فى العصر الجاهلى ، واســتخدموها فى بعض أغراضهم ، كما تشهد بذلك نقوشهم التاريخية وآثارها الشعرية التى خلفها الجاهليون .

يقول امرؤ القيس (١) :

لمن طـــلل أبصــــرته فشــجانى
كخط زبـــور فى عســـيب يمانى

ويقول (٢) أيضا : « كخط زبور فى مصاحف رهبان »

ويقول المرقس الاكبر :

الدار قفر والرســوم كمــا رقش العنوان فى الرق كاتب

---

(١) ديوانه من قصيدة هذا البيت مطلعها ص ٧٧ .
(٢) الديوان من قصيدة مطلعها قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان ص ٨٠ والزبور الكتاب والمصاحف جمع مصحف ، وهو صحائف مكتوبة مجموعة بين دفتين ، والعسيب الجريدة من النخل .

ويقول الاخنس بن شهاب التغلبى :

لابنة حطان بن عوف منازل
كمارقش العنوان فى الرق كاتب

ويقول لبيد بن ربيعة فى معلقته :

وجلا السيوف عن الطول كأنها
زبر تجد متونها أقلاقها

ولكن هذه الكتابة لم تكن شائعة ، ولم تأخذ صفة الظاهرة ، انما كانت تتمثل فى أعداد قليلة فى المدن ، وأقل من القليل فى الصحراء ، واذا كانت الصحراء نبع هذا الفن الشعرى ، وقد عرفنا أنه لم تكن الكتابة شائعة فيها عرفنا مدى الجهد الذى بذل فى الحفاظ على الشعر ، وأدركنا أيضا الضياع الذى نال منه وأتى عليه •

ويحدد الاستاذ محمد فريد وجدى عدد القارئين الكاتبين فى الجزيرة كلها بما لا يزيد عن تسعة عشر ، منهم اثنان أو ثلاثة فى مكة • (نقد الشعر الجاهلى ص ٦٨) •

ولهذا لم يستخدم العرب الكتابة فى تدوين أشعارهم ، ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدنا من الرواة من يذكر أنه نقل عن قرطاس مكتوب فى الجاهلية ، أو يزعم أن شاعرا جاهليا كان قد ألقى قصيدته من صحيفة مكتوبة •

يقول الجاحظ (٣) فى كتابه البيان والتبيين : « وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكر ، ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام • والى رجز يوم الخطام ، أو حين يمنح على رأس بئر ،

(٩) جـ ٣ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ طبعة دار صعب بيروت .

أو يحدو ببعيد : أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، فما هو الا يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذى يقصد فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم هو لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده » ٠

وما قيل من أن المعلقات كانت قد كتبت وعلقت على الكعبة ، فهذا لم يثبت صدقه ، اذ يمكن تفسير التعليق على أنه من العلوق بالنفس ، أو من العلق بمعنى النفيس ، أو تعليقهم لها يعنى حفظها ، كأنهم لاحظوا مكانتها عندهم ونفاستها وحفظها ٠

واذا عرفنا أن القرآن الكريم والسنة الشريفة لم يدونا الا بعد لحوق الرسول بالرفيق الاعلى ، وبعد تردد كبير ٠ وهما — ما نعلم — ركنا الشريعة ودستورا الحياة الدينية والمدنية ٠ عرفنا أن العرب لم يكونوا على علم بالجمع أو بالتدوين ٠

فاذا ضممنا الى ذلك صعوبة وسائل الكتابة فى هذا العصر من جلود وعسيب نخيل وحجارة وعظم ، وقد كانت مما يستخدم فى التدوين ، وأضفنا اليه أن العرب لم يكونوا متحضرين أو مقيمين بحيث يمكنهم الحفاظ على هذه الادوات ٠

واذا كان الشعر فى الصحراء ، وهى تكاد تكون خالية من الكتاب ٠ اذا عرفنا ذلك كله عرفنا لماذا لم يكن التدوين وسيلة لحفظ الشعر ، وكانت الرواية الشفوية هى الاداة التى تنقل بها الشعر الجاهلى بين الرواة والحفاظ ، وانتقل بواسطتها من جيل الى جيل حتى عصر التدوين ٠

(١)

ففى العصر الجاهلى قام الشعراء أنفسهم بدور هام ضخم فى مجال الرواية ، حتى جعلوا الرواية وحفظ الشعر واستظهاره مدرسة يتعلم فيها الشعراء المبتدئون فن الشعر ، يتمرنون على صوغه،

ويعالجونه تحت بصر أستاذ معلم خبير ، ويتعلمون قوانينه، ويتمرسون بأساليبه وفنونه . مبدعين حافظين راوين •

كانت الرواية مدرسة فنية يتعلم فيها الناشىء أو المبتدىء من الشعراء أصول الفن . كما يتعلم الحرفيون اليوم أصول الحرفة وقواعد المهنة ؛ ويظل الناشىء ملازما لاستاذه ، ينفذ توجيهاته وتصويباته ويلازمه مستفيدا حتى يقوى على القول ، ويبرز فيه وربما دفعته موهبته الى الصفوف الامامية ففاق أستاذه أو تفوق عليه •

وكان على من يريد أن يتعلم الشعر ، أو من يريد أن يكون شاعرا أن يلزم شاعرا كبيرا من الشعراء الكبار المشهود لهم ، والمعترف بمكانتهم . لزوما يجعله يحفظ ويروى ويتفوق حتى تكون الافادة والاجادة معا •

وكل جيل من الرواة الشعراء ، أو الشعراء الرواة يعلم جيلا آخر أصول هذا الفن حتى تكون عملية التواصل بين الاجيال •

كانت هناك مدرسة مثلا كمدرسة أوس بن حجر التى تخرج فيها زهير بن أبى سلمى صاحب الحوليات ومن أشهر أصحاب المعلقات •

وكان كعب بن زهير وكان الحطيئة تلميذين صغيرين فى مدرسة زهير وراويتين لشعره ، وكان هدبة بن الخشرم العذرى راوية الحطيئة ، وجميل بثينة راوية هدبة ، وكثير عزة راوية جميل •

سلسلة متصلة الحلقات ، كل حلقة تسلم الى الاخرى فى تواصل عظيم ، والبيوت الفنية الكبيرة لكى تحتكر هذه العملية الفنية أو تتأنق فيها فانها تعلم أحد أبنائها ، فيكون أولى بالرواية من البيوت الغريبة وحتى لا تنقطع صلتها بهذا العمل الفنى الذى

انتسب اليها وحتى يكون الراوية أمينا على تراث القبيلة وشعر شاعرها أو شعرائها فى صيانة وحرص •

ففى البدايات يكون الراوية ابن الشاعر كما فى زهير وكعب ، ويكون للراوية المرتبة الثانية بعد الشاعر ، على ما يروى (٤) ابن سلام من أن الحطيئة كان متين الشعر شرود القافية ، وكان راوية لزهير وآل زهير •

وقد قال لكعب بن زهير ، قد علمت روايتى شعر أهل البيت ، وانقطاعى اليكم وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعا فان الناس لاشعاركم أروى واليها أسرع ، فقال كعب :

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ؟
اذا ما ثوى كعب وفوز جرول (٥)

ولا يمنع هذا أن تقع الرواية فى غريب عن القبيلة كما فى هدبة بن الخشرم فهو من حمير ، والحطيئة من عبس •

ويتزايد دور الراوية أهمية بعد موت الشاعر • وتتضاعف مهمته وأهميته ، اذ أن عليه الى جانب رواية الشعر للشاعر الراحل أن يجمعه ويحافظ عليه ، ويصبح مرجعا له ومفسرا ومعلقا أمينا عليه ، وبهذا كله تكون نظرة قبيلة الشاعر الراحل اليه •

ولقد كان للقبيلة دور خطير فى رواية هذا الشعر ، ولكنه دور مختلف عن دور الراوية • فدورهم يقتصر على حفظ ما يصورهم صاعدين فى سلم المجد ، طموحين الى الغايات البعيدة ، موصوفين بأجمل الصفات وأعزها ، ثم هم بعد ذلك ينسون ما عدا هذا من كل ما يصورهم مهزومين مغلوبين ، منعدمى المروءات •

---

(٤) طبقات الشعر ص ٣٤ دار الباز مكه المكرمة .
(٥) جرول اسم الحطيئة .

أى أنهم يعون ويحفظون ما يرفع مكانتهم وما يبقيهم فى دور متميـــز ، ومن هذه النظرة كان لون من اختلاف الرواية •

وهناك من الشعراء من لم تكن الرواية حرفته أو صنعته .ومن لم يرغب فى التلمذة الشـــعرية على الجيـــل الاكبر ، وليس هناك أدنى صـــلة بالقبيلة تحمـــله على التغنى بالشـــعر الذى يصـــــور أمجادها •

وانما يجمع هذا الشعراء سلوك واحد ، واتجاه واحــــــد ، ومذهب يلتقون عليه ويلتفون حوله ، وهم الشعراء الصعاليك ، الذين انقطعوا عن الناس انقطاعا كليا ، ولازموا الصـــــحراء والمغارات واحترفوا السلب والنهب ، فهؤلاء الشعراء يحفظ بعضهم لبعض ، ويروى بعضهم عن بعض •

والى جانب هؤلاء وأولئك كان هناك رواة للشعر الجاهلى ، لا يختصون بقبيلة معينة ولا بشاعر معين ، انما كانوا يتناقلون الشعر من كل الشـــعراء ومن كل القبـــائل ويملأون محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، باعتباره سجلا عاما للاخبار والانساب والمآثر والوقائع، ولم يكن لهم شـــاغل ســـواه ••



وتختلف الرواية من شخص الى شخص آخر ، وترتبط بظروف كل راوية وعمره ومزاجه واتجاهه ، فالحماسى يحفظ شعر الحماسة ويترك بالطبع ما عداه ، والغزلى يحفظ ما يوافق طبعـــه من شعر الغزل ويقف عند ذلك ، والمعزم بالجانب الاخبارى أو بالانســـاب أو المآثر والوقائع ، يحفظ ما يغريه وهذا مما أحدث قدرا آخـــر من الاختلاف فى الرواية •



كانت الرواية فى العصر الجاهلى على النحو الذى ذكرناه ، وحدث بعض ظهور الاسلام أن خفت صوت الرواية وتوقفت رواية الشعر الجاهلى لما يحمله من مباذل وقيم لا تتفق مع قيم الـــدين الاسلامى ومبادئه ؛ ولعدم تلاؤمه والاوضاع الاجتماعية الســـائدة فى المجتمع الجديد وقيمه •

الى جانب أن العرب قد شغلهم عن الرواية انشغالهمبالفتوحات؛ قال (٦) عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ؛ فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشــــــعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلـــك وقد هلك من العرب من هلك بالموت أو القتل ، فحفظوا أقل ذلـــك ، وذهب منه أكثره » •

(٢)

واطرد سير الرواية فى العصر الاسلامى ، فلم يعق مجـــراه عائق اذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعذب بعض الشعر وكثيرا ما يستنشد الصحابة الشعر ، ولو كان شعر أعدائه كأميـــة بن أبى الصلت ، كما يقول الشريد بن سويد الثقفى : « اســـتنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية ، فأنشدته وهو يقول : هيه ، هيه ، حتى بلغت مائة قافية » (٧) • وكذلك كان الصحابة يتناشدون أشعار الجاهلية وأخبارها • قار جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الاشعار بالمسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله عليه الصـــلاة والسلام » (٨) • وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر

---

(٦) طبقات الشعر ص ١٧ دار الباز مكة المـــكرمة .
(٧) طبقات الشعر ص ١٧ دار الباز مكه المـــكرمة .
(٨) راجع ابن سعد وخزانة الادب والمزهر .

الجاهلى ، وكثيرا ما كان يتمثل به فى خطبه • وكان عمـر لا يـكاد يعرض له أمر الا أنشد فيه بيت شعر . كما يقول ابن سلام •

ثم كان هناك ما يدفع الى الاهتمـام بالرواية : كتـدوين الدواوين فى عهد عمر ، حيث اقتضى هذا التدوين معرفة الانساب لاهميتها فى رواتب الجند الفاتحين . وفى مراكز القبائل بالمـدن الجديدة ، وكان النسابون من أمثال عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل ، يستشهدون بالشعر فى تحديد الانساب •

ومنذ اشتعال الحرب بين على ومعاوية حتى نهاية العصـر الاموى ، والعصبيات القبلية تدفع كل قبيلة الى العناية بروايـة شـعرها الجاهلى ، لترد به على خصومها ، بما يسجله من مآثرها ومفاخرها ومثالب أعدائها • فكان ذلك أيضا من عوامل العناية برواية الشعر الجاهلى حتى عصر التدوين (٩) •

(٣)

وفى العصر الاموى توافرت للرواية أسباب الرعاية والعناية ، وأتيح لهذا التراث الجاهلى من يتلقفه ويحفظه • فقد كان الملوك والخلفاء من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان يعنون أشد العناية بالشعر والشعراء ، حتى كانوا يسألون وفود القبـائل عن بعض شعرائها ؛ وقد يرصدون الجوائز لمن يدلهم على صـاحب بيت أو قصيدة ، وقد يختلفون فى بيت من الشعر فيكتبون فيه البريد الى العراق ، يسألون العلماء عن حقيقته وصحته •

ثم انهم كانوا يتخذون لابنائهم المؤدبين الذين يعلمونهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، على النحو الذى أشرنا اليه من قبل فى تطور مدلول كلمة (أدب) (١٠) •

---

(٩) طبقـات ابن سـعد .
(١٠) راجع (العصر الجاهلى) للدكتور شـوقى ضـيف .

وكانت هناك طائفة (القصاص) التى تعظ الناس فى المساجد ، وهؤلاء كثيرا ما كانوا يروون للناس فى ثنايا مواعظهم الاشعار الجاهلية التى بقصصهم •

ولم يكن ثمة شاعر مبرز فى هذا العصر الا وهو يروى للجاهليين، فقد عنى الشعراء برواية الشعر القديم ، حتى أخذ العلماء عنهم الكثير ، ومنهم ذو الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة (١١) •

على أنه نشأت فى هذا العصر طائفة أخرى من الرواة ، لم تكن من الشعراء ، ولا قصدت الى تعلم الشعر ، انما كان همها ترويج الشعر ونشره واذاعته فى النـاس ، وكان منهم من يختص برواية شعر عصره ، ومنهم من يتخصص فى رواية الشعر الجاهلى •

(٤)

فلما كان العصر العباسى نشأ من العرب والموالى ، ومن القراء وغيرهم ، رواة تخصصوا فيها ، واحتشدوا لها ، واهتموا بها ، حتى أصبحت عملا أساسيا لهؤلاء الرواة • وقد ساعد على الاهتمام بها الاعتماد على الشعر الجاهلى والاستشهاد به فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم ، وفى وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها •

وكان هؤلاء الرواة فى جملتهم يمثلون مدرستين كبيرتين هما : مدرسة البصرة وأمامهم فيها أبو عمرو بن العلاء ، ومدرسة الكوفة وعلى رأسها حماد الراوية ، ولكن البصرة كانت أوثق رواية من الكوفة التى اشتهرت بالوضع والانتحال ، حتى تضخمت رواياتها ، ودخلها الكثير من المصنوع • يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه

---

(١١) للجاحظ فى البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه اسماء المؤدبين •

بالبصرة . ولكن أكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله . وذلك بين فى دواوينهم » (١٢) •

وروا'ة البصرة والكوفة على العموم تختلف مراتبهم من حيث الجرح والتعديل تبعا للامانة فى الرواية أو عدم الدقة والتحرى فيها •

ومن أشهر هؤلاء الرواة :

١ — أبو عمرو بن العلاء ، وهو رأس رواة البصرة (٧٠ — ١٥٤ هـ)، وهو من أعلام المدرسة النحوية ، وأحد القراء السبعة ، وكان ثقة حجة أمينا تقيا صالحا ، كما كان أعلم الناس بالغريب والعربية والقرآن والشعر • وربما اكتسبت البصرة به سمعتها فى صحة الرواية وأمانتها •

٢ — حماد الراوية (٩٥ — ١٥٦ هـ (وهو رأس الرواية بالكوفة، وكان من الموالى ، شاعرا يحسن صوغ الشعر ، كما كان أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بمذاهب الشعراء وطرائقهم فى التعبير ، الا أنه كان فاسقا ، فاسد المروءة ، ماجنا زنديقا • استغل موهبته هذه فى انتحال الشعر ووضعه على لسان الجاهليين ، وقيل أنه كان يحفظ لكل حرف من حروف الهجاء مائة قصيدة ، وقد ساعده ذلك على معرفة مذاهب الشعراء الذين ينطقهم بما لم يقولوا. يقول ابن سلام فى طبقاته : « كان أول من جمع أشعار العرب حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الاشعار » (١٣) •

ويقول المفضل الضبى : « قد سلط على الشعر من حماد ما أفسده ، فلا يصلح أبدا • انه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب

---

(١٢) مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الاسد ١٥٩ .
(١٣) مراتب النحويين ص ٧٤ •

رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الافاق .. » (١٤) .

٣ ـ خلف الاحمر (١١٥ ـ ١٨٠ هـ) وهو من رواة البصرة المشهورين ، من الموالى ، وهو مثل حماد بالكوفة ، اجادة لنظم الشعر ، ومعرفة بمذاهب الشعراء . ومع أن ابن سلام يشهد له بقوله : « كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانا » (١٥) ، الا أن كثيرا من الرواة الثقات اتهموه اتهام حماد . قال الاصمعى : « انه وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيرا ، وعلى غيرهم » (١٦) وقال المبرد : « لم ير أحد قط أعلم بالشعر أو الشعراء منه ، وكان يضرب المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه .. ثم نسك ، فخرج الى أهل الكوفة فعرفهم الاشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس . فقالوا : كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم » (١٧) .

وقد شهد هو على نفسه فزعم أنه كان يعطى حمادا المنحول فيقبله منه ويرويه (١٨) . ويقال أنه وضع لامية العرب على الشنفرى .

٤ ـ ومن الرواة الوضاعين : برزخ العروضى ، وجناد ، ومحمد ابن السائب الكلبى ، وابنه هشام .

٥ ـ ومن الرواة الثقات : الاصمعى (١٢٢ ـ ٢١٥ هـ) بالبصرة ، وقد شهد له معاصروه بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها ، ووثقوه وعدلوه . يقول ابن جنى : « وهذا الاصمعى هو صناجة الرواة والنقلة ، واليه محط الاعباء والثقلة » (١٩) . وقال عنه

---

(١٤) طبقات الشعر : ٤٠ .
(١٥) الاغانى ٨٩/٦ ومعجم الادباء ٢٦٥/١٠ .
(١٦) ٢١ .
(١٧) مراتب النحويين : ٤٧ .
(١٨) الاغانى ٩٢/٦ .
(١٩) الخصائص : ٣١١/٣ .

أبو الطيب اللغوى : « لا يفتى الا فيما أجمع عليه العلماء ؛ ولا يجوز الا أفصح اللغات » (٢٠) .

كذلك : المفضل بن محمد الضبى المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، وهو من رواة الكوفة . وكان عالما دقيقا بشعر الجاهلية . ويجمع رواة البصرة والكوفة على توثيقه . وهو صاحب كتاب (المفضليات) من أشعار الجاهليين .

٦ ــ وهناك غير هؤلاء : أبو زيد الانصارى صاحب كتاب (جمرة أشعار العرب) وقد توفى سنة ٢١٥ هـ . وأبو عبيدة البصرى صاحب (النقائض) و (اعجاز القرآن) وتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، ثم أبو عمرو الشيبانى م (٢١٣ هـ) . وابن الاعرابى م (٢٣١ هـ) ، وابن السكيت م (٢٤٤ هـ) . ثم أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى الذى انتهت اليه الرواية بالبصرة ، وجمع كثيرا من دووابن الجاهليين ، وتوفى سنة ٢٧٥ هـ . ثم ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ (٢١) .

---

(٢٠) مراتب النحويين : ٤٩ .
(٢١) راجع فى هذا الفصل كتاب (العصر الجاهلى) لشوقى ضيف

تدوين الشعر الجاهلى

وأهم مصادره

ـ ١ ـ

يبدو أن فكرة تدوين الشعر الجاهلى بدأت منذ أوائل القرن الثانى الهجرى • فقد ذكروا عن حماد الراوية أنه تعلق بالشعر منذ نقب على بيت رجل ، فسرقه ، وكان فيما أخذه جزء من شعر الانصار • ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان (١) •

وكان أبو عمرو بن العلاء الى جانب اعتماده على الرواية يقيد كثيرا من الاشعار والاخبار ، حتى ملات كتبه بيتا له (٢) • وتروى للمفضل الضبى كتب فيها أشعار وأخبار (٣) • غير أن الثابت أنه لم يكتب المفضليات ، ولكنه أنشدها تلاميذه •

ومع ذلك فقد كان الرواة بصفة عامة يتحرجون من تدوين الشعر ، لانه يحتاج الى تلقين خوفا من اللحن فيه •

ومهما يكن من شيء فان هذا التدوين ـ اذا صح ـ كان تدوينا تاريخيا عاما للقبائل وأخبارها وأشعارها ، ولم يكن تدوينا منهجيا قائما على الدقة والجرح والتعديل •

أما التدوين الحق فقد نهض به جماعة من الرواة فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث ، وعلى رأسهم الاصمعى الذى اهتم بجمع الشعر الجاهلى فى دواوين ومجموعات صحيحة •

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٣٤ .
(٢) البيان والتبين ١/٣٢١ .
(٣) انباء الرواة ٣/٣٠٢ .

وكان هؤلاء الرواة لا يدونون الا ما يستوثقون منه ، بل كانوا يرحلون الى الصحراء للتحقق من صحة ما سمعوه . قالوا ان أبا عمرو الشيبانى دخل البادية ومعه (دستيجتان) من حبر ، فما خرج حتى أفناهما فى كتابة ما سمع من العرب (٤) . كما كان بعض الاعراب يفدون على الحواضر لاشباع نهم الرواة فيما يدونون .

هكذا تتسع حركة التدوين والتأليف ، حتى نرى هشا بن محمد الكلبى يؤلف نحو ١٤٠ كتابا ، ومثله المدائنى ، ويؤلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفا . وقد فقد معظم هذه المصنفات ، وبقى القليل . مثل كتاب (الاصنام) لابن الكلبى .

على أن كثيرا من المؤلفين ، وخاصة المؤرخين ، لم يتحروا الدقة فيما جمعوه ودونوه ، مثل ابن اسحق صاحب السيرة النبوية ، الذى حشد فى كتابه كل غث ، وكل مصنوع ، ولم يكن له علم بالشعر . يقول عنه ابن سلام : « وكان ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه ، محمد بن اسحق بن يسار ... كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة . وليس بشعر ، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف ... » (٥) .

كما أن ابن هشام صاحب السيرة تعقبه كذلك فى سيرته ، ورفض كثيرا مما رواه أو صحح نسبته .

وهكذا أتيح لهؤلاء الوضاعين والمحرفين من يتعقبهم من الثقات العدول ، فيميز الصحيح من الزيف .

ونمضى فى مجال التدوين ، حتى نجد أبا عمر الشيبانى يجمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة . ثم نرى السكرى يجمع كثيرا من الدواوين ، من بينها (ديوان هذيل) ، وهو يعد أهم راو فى

(٤) نزهة الالباء للانبارى : ٦٣ .
(٥) طبقات الشعراء ص ٨ .

النصف الثانى من القرن الثالث ، ويجمع بين الروايتين : البصرية والكوفية •

وينتهى القرن الثالث ، وقد عرفنا فيه الى جانب ذلك من المؤلفات الجامعة : حماسة أبى تمام ، و (البيان والتبيين) للجاحظ ، و (الكامل) للمبرد ، و (عيون الاخبار) لابن قتيبة ، و (الشعر والشعراء) له أيضا •

وتتسع موجة التأليف فى القرن الرابع ، حتى نرى مثل : (الاغانى) للاصبهانى ، و (الامالى) للقالى ، و (الموشح) للمرزبانى ، وغيرها من مؤلفات ابن دريد ، وابن الانبارى • وكان هؤلاء يسلسلون رواياتهم ، حتى ينتهوا بها الى الثقات من أمثال ابن العلاء والضبى •

— ٢ —

ولعل من المفيد أن نشير هنا الى أهم مصادر الشعر الجاهلى ، مما جمعه ودونه هؤلاء العلماء والرواة ، من منتخبات عامة ، أو دواوين للشعراء أو القبائل :

١ — المعلقات :

وأول من جمعها فيما يقال ، حماد الراوية ، وقد جعلها سبعا ، لامرىء القيس ، وزهير ، وطرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة • وجعلها المفضل الضبى فى المفضليات سبعا كذلك ، ولكنه أسقط ابن حلزة وعنترة ، وأثبت مكانهما الاعشى والنابغة • ثم جعلها التبريزى فى شرحه عليها عشرا ، فجمع بين الروايتين ، وأضاف قصيدة (أقفر من أهله ملحوب) لعبيد بن الابرص• وقد شرحها الزوزنى على رواية حماد •

٢ — المفضليات :

وهى للمفضل الضبى ، وتعد من أوثق مصادر الشعر الجاهلى،

لان صاحبها من الرواة الثقات . على أنهـا تصور جوانب الحياة الجاهلية بأيامها وأحداثها . وعلاقة القبائل بعضها ببعض ، وبملوك الحيرة والغساسنة .

وهى فى بعض النسخ ١٢٦ قصـيدة . وفى بعضـها ١٢٨ . وفى البعض ١٣٠ قصـيدة . لسـبع وستين شـاعرا ، منهم ٤٧ جاهليـا .

وقد شرحها ابن الانبارى ، وأثبت فى مقدمة الشرح سـندها الذى رفعه الى ابن الاعرابى تلميذ المفضل .. ثم نشرتها دار المعارف بتعليق عبد السلام هرون وأحمد شاكر .

٣ ـ الاصمعيات :

للاصمعى ، وهى كالمفضليات فى الثقة بها . وتبلغ قصائدها ٩٢ قصيدة لواحد وسبعين شاعرا ، منهم ٤٠ جاهليا .

وقد نشرها آلورد سنة١٩٠٢ عن نسخة فى برلين .ثم نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسـخة للشنقيطى عن نسـخة قديمـة .

٤ ـ جمرة أشعار العرب :

لابى زيد محمد القرشى ، ممن عاشوا فى أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع . وبها ٤٩ قصـيدة موزعة على سـبعة أقسـام : المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيـات ، والمذهبـات ، والمراثى ، والمشوبات ، والملحمات .

ولا تصل هذه المجموعة على كل حال الى مستوى المفضـليات والاصمعيات ، من حيث الثقة ، لضعف سندها . وقد طبعت مرارا فى القاهرة وبيروت .

٥ ــ مختارات ابن الشجرى :

المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وهى كالجمهرة فى ضعف سندها ، وتضم مختارات من الشعر الجاهلى والاسلامى • وقد طبعت بالقاهرة •

٦ ــ ديوان الحماسة لابى تمام :

وهو مقطوعات جاهلية واسلامية وعباسية ، موزعة على عشرة أبواب ، أكبرها باب الحماسة • وقد شرحه المرزوقى الذى قال : ان أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه ، وغير بعض الالفاظ • كما شرحه التبريزى ، وكل من الشرحين مطبوع •

وهناك كذلك : حماسة البحترى ، وحماسة ابن الشجرى التى طبعت فى حيدر آباد ، وغيرهما من دواوين الحماسة •

٧ ــ دواوين الشعراء الستة الجاهليين :

وقد جمعها الاصمعى من شعر امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة • وقد شرحها الشنتمرى ، ونشرها آلورد •

وقد طبع ديوان امرىء القيس مستقلا عدة طبعات ، أهمها طبعة دار المعارف ، كما نشرت دار الكتب ديوان زهير ، بشرح ثعلب • كما طبعت دواوين النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر • ونشرت كذلك أشعار الهذليين ، وديوان أبى ذؤيب الهذلى •

٨ ــ شرح النقائض :

وهو لابى عبيدة ، وقد جمع فيه كثيرا من الشعر الذى قيل فى أيام العرب •

ومن الكتب التى تناولت أيام العرب كذلك : الكامل لابن الاثير، والعقد الفريد لابن عبد ربه •

٩ ـ طبقات الشعراء :

وهو لابن سلام ؛ وقد درس فيه الشعر الجاهلي ؛ وحقق نسبته . وبين الصحيح منه والموضوع •

١٠ـ كتب أخرى :

وهناك غير ما تقدم : طبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وأمالى اليزيدى ، وأمالى القالى ، ومجالس ثعلب ، والمؤتلف والمختلف للامدى ، وكتابا الموشح ومعجم الشعراء للمرزبانى ، ثم خزانة الادب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ •

ويعد كتاب (الاغانى) للاصبهانى من أكبر مصادر الشعر الجاهلى وأوثقها ، فقد ترجم فيه للشعراء من القرن السادس الميلادى الى القرن التاسع للميلاد • وسجل كثيرا من الشعر الذى فقد ، واهتم بالاسانيد التى ترجع الى مصادرها الاولى من الرواة الثقات ، وكان ذا ذوق وبصر بالشعر ، مما أعانه على الدقة والتحقيق والتثبت (٦) •

---

(٦) راجع (مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الاسد ، و (العصر الجاهلى) لشوقى ضيف .

الباب الثالث

الظاهرة الطلليـــة

الفصل الاول : العوامل النفسية •

الفصل الثانى : عوامل الفناء •

الفصل الثالث : عوامل البقاء •

الفصل الرابع : الخمـــر •

الفصل الخامس : الطبيعة •

الفصل السادس : وصف الناقة •

الفصل السابع : بكاء الاطلال غرض جاهلى أصيل •

الفصل الثامن : الشاعر الجاهلى •

البـــاب الثـــالث

الظاهرة الطلليـــة

الفصـــل الاول

يقول المسعودى (١) فى مروج الذهب : « ان ما تذكره العرب وتكنى به من ذلك (أى من المخاوف) انما يعرض لها من قبيل التوحيد فى القفار والتفرد فى الاودية • والسلوك فى المهامه الموحشـــة ، لان الانسان اذا صار فى مثل هذه الاماكن يوجد له تفكر ووجل وجبن ، واذا هـــو جبن داخلتـــه الظنون الكاذبة والاوهام المؤذية الفاسدة ، فصورت له الاصوات ، ومثلت له الاشخاص وأوهمته المحـــال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس ، وقطب ذلك وأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى ، أو طريق مستقيم سليم • لان التفرد فى القفار مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها فى نفسه ، فتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف » •

ذكر المسعودى هذا الكلام وهو يتحدث عن أساطير العرب ، وانما ذكرته هنا لانه يعطينا الحالة النفسية لمن يعيش فى الصحارى الموحشة ، ومن يتفرد فى المهامه ، انه لابد أن تراوده عوامل شتى من الجبن والخوف ، ومادام قد خاف فلابد أن تسيطر عليه ظنـــون وأوهام ، وهو يستشعر الخوف ويتوهم المتالف ، ويتوقع المـــوت وان لم يقع لقوة الظنون الفاسدة على فكره تمكنها من نفسه ••

ويصف (٢) ابن خلدون حاله العربى فى الصحراء بعامة ، وكيف

---

(١) راجع الفصول للعقاد ص ٥٠ دار الكتاب العربى بيروت ط ٢ ١٣٨٧/١٩٦٧ •

(٢) راجع المقدمة ص ١٢٩ طبعة دار الباز بمكة المكرمة .

أن قسمتهم فى الحياة جعلتهم أهل شظف وسغب . فكان معاشهم من القيام على الابل . والابل تدعوهم الى التوحش فى القفـــر لرعيها من شجره ونتاجها فى رماله ، والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة . وصار طبيعة فى أجيالهم ، فلا يرضى أحـــد من الامم أن يعيش معهم ، أو يأنس لهم ، « بل لو وجد واحد منهم السـبيل الى الفرار من حاله ، وأمـكنه ذلك لمـا تركه فيـؤمن عليهم » ..

وما ظنك برجل لو وجـد الى الفرار من حاله سبيلا وتمكن من ذلك لفر منه حتى يأمن البطش والاعتـداء ؟ هذه حال العربى فى هذه الصحراء .

ويذكر ابن خلدون (٣) أن الله ركب فى طبائع البشر الخـير والشر ، وأن الشر أقرب الخلال الى الانسان اذا أهمل ، ويقــول : « من أخلاق البشر الظلم والعدوان بعض على بعض ، فمن امتــدت عينــه الى متاع أخيــه ، فقـد امتدت الى أخذه ، الا أن يصده وازع ، كما قال :

والظلم من شـيم النفـوس فان تجـد
ذا عفــــة فلعــــلة لا يظـــلم

ويذكر أن الناس مختلفون : فأما أهل المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة .

وأما أحياء البدو فيمنع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم لما لهم من وقار واجلال ، وأما مضاربهم فانما يذود عنهـــا العدو الخارجى حامية الحى من الشبان والفتيان والشجعان ، ولا يصــدق دفاعهم الا اذا كانوا عصـبية ، فلا يقع عدوان على أحد منهم ، مع وجود العصبية له .

---

(٣) المصدر ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

وأما المتفردون فى أنسابهم أى الضعفاء فى النسب ، فانهم ضعاف لا يعتدون على أنفسهم ، فقل أن تصيب أحدا منهم نعرة على صاحبه ، ولا يصمدون فى الحرب ، فاذا قامت الحرب تسلل كل منهم يبغى النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل ، ولا يستطيعون السكنى فى القفار ، لانهم حينئذ طعمة لمن ينتهبهم »..

والعصبية انما تكون فى النسب ، فليس فى الصحراء مكان لضعيف العصبية ، يقول أعرابى (٤) :

ولم أر عزا لامرىء كعشيرة
ولم أر ذلا مثل نأى عن الاصل

فالعز الحقيقى فى العشيرة ، والفقر الحقيقى فى البعد عنها .

وما أشد هوان العربى ان كان فى قوم غير قومه لسبب من الاسباب ، بأن أسر أو سبى ، أو كان خليعا فى قومه ، أو مطرودا منهم ، يقول الشاعر (٥) :

اذا كنت فى قوم عدا لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب

ويقول آخر (٦) :

كأن الغنى فى أهله بورك الغنى
بغير لسان ناطق بلسان

ويقول (٧) طرفه حين طرد وصار فى غير قومه :

ولا غرو الا جارتى وسؤالها
الاهل لنا أهل جعلت كذلك

(٥،٤) راجع الكامل للمبرد ص ١٤٨ ج ١ معارف بيروت سنة ١٩٧٨ .

(٦) راجع ديوان طرفة ص ١٠١ — ١٠٢ وراجع الاصمعيات دار المعارف ص ١٤٩ مع نقص البيت الاخير ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون .

(٧) راجع المقدمة ص ١٢٩ طبعة دار الباز بمكة المكرمة .

تعـــــير ســـيرى فى البلاد •• ورحلتى
الارب دار لـــى ســــوى حــــر دارك
وليس امــرؤ أفنى الشــباب •• مجاورا
ســـوى حيـــه •• الا كآخــر هــالك

لقد كان بين طرفه وبين جارته حوار ، فقد وجدته غريب الاهل والدار فسألته ، أين أهله ؟ وأين داره ؟ فدعا عليها أن تصير الى مثل ما صار اليه . ولقد عيرته رحلته عن داره ، فقال لها ، ربما كان له دار سوى دارها ، ثم يذكر لها أن الفتى الذى قطع عمره ، بعيدا عن أهله هو فى عداد الاموات •

ويزداد شعور المحب قلقا وألما ، اذا ما مر على ديار حبيبته ، ووجدها خاوية خالية ، أو كان غريبا وأثير أو استثير بأن عوتب أو ليم أو اشتم فى هذا اللوم وذلك العتاب رائحة الاهانة والاساءة •

وهو ان مر على دياره ، أو تصور ذلك . أو توهمه على الاقل ، تداعت الشجون الى خواطره ، واتكأ الاحساس على مكان الجرح فى نفسه ، فوقف وبكى ، واستعبر وشكا ، وصور همومه وأحزانه ، وشعوره بالالم ، وانسابت أحاسيسه بالضياع الى نفسه ، وضاعف من تلك الاحاسيس هوانه فى غير قومه وغربته عنهم ، فـــكان الاحساس مضاعفا ، والالم أشد ، ووقع الكارثة على قلبه يقارب حد الموت •

ومن هنا لا نستغرب أن يبكى مع الطلل نفسه ، وأن يستعبر على حياته من خــلال دمعاته المتألمـــة ، على آثــار داره وقومه •
لهذا لا نستغرب أن يبكى الشاعر على الاطلال ، وأن يقدم هذا البكاء على كل الاغراض الشــعرية التى فى القصيدة ، وأن يتصدر القصيدة الجاهلية •

ولـــو أننا استقرأنا القصــائد فى الشعر الجاهلى لوجدنا أن الكثرة الهائلة منها مبدوءة بالبكاء على الاطلال ويأتى وصف الناقة فى المرتبة التالية ، ثم النسيب ، ثم الخمر •

الفصل الثـــانى

عـــوامل الفنـــاء

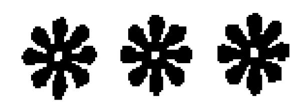
يبدأ الشاعر قصيدته عادة بهذه الامور . أو بواحدة منهـــا ، ويجعلها تتصدر قصيدته ، ثم يتفنن ويتصرف فى الخروج منها الى الغرض الذى يقصده .

ولعل السبب فى افتتاح الشاعر الجاهلى قصائده بالبكاء على الاطلال كثيرا وشيوع هذا فى القصائد الجاهلية ، لعل السبب أن العربى فى هذه الصحراء الموحشة كان يحس بالخوف يتهـــدده ، ويحوطه ويضغط عليه ، ويلح على نفسه الحاحا شديدا .

والشاعر فى هذه الصحراء باعتباره انســانا كان يتجــاذبه عاملان قويان ، عامل الفناء ، وعامل البقاء ، وكان هذان الامران يشغلان باله بصورة حادة .

فعامل الفناء يجعله يخاف ويضطرب ويحس بالموت يســـد عليه منافذ الطريق ويحيط به فى كل مسلك ، ولكنه برغم ذلك كله كان يحس بعامل البقاء يملأ أقطار نفسه ، فيقاوم الخوف ولو الى حين ، ويسعد ولو الى فترة ينسى فيها ما يجد من الخوف والتبريح .

وكان عامل الفناء يلح عليه أكثر من عامل البقاء ، وكان يتمثله فى كل ما يحيط به فى كل مظاهر الحياة تقريبا ، وكان يراه فى الاهل الاقربين عندما يرحلون قهرا وفيهم أترابه وأصدقاؤه وحبيبته ، وفى مضارب القوم حين يعصف بهم المطر الشديد . والريح العاصـــفة التى تقتلع الخيام وتكفىء القدور ، فلا يستطيع معارضـــتها أو التصدى لها ، وتظل تلح عليها حتى تبلى وحتى تنال منها ما تنال .



أولا :

وسنقف مع بعض الشعراء الجاهليين لنراهم كيف يحسون بما فعلته الرياح والمطر فى الاطلال التى يبكونها •

ويعتبر امرؤ القيس اماما فى البكاء على الاطلال وقد بالغ النقاد فى وصف امرىء القيس بحسن الابتداء فى الجاهلية ، حيث يقول :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى
وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
ديار لسلمى عافيات بذى خال
ألح عليها كل أسحم هطال (١)

فديار سلمى الدارسات بذى خال دام عليها السحاب الاسود لكثرة مائه •

وقالوا انه أول من وقف واستوقف غيره ، وبكى واستبكى غيره فى البكاء على الاطلال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال (٢)

وسقط اللوى والدخول وحومل وتوضح والمقراة أسماء أماكن، ونسيج الريحين اختلافهما على المكان فاحداهما تستر الرسوم بالتراب والاخرى تزيله ، والمعنى آثار الديار لم تزل تتعاقب عليها الرياح •

---

(١) راجع ديوانه القصيدة الثانية ص ٤٥ .
(٢) الديوان — القصيدة الاولى ص ٢٩ وما بعد والرسم ما لصق بالارض من آثار الدار ونسيج الريحين اختلافهما على المكان فاحداهما تستر الرسوم بالتراب والاخرى تزيله .

فالمطر والريح جعلت آثار الديار تبلى .

وبرغم تقدمه فى بكاء الاطلال فاننا نراه يحتذى فى بكائه اياها برجل بكى الديار قبله : يقول امرؤ القيس (٣) :

عوجا على الطلل المحيل لاننا
نبكى الديار كما بكى ابن خذام

وابن خذام هذا لا نعرف عنه شيئا ، وكل ما يمكننا أن نقوله عنه : انه شاعر جاهلى قديم بكى الديار قبل امرىء القيس ، ولعله كان مشهورا بذلك ، أو بليغا فى بكائها .

ويقول طرفة من قصيدة له فى رثاء صهره (٤) .

لهند بجزان الشريف طلول
تلوح .. وأدنى عهدهن محيل
وبالسفح آيات كأن رسومها
يمان وشته ريدة وسحول (٥)
أربت بها نآجة تزدهى الحصى
وأسحم وكاف العشى هطول
فغيرن آيات الديار مع البكى
وليس على ريب الزمان كفيل

يقول طرفة أن الاثار التى تشبه السيف اليمانى ألحت عليها الريح والمطر فغيرت معالمها .

ويقول أيضا (٦) فى بكاء ديار حبيبته خوله التى بالاجزاع .

---

(٣) الديوان القصيدة رقم ١٥ من ٩٢ وما بعدها .
(٤) راجع ديوانه ص ١١٠ طبعة الشركة اللبنانية للكتاب ببيروت .
(٥) الريدة الرمح والنآجة ذات الصوت التى تحرك الحصى ، والاسحم السحاب الاسود لكثرة مائه ، والوكاف العزيز، واربت اشتدت.
(٦) القصيدة فى الديوان بعنوان « اذا جاء ما لابد منه » ص ١٠٤ والاجزاع مقاطع الوادى .

فــلا زال غيث من ربيـــع وصـــيف
عـــلى دارها حيث استقرت لـــه زجل (٧)
مرتـــه الجنـــوب ثم هبت لـــه الصـــبا
اذا مس منهـــا مسكنا عد مل نـــزل (٨)

ويقول (٩) : من قصيدته « أشجاك الربع أم قدمه » •

لعبـــت بعـــدى الســـيول بـــه
وجـــرى فى ريـــق رهمـــه (١٠)

الى أن يقول :

حابســـى رســـم وقفت بـــه
لـــو أطيـــع النفس لا أرمـــه (١١)

فالريح والامطار والسيول فعلت وتفعل فعلها فى الاطـــلال ، ونحس تعلق طرفة وولوعه بالوقوف على ديار أحبته ، حتى انه لو طاوع نفسه لا يتركها •

ويقول شاعر جاهلى آخر :

دمـــن عفـــت • • ومحـــا معالمهـــا
هطـــل أجـــش • • وبـــارح تـــرب

وكذلك (١٢) النابغة يهيجه من أسماء رسم المنازل :

---

(٧) الزجل : الرعد •
(٨) مرته الجنوب من المرى وهو الحلب والجنـــوب المراد ريح الجنـــوب •
(٩) الديوان ص ١١٥ •
(١٠) الريق أو النبات ، والرهم المطر القليل •
(١١) أرمه : أزايله •
(١٢) ديوانه ص ١٧٥ ـــ الشركة اللبنانية للكتاب بيروت •

أربت بهـــا الارواح حتى كأنمـــــا
تهـــادين أعلى تربهـــا بالمناخـل (١٣)
وكـــل ملـث مكفهـــــر ســــحابه
كميش التـوالى مرثعن الاســـافل (١٤)

فالرياح لم تزل بآثار الديار ، حتى فعلت بها ما تفعله المناخل بالرمل ، وتوالى عليها المطر السريع المستمر .

وقد نرى الرياح تثقب الرسم أو الاثر كما فى قـــول (١٥) النابغة أيضا :

أرســـما جـــديدا من ســـعاد تجنب
عفت روضـــة الاجداد منها فيثقب (١٦)
عفـــا آيه ريـــح الجنـــوب مع الصـــبا
وأســـحم ران ، مزنة متصـــوب (١٧)

وقد تكون صروف الدهر من عوامل الفنـــاء للمنازل ، يقول النابغـــة (١٨) :

تعـــاورهن صـــرف الدهـــر حتى
عفـــون ، وكـــل منهمـــر مـــرن

وصروف الدهر أحداثه ، والمنهمر المرن المطر المنهمر الـــذى يصحبه صوت الرعد .

---

(١٣) اربت : دامت .
(١٤) الملث السحاب الدائم وكميش التوالى سريع الاعجاز ، ومرثعن ثابت مستمر .
(١٥) والبيتان مقطوعة بعنوان « رسم جديد » راجع ديوانه ص ١٩٧ .
(١٦) عفت امحت ، يثقب : اى تثقبه الـــرياح التى اعفت على آثـــاره .
(١٧) الاسحم الدانى السحاب الاسود المشبع بالماء ، فأصبح قريبا من الارض يكاد ينهمر مطرا .
(١٨) الديوان من قصيدة بعنوان لست منك ولست منى .

وقد تندفع السيول من قمم الجبال كما فى قول (١٩) لبيد يصف الديار التى عفت بمنى وكيف أثرت مدافع جبل الريان فعرى رسمها ، يقول فى معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها

والمدافع الاماكن التى يندفع عنها الماء من جبل الريان المعروف وهو مثل قول حسان « فمدفع (٢٠) الروحاء فى حائل أو كمدفع أشداخ فى قول حسان (٢١) :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما
بمدفع أشداخ ..

ونلاحظ أن لبيدا استعمل كلمة « عرى » وهي من التعرية التى هى خلاف اللبس وهو استعمال دقيق ، ربما لم نقرأه لشاعر سواه ، فهل كان يقصد عوامل التعرية ، التى منها الرياح والمطر ؟. وقد كرر هذه الكلمة لبيد فى قوله فى المعلقة أيضا ، « عريت وكان بها الجميع » .

وكما أن الرياح والامطار تعرى الاطلال ، فقد تكشف السيول والامطار عن أطلال قديمة فتظهرها كما فى قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجد متونها أقلامها

---

(١٩) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى طبعة صبيح ص١٠٧ — ١٠٨ .

(٢٠) راجع قصيدته فى رثاء حمزة سيد الشهداء ص ١٩٤ من ديوانه .

(٢١) راجع ديوان حسان ص ٢١٩ و ١٨٢ .

يشبه لبيــد كشف السيول عن الاطلال التى غطاها التراب بتجديد الكتاب الدارس ، وظهور الاطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها ..

ويقول (٢٢) حسان :

أســألت رســم الــدار أم لم تســأل
بين الجــوابى فالبضــيع فحومــل
دمن تعاقبهــــا الـــرياح دوارس
والمدجنـــات من الســماك الاعــزل

والمدجنات السحب الممطرة ، والجوابى والبضيع وحومل أسماء أماكن .

ويقول حسان أيضا:

أهاجــك بالبيـــداء رســم المنـــازل
نعم قــد عفــاها كــل اســحم باطــل
وجــرت عليهــا الرامســات ذيولهــا
فلم يبــق منهــا غــير أشــعث مائــل

والرامسات الرياح الشديدة الهبوب التى تحمل التراب فتدفن به الاثار .

ويقول الاعشى (٢٣) فى معلقته :

مــا بــكاء الــكبير من أطــلال
وســؤالى فهــل تــرد ســـؤالى
دمنـــة قفــرة تعــاورها الصــيف
بريحين مــن صـــبا وشـــمال

---

(٢٢) راجع ديوان حسان ص ٢١٩ ، ١٨٢ .
(٢٣) راجع ديوانه بتحقيق الدكتور محمد محمد حسين ص ٣٩ .

أى تداولتها فمرة تهب جنوبا ومرة تهب شمالا .

ونلاحظ أن الشاعر الجاهلى فى وقوفه أمام الاطلال وقفة تأثر وألم ، ورهبة وأسى يقف طويلا طويلا فى جيشان نفسى عارم، وافضاء روحى ، وخشية وخوف ، وربما راودته نفسه أن يسألها لعلها تجيب ، فهى ذات أخبار ، يستنطقها علها تقول .

يقول النابغة (٢٤) :

وقفت بها سراة اليوم أسألها
عن آل نعم أمونا عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذات أخبار

لكن الدار كانت كالجعماء لا تنطق ، لقد أعياها الجواب .

وربما سأل الشاعر الدار ثم تعجب من سؤاله اياها ، لعلمه أنها لا تبين :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا
صما خوالد ما يبين كلامها

ويقول الاعشى فى معلقته :

ما بكاء الكبير من أطلال
وسؤالى فهل ترد سؤالى ؟

ويقول عنترة :

أعياك رسم الدار لم يتكلم
حتى تكلم كالاصم الاعجم

---

(٢٤) ديوان النابغة من قصيدة بعنوان « عوجوا فحيو النعم دمنة الدار » .

وكقول امرئ القيس :

صـــم صـــداها وعفــا رســـمها
واســـتعجمت عــن منطــق الســائل

أى ثقل سمعها ودرس رسمها وخرست فلم تنطق .

وكقوله :

ألمــا على الــربيع القـــديم بعسعسا
كأنى أنـــادى أو أكلــم أخرســـــا

ويعلل لذلك فيقول :

فلـــو أن أهــل الــدار فيها كعهــدنا
وجــدت مقيــلا عنـــدهم أو معرسا

وقد نجده يقف أمام الاثار وقفة الســكران الذاهــل التعب والمثقـــل .

فظللـــت فى دمــن الـــــديار كأننى
نشـــوان باكره صــبوح مــدام (٢٥)

وكقول النابغة فى معلقته :

وقفت فيهـــا أصــيلا كى أســـائله
عيت جـــوابا ومــا بالربع من أحـد

ان الشاعر يحس فى الاطلال أطيافا أو يتمثلها كذلك ، أو يخلع عليها ثيابا إنسانية ، يكلمها وينتظـرها أن تتكلم ، ويتســاءل ، ويتمنى لو تجيب ، فاذا تلعثمت أو استعجمت ولم ترد ، تألم أو

(٢٥) راجع الديوان ص ٩٢ وما بعدها من قصيدته « لمن الـــديار غشيتها بسحام » .

تعجب ، وارتد أسيان كئيبا ، يلعق آلامه ، بعد أن أعياها الافصاح أنها تحمل أحاسيس غالية ولهذا يرى رمادها ككحل العين :

رمـاد ككحـل العين لأيـا أبينـه
ونؤى كجـذم الحوض أثلم خاشـع

لقد بكى الشاعر الاطلال ، ووقف عندها قلقا ذاهلا ومتألما أسيان، ورأى كيف تعاورتها الرياح التى اشتدت حتى حركت الحصى ، وسفت الرمال حتى سترت الاثار ثم احتالت عليها مرة أخرى حتى أزالت الرمال ، وقد تشتد الرياح حتى تثقب الاثار .

وقد تسـوق الرياح السحاب الاسـود ، فينزل المـاء على درجاته ، المطر المستمر الخفيف منه أو الثقيل الذى يغـير الاطلال فتبلى ، وقد يكون المطر غيثا وقد يكون سيلا ، وقد يكون سـحابا خفيفا ، وقد يكون قويا كالسيل من مدافع الجبال ، كجبل الريان ، أو مدافع الروحاء أو مدفع أشداخ ، أو مجتمع الاشراج كما يقول النابغة (٢٦) .

وربما تكون العوامل أحـداث الزمان وظروفه ، أو تعريـة عواملها مسلطة على الاطلال .

وكل هذا أثر فى روحه ونفسـه ، ولون أحاسيسه بالالـم والعـذاب .

فـكفـكفت منى عبـرة فرددتهـا
على النحـر منهـا مستهل ودامع (٢٧)

من عوامل الفناء الغارات :

وقد تتمثل عوامل الفناء فى الغارات وما أكثرها على من ليست لهم عصبية أو على من لا يستطيع الفرار من حاله فقد تكون غارات

---

(٢٦) راجع قصيدته وعبد ابى قابوس ص ٧٨ من ديوانه .
(٢٧) راجع ديوان النابغة القصيدة السابقة .

لصوص صعاليك ، أو غارات أعداء ، أو غارات وحوش ؛ وهى كثيرة فى الصحراء الموحشة .

(أ) غارات الصعاليك :

يقول الشنفرى فى لامية العرب فى غارة من غاراته :

دعســـت على يغش وغطش .. وصحبتى
شـــــعار وأرزيـــز ووجـــــر وأفـــكل
فأيمت نســــوانا ، وأتمــت الـــــدة
وعدت كمــا أبدأت ، والليــل أليـــــل
فأصــــبح عنى بالغميصــــاء جالســـا
فريقــــان مســئول .. وآخــر يســأل

يصف الشنفرى رحلة أو غارة من غاراته الليلية الخاطفة ، والبرد قارس والجو عنيف ، والحياة مظلمة ، ففاجأ الناس ، فروع الامنين ، وقتل رجالهم فأيم الناس ، ويتم الابناء ، وبما سلب ونهب والليل ما يزال يطوى الحياة ثم انه بعد هذه الهجمة الخاطفة انقسم فيه الناس الى فريقين ، مسئول عنه وسائل عن أخباره وذلك لهول ما أحدث فى تلك الغارة ، وخطورة ما أرتكب .

ويستطرد الشنفرى فيقول :

فقالــوا : لقــد هــرت بليــل كلابنــــا
فقلــت : أذئب عس أم عس فرعـــــل
فلــم يـــــك الا نبــــأة ثم هـــــومت
فقلنــا قطــاة ريــع أم ريــع أجـــدل

والمعنى أنه فى هذه الهجمة كان خفيفــا سريعــا ، فتوهموه ذئبــا أو ضــبعا ، أو ظنــوه قطــاة ريعت ، أو صقرا روع فأحدث ذلك الصــوت .

والصعلوك سريع العدو وسريع الفرار .

ولقد تعود تأبط (٢٨) شرا على حياة التشرد ، وألف مصاحبة الوحوش وعرف مسالك الصحراء ودروبها •

ويبيت بمغنى الـوحش حتى ألفنـه
ويصبح لا يحمى لـه الدهر مرتعـا
وأين فتى ، لا صـيد وحش يهمـه
فلو صافحت انسا لصافحنه معـا

وربمـا وجدنا صعلوكا آخر مثل عروة بن الورد يعلل لغاراته على الامنين ، وفجيعته لهم فيمـا فى أيديهم فيقول لزوجته (٢٩):

ذرينى أطـوف فى البـلاد لعلنى
أخليك أو أغنيـك عن سـوء محضرى
فـان فـاز سـهم للمنيـة لم أكـن
أخليك أو أغنيـك عن سـوء محضرى
وان فـاز سـهمى كفكم عن مقـاعد
لـكم خلف أدبـار البيـوت ومنظـر

أو يعلل نفسه بالصعلكة فيقول (٣٠) :

ومن يـك مثلى ذا عيـال ومقتـرا
من المـال يطرح نفسـه كل مطـرح
ليبلغ عـذرا • أو يصـيب رغيبـة
ومبلـغ نفسى عـذرها مثـل منجح

ولكن هذا التعليل أو ذاك لا يقف عند النظرة الفاحصة عندما نجده يهدد ويتوعد الامنين ويزرع الخـوف واليأس ، ويسـوقهم الى الموت أو يجعلهم يرونه رأى العين يقول (٣١) مهددا :

مطـلا عـلى أعـدائه يزجرونه
بسـاحتهم زجـر المتيح(٣٢) المشهر

---

(٢٨) راجع الاغانى جـ ١٨ ص ٢١٧ .
(٢٩، ٣٠، ٣١) راجع الاصمعيات ١٠ ص ٤٣ — ٤٧ .
(٣٢) المتيح : سريع الخروج والفوز .

وان بعـــدوا لا يأمنـــون اقتـــرابه
تشـــوق أهـل الغـائب المنتظــــر
ســـتفزع بعـد اليـأس من لا يخافنا
كواســـر فى أخـرى السوام المنفــــر
نطـــاعن عنهـــا أول القــوم بالقنـــا
وبيض خفـــاف ذات وقـع مشـــهر
فيـــوما على غـارات نجـد وأهلهـــا
ويوما بـــأرض ذات شـت وعـــرعــر

ان غاراته ستفزع من لا يخاف ، وستفزع خيله من يئس من غزو الصعاليك وأمن مكرهم ، وسوف يكرر غاراته على أهل نجد ، ولا يبقى مكانا دون أن يفجأه •

ونلاحظ سوء النية المشتركة بين الصعلوك وبين أعـــدائه ، فأعداؤه يزجرونه عنهم ، وان بعدوا لا يأمنون اقترابه •

وقد مثل هذا التناقض البعد والاقتراب فى البيت الثـانى • كما نلاحظ توعده بالافزاع وتوالى الغارات فى الابيات التالية •

ويمثل الصعلوك ثورة على القيود والاوضاع الاجتماعية فى القبيلةِ وعلى الحياة ذاتها التى حرم منها وعلى الامن الذى لم ينعم به فى قبيلته ، عندما خلع منها ، أو عندما تركه قومه يلقى مصيره مع الموت المتمثل أمامه فى كواسر الوحوش ، وفى الجوع والفقر ، وفى المهانة التى يلقاها منهم •

ولقد كان خروجه على مجتمعه يمثل عملية احتجاج مسلح وحملة عصيان مدنى ، لقد فقد الطمأنينة وهو يحاول أن يغرس الخوف فى الناس ، وحرم المال ، وها هو ينتزعه منهم ، وحرم الحرية وهو يثور ليثبت أنه جدير بها •

لقد كان خروج الصعاليك على هذا النحو فى غارات واغارات وثورات ، كان ثورة على هذا المجتمع •

والمال كان هدفه العام من الاغارة والسطو . والسلاح الذى كان معه والرفاق وتعريضه روحه ونفسه للمخاطر كل ذلك كان من أجل الحصول عليه ، ولهذا كان يغير على مصادر الثروة •

فأبو خراشة الهذلى يحرض امرأته على تبديد كل ما جاء به وألا تبقى منه شيئا ، ولا تعمل حساب الغد ، فانها ان لم تجد زادا فى غدها فسيحصل لها على الزاد من الغير •

لقـــــد علمـت أم الادبيـــر أننى
أقول لهـا : هـدى ولا تذخرى لحمى
فـان غـــدا الا نجـد بعض زادنـا
نفىء لـك زادا أو نعـــدك بالازم •

وهو يكتفى بالماء القراح ويرد وحش الجوع مخافة الذل •

مخافـــة أن أحيـــا برغم وذلـــة
وللمـــوت خـير من حيـاة على رغم

كان الصعلوك يستشعر آلاما نفسية بسبب هوانه فى مجتمعه، فهو يتوارى عن الناس حتى لا يروا ما هو فيه من فقر وذل ومسغبة، ويتوارى عن أقربائه حتى لا ينكروا قرابتهم له وها هو أبو الطمحان يعلن أنه أصبح واحداً من القبيلة التى لجأ اليها ونسى أهله «كأنى منهم ونسيت أهلى » •

وها هـو السليك بن السلـكة يثير فينا الشعور بالاسى حين يصور ما لاقته احدى خالاته من الاماء السود من الضيم والذل، وهو عاجز لفقره عن أن يفعـل شيئا من أجل خلاصها وانقاذها ، يقول السليك :

أشـاب الـرأس أنى كـــل يـــوم
أرى لـــى خالـــة وســـط الرجـال
يشـــق عـلىّ أن يلقَيْن ضــيما
ويعجـــز عن تخلصـــهن ما لى

ويذكر لنا أبو النشناش النهشلى أسبابا أخرى لصعلكته ولصوصيته فيقول (٣٣) :

وسائله أين الرحيل •• وسائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
وداوية يهماء يخشى بها الردى
سرت بأبى النشناش فيها ركائبه
ليدرك ثأرا أو ليدرك مغنما
جزيلا •• وهذا الدهر جم عجائبه
اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح
سواما ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من قعوده
فقيرا ومن مولى تدب عقاربه (٣٤)

فهو يذكر أن اغاراته انما تكون للاخذ بالثأر ، أو لادراك مغنم واسع أو لبعده عن الرق والاذى ونلمح قلقه فى هذا التساؤل فى البيت الاول ، ونحس أن الصعلكة أصبحت حرفة له فى الرابع • كما نلمس مقدار احساسه الفاجع بفقدانه عطف أقاربه ، ونحس بضياعه فى الشطر الثانى من البيت الثانى ، وهو يصور أن الركائب سارت به ، وكأنه ليس له فيها اختيار ، وأنه مجبر على ذلك •

(ب) وقد تكون الغارات غارات وحش أو طير :

يقول الحطيئة (٣٥) :

أذئب القفر ، أم ذئب أنيس
أصاب البكر أم حدث الليالى

---

(٣٣) الاصمعيات قصيدة رقم ٣٢ ص ١١٨ و ١١٩ وأبو النشناش من لصوص العرب من بنى تميم كان يعترض القوافل فى شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها .
(٣٤) تدب عقاربه كناية عن اذاه .
(٣٥) راجع طبقات الشعراء ص ٣٩ .

ونحن ثلاثة وثلاث ذود
لقد جار الزمان على عيالى

لقد خرج الحطيئة مع ابنته مليكة وامرأته أمامه على ذود له ثلاث . فنزل منزلا وأسرج ذوده . فلما قام للرواح فقد احداهن فقال هذين البيتين .

ومن هذا نعلم أن الشاعر الجاهلى كان مؤرقا بالغارات من الانس أو سباع الطير والوحش .

ويقول المتلمس :

ألم تر أن المرء رهن منية
صريع لها فى الطير ، أو سوف يرمس

ويقول النابغة (٣٦) :

ترى عافيات الطير قد وثقت لها
بشبع من السخل العتاق الاكائل

(جـ) وقد تنزل به غارة قبيلة من القبائل :

التى تكون بينه وبين قبيلته عداوة أو ثأر ، وقد لا تكون هناك عداوة أو ثأر ، ولكنه نوع من تأكيد العصبية ، وحب الغلبة ، واستعراض القوة ، أو هو شىء من الظلم الذى كانوا يتفاخرون به .

بغاة ظالمين وما ظلمنا
ولكنا سنبطش ظالمينا

---

(٣٥) ديوانه من قصيدته « أهاجك من اسماء » ص ١٧٥ وما بعدها وعافيات الطير النسور الراغبة فى الصيد ، السخائل جمع بسخلة ولد الناقة الاكل والاكائل جمع اكيلة اى الماكولات .

وأحيـــــــنا عــلى بــكر أخينـــا
اذا مـــا لم نجـــــد الا أخانـــا

ومن هنـــا كانت أمثالهم « فى الجزيرة تشترك العشـــيرة » وقولهم :

لا يســألون أخــاهم حــين ينــدبهم
فى النائبــات على مــا قــال برهانــا

ومن أثر الغارات أن يهلك الحرث والنسل ، ثم مزيد من القلق وضياع الامن واضطراب الاحوال والامور ، وانعدام الطمأنينـــة

يقول الاعشى (٣٧) :

أذاقتهم الحــــــرب أنفاســـــها
وقــد تــكره الحــرب بعــد السـلم

وقد تكون الغارات مفاجئة فيقع الشاعر فى الاسر ، وقد يصير عبدا من عبيد القبيلة المهاجمة . فيبارح دياره ، وفى ذهنه الذكرى ، وفى قلبه الالم الفظيع .

وقد تتحول الطرق الى مهلكة محققة من غارات اللصـــوص والصعاليك الفتاك الاقوياء ، وكم تتعرض القوافل الامنـــة للقتـــل وما هو أفظع منه ، وقد يحاول بعض أفرادها الفرار تاركا خلفه أهله وماله وعرضه ، ولا ينفعه الفـــرار ، ومن هنا نراه ربمـــا يستأنس بالذئب مع افتراسه وهذا يفسر لنا مدى الخوف والتربص والموت التى كان يحياها الشاعر الجاهلى ، أو الرجـل الجـاهلى عامـــة .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عــوى
وصـــوت انســان فــكدت أطـــير

(٣٧) ديوان الاعشى القصيدة رقم ٤ ص ٧٥ .

كان الجاهلى ، وكان الشاعر العربى فى الصحراء يحس ذلك ويراه بعينه فى مسائه وصباحه وغدوه ورواحه ، فكان قلقا دائما ، مثــار الشعور والخــواطر ، غــير مطمئن ، ولا آمن على نفســه ولا على صغاره ، ولا على نسائه ولا ماله ، متوتر الاعصاب ، مرهق الحس والنفس •

(د) وقد يعدم الماء والكلا :

فيرتحل ماشاء له حظه العاثر أن يرتحل ، باحثا عنهما ضاربا أعماق الصحراء حتى يعثر عليهما ، حتى يوفر لنفسه وسوائمه رمق الحياة من الماء والكلأ، وكانت رحلات العربى الكثيرة من بين أسبابها عدم وفرة أسباب الحياة من الماء والكلا •

فاذا وجد الماء والكلا والعشب استقر وأقام ، وضرب خيامه ، وعب من الماء ما شاء أن يعب ، وأطلق ابله وغنمه ترعى وتشرب ، فيكون له منها اللحم واللبن والخير •

فاذا لم يعثر عليهما ، وهدده العطش والجوع ، وقرب منه أو من حيواناته أحس بالخطر على حياته احساسا ثقيلا •

ويتكرر هذا المشهد أمامه فى كل ندة خاطر ، وهتفــة حس شرود ، فاذا كان له جيران رآهم ليلا قبل نومه ، وحياهم وحيوه ، ثم أصبح الصباح وأطل من فروج خيمته وثقوبها فلم يجد الجيران الذين كانوا بالامس كراما ، يحس بالفناء يدنوا اليه ، ويقتــرب منه ، ويشعر بأن حياته باتت فى خطر ، أو أنها مهددة بشــكل أو بآخر ، ودمدت نفسه بالحزن الصامت ، والخوف المجلجل ، ونشب فى صميمه الروع العظيم •

كان عامل الفناء يتراءى للعربى فى انعدام الماء والكلأ ، وفى غارات الاعــداء والوحوش وهى كثيرة ، وفى غارات اللصــوص والصعاليك ، وفى المطر الشــديد ، والريح العاتية •

ويبدو تأثير هذا العامل فى صحراء شاسعة مهلكة ، والانسان فيها قليل .

« لقد أفسد الموت الحياة » كما يقول (٣٨) غريقة بن سافع العبسى فى رثاء أخيه وكان يخافه كانسان ، وكان يحسه يتربص به يقول (٣٩) كعب بن سعيد الغنوى :

وحدثتمانى انما الموت فى القرى
فكيف وهاتا هضبة وقليب

لقد قيل له : أخرج من الامصار بأخيك ، فكيف حدث الموت، وهذه هضبة وبئر .

ومن هنا كان وصفه للديار ، وكان بكاؤه للاطلال ، وكان ما يسمى بالمقدمة الطللية ، وكان ما سميته وأطلقت عليه « الظاهرة الطللية » ، وهو تصوير للمشاعر الحبيسة والخواطر المكبوتة التى تلح عليه دائما ، وتنتابه دائما ، ولا تبرح خواطره ، أو تدع مشاعره .

ولهذا كان بكاؤه على الاطلال غرضا ذاتيا فى القصيدة ، يصور ما يعتمل بخواطره من قلق ، وما يدور بنفسه من انفعال واضطراب وعدم اطمئنان ، انه توثيق لصلة الشاعر بالبيئة ، وتعبير عما كان يحس به من خوف أو ينتابه من صراعات وتمزق فى حياته المليئة بالصراعات والمخاوف .

ويوضح لنا تصرف الشاعر ازاء ما يحس به من قلق وعذابات . وكان الفناء يتربص به فى كل ما حوله . ويملا عليه الحياة وحشة وقلقا وتربصا .

كان بكاء الشاعر للاطلال رمزا لمعاناة الشاعر النفسية وقلقه

---

(٣٨) راجع الاصمعيات ص ٩٨ — ١٠٠ .
(٣٩) المصدر ص ٩٥ — ٩٧ .

الذاهل ، ازاء ما يقابله وما يحس به من مخاوف ، وما يترصده من مهالك ، وتعبيرا عن خواطره المثارة دائما ، تلك الخواطر التى كان يحس بها احساسا قويا يزلزل كيانه ، ويهز أعماقه هزا •

كانت المقدمة الطللية ، تمثل اشارة « الجمجمة والكارعين » التى نضعها على مواطن الهلاك ، أو للتوعية والتبصر بأماكن الخطر كأكشاك الكهرباء ، وتقاطع الطرق بالسكك الحيددية ، أو ميادين الرماية واطلاق النار ، أو غير ذلك من المخاطر والهلاك •

ولقد صور الشاعر وقع هذه الخواطر على نفسه المثقلة بالهموم تصويرا يجسم ما يحس به ، ويجسد ما يعتمل بجوانحه •

(أ) فصورها وأثر الزمان واضح عليها ، يقول النابغة فى معلقته :

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الامد

وقال حسان (٤٠) :

والنؤى قد هدم أعضاده
تقادم العهد بواد تهام

ويقول (٤١) :

كم للمنازل من شهر وأحوال
كما تقادم عهد المهرق البالى

وقال زهير (٤٢) :

---

(٤٠) الديوان ص ٢٢٨ من قصيدة « ماهاج حسان رسوم المقام »
(٤١) الديوان من قصيدة مطلعها هذا البيت ص ١٩١ — ١٩٢ •
(٤٢) معلقته •

وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وكقول لبيد (٤٣) :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها
حجج خلون خلالها وحرامها

وأثر الزمن الدرامى واضح ، ووقعه على وجدان الشاعر ثقيل ثقيل ، حتى انه لم يعرف ديار حبيبته الا بعد جهد ومشقة لبعد العهد ودروس أعلامها .

(ب) ونلمح الاثر النفسى الذى خلفه فراق الاحباب الذين تحملوا .

يقول لبيد (٤٤) :

عريت وكان بها الجميع فأبكروا
منها وغودر نؤيها وثمامها
شاقتك ظعن الحى حين تحملوا
فتكنسوا قطنا يصر خيامها

يقول لبيد : لقد عريت الطلول عن قطانها بعد كون جميعهم بها ، فساروا منها بكرة ، وتركوا النؤى والثمام ، أى لم يبق بمنازلهم منهم آثار الا النؤى والثمام .

وحملتك على الاشتياق والحنين نساء الحى ، أو مراكبهن يوم ارتحل الحى .

وكقول حسان (٤٥) :

---

(٤٣) معلقة لبيد .
(٤٤) المعلقة .
(٤٥) من قصيدته « اهاجك بالبيداء رسم المنازل » ص ١٨٥ .

ديـار التى راق الفـؤاد دلالهـا
وعـز علينـا أن تجـود بنـائل ..
ديـار التى كـانت ونحـن علـى منى
تحـل بنـا لولا نجـاء الرواحـل

وكقول الحارث (٤٦) بن حلزة اليشكرى :

لا أرى من عهدت فيها فأبكى اليوم دلها وما يحير البـكاء
وقد روى :

لا أرى من عهـدت فيهـا فأبـكى
أهـل ودى ومـا يفيـد البـكاء

وكقول النابغة (٤٧) فى معلقته :

أضـحت خلاء وأضحى أهلهـا احتملوا
أخنى عليهـا الـذى أخنى على لبيـد

وكقول (٤٨) عبيد بن الابرص :

وبـدلت من أهلهـا وحوشـا
وغـيرت حالهـا الخطـوب

(جـ) وربما لاحظ الشاعر عليها أثر الخراب .

كقول النابغة السابق :

أضـحت خلاء وأضحى أهلها احتمـلوا
أخنى عليهـا الـذى أخنى على لبـد

وكقول عبيد السابق يضا ، وكقوله :

---

(٤٦) معلقته راجع شرح المعلقات للزوزنى ص ١٨٨ .
(٤٧) راجع المعلقة فى شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٢٢٧ وما بعدها .
(٤٨) المعلقة راجع المصدر المذكور ص ٢٤٢ وما بعدها .

أرض توارثهـا شـعوب
فكل من حلهـا محـروب
امـا قتيـلا وامـا هلـكا
والشـيب شـين لمـن يشـيب

وكقول زهير فى معلقته :

وقفت بهـا من بعـد عشرين حجـة
فلأيـا عـرفت الـدار بعـد توهم
أثـا فى سـعفا فى معرس مرجـل
ونـؤيا كجـذم الحـوض لم يتثلـم

(د) ووقوف الشاعر باكيا على الاطلال سأمان قلقا مضطربا، تعبير عن الضعف والالم والخوف ، والاسى والتهالك .

يقول امرؤ القيس (٤٩) :

وقـوفا بهـا صـبحى عـلى مطيهم
يقـولون لا تهـلك أسى وتجمـل
وان شـفائى عبـرة مهـراقة
فهـل عنـد رسم دارس من معـول

وكقول (٥٠) طرفة مقتديا ، بامرىء القيس :

وقوفا بها صـبحى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد .
ويقـول :

ظللت بهـا أبـكى
وأبـكى الى الغـد

ومما يلفت النظر فى بكاء الاطلال ذلك التشخيص الذى نلحظه

---

(٤٩) المعلقـة .
(٥٠) المعلقـة .

فى شعر شعراء العصر الجاهلى ، وخاصة أمرأ القيس ، فهـــو يتصورها على ما نرى أطلالا حية يخاطبها ويناجيها ويحييها ويبعث اليها بتحياته •

وهـــو تشـــخيص يمتـــاز به الشـــعر الذى صـــور الاطلال ، ووقفته أمامها وقفة استعبار واستيحاء الماضى واجترار ذكرياته ، فهو لا يتصور فيها حبا مضى وانتهى ، وانما يتصـــورها أرجا من الماضى ، وشريطا حيا من ذكرياته يحاول أن يستنطقه ويعيده بما فيه ألم وشجن وتبريح •

يقول : « أنعم صباحا أيها الطلل »

أنعم صـــــباحا أيهـــا الـــــريع وانطلق
وحدث حديث الركب ان شئت واصـــدق

وبكاء الشعراء على هذا النحو المفعم بالاحاسيس ، انما ينم عن صدق وطبع حساس ؛ وليس فى هذا الشـــعر تـــــكلف ولا افتعـــال •

انه يبكى فى هذا الطلل حياته الذاهبة ، أو جزءا من حيـــاته تتمثـــل له ووقف يبكى لحظـــة الفراق والحب الذى تداعت نفسه أمامه ، وهو بكاء مستمر لا يشفى نفسه الا أن تفيض عبراته المهراقة هذه العواطف الصادقة التى صورت الوقوف أمام الاطلال فى شجن وحنين وانســـانية متدفقة هو ما بعث الروح فى الاطـــلال وجعلها منجما للافصاح الشعرى وكنزا للعواطف الصادقة •

الفصـــل الثالث

عوامل البقـــــاء

أما عامل البقـــاء :

فقد كان يذكره به ما يحس به الشاعر الجاهلى فى قرارة نفسه وأعماق ذاته من أنه انسان لابد أن يعيش وأن يحيا ، وأنه كائن لابد أن يبقى وأن تستمر حياته ؛ فتسيطر عليه غريزتا حب البقـــاء وحفظ النـــوع .

١ ــ المـــــرأة :

وقد كانت المرأة تذكره بحب البقاء وحفظ النوع . فكان يحن اليها حنينا قويا ،ويهتف بها ضميره هتافا عنيفا . فقد كانت تذكره بالحيـــاة ، وتنســـيه مخاوفه وقلقـــه ولو الى حين ؛ وفى فتـــرة بقائه معها أو تفكيره فيها على الاقل ،فينسى ما كان يتهدده منصراعات وعـــذابات .

يقول امرؤ القيس (١) :

وان أمس مـــكروبا فيـــا رب قينـــــة
منعمــــــة أعملتهـــــا بـــــكران
لهــــا مزهــــر يعـــلو الخميس بصوته
أجش اذا مـــا حـــركته يـــــدان

والمكروب المحزون والقينة الامة المغنية ، والكران العود الذى يضرب به وهو آلة الغناء ، وهو المزهر أيضا ،والخميس الجيش .

---

(١) الديوان والبيتان من قصيدته « لمن طلل أبصرته فدعانى » ص ٧٧ .

يقول فان طوانى المساء مكروبا مهموما حزينا ، فقد أدفن همى وكربى فى لقاء قينة مغنية ، تداعب يداها العود الذى فى يـــدها فتطربه ، فينسى حزنه وهمومه اذا ما تحركت يداها على العود ٠

ويقول (٢) :

لـــه الويـــل ان أمسى ولا أم هاشم
قريب ٠٠ ولا البسباسة ابنة يشـــكرا

فهو يتسلى عن همومه بالانتقال الى المرأة ومسامرتها ، وينسى همومه فى حضرتها وفى جوها الذى تشيعه بالبهجة والطرب ٠

وهو يحس بايقاع الحياة الثقيل على نفسه اذا لم تكن قريبة منه ، ويراها متعته فى الحيـــاة ٠

يقول امرؤ القيس (٣) :

تمتـــع من الدنيـــا فانــك فـــانى
من النشـــوات والنســاء الحســان
من البيض كـــالارام والادم كالـــدمى
حواصـــنها والمبـــرقات الـــروانى
أمن ذكـــر نبهانيـــة حـــل أهلهــا
بجـــزع الملا ٠٠ عينــاك تبتدران
فدمعهمـــا ســـكب وســح وديمـــة
ورشن وتـــو كـــاف وتنهمـــلان

يحض الشـــاعر على الســكر والتمتع بالنساء الحسان العفيفات اللائى يبرزن للرجال ، وقد كان امرؤ القيس نازلا فى قبيلة طىء وهى نبهان ، ثم ارتحل عنهم ، فهو يبكى تأثرا لفـــراق هذه المرأة النبهانية ٠

---

(٢) الديوان من قصيدته « سمالك شوق » ص ٦١ ٠
(٣) الديوان ص ٧٧ من قصيدة « لمن طلل » ٠

وقد يؤثر القرب منها لانها برد لفؤاده المعذب .

يقول (٤) :

خليلى مـرا بى عـلى أم جنـدب
نقضى لبـانات الفـؤاد المعـذب
فانـكما ان تنظـرانى سـاعة
من الدهـر تنفعنى لـدى أم جنـدب
ألـم تريـانى كلمـا جئت طارقـا
وجـدت بهـا طيبـا وان لـم تطيب

وأم جندب زوجة الطائية ، ولعلها هى النبهانية فى الابيات السابقة ، وهو سيقضى معها حاجات الفؤاد المعذب ، وانظاره ساعة تنفعه وتسرى عنه ، وهو يسعد كثيرا حتى يذكرها وريحها الطيب ، الذى يجده وان لم تتطيب .

وبقدر ما يسعد معها وينسى عذابه وجراحه ، فانه يرى فيها ما لا يمكن الشفاء منه .

يقول امرؤ القيس (٥) :

تشـيم بـروق المـزن أين مصـابه
ولا شىء يشفى منـك يا ابنـة غفزرا

وابنة غفزر هى محبوبته .

وقد يلهو بالمرأة ويتمتع .

يقول امرؤ القيس (٦) :

ويـا رب يـوم قد لهـوت وليـلة
بآنسـة كأنهـا خط تمثـال

---

(٤) الديوان من قصيدة بنفس العنوان ص ٥٣ .
(٥) الديوان ص ٦١ — ٧٠ من قصيدة « سمالك شوق » .
(٦) الديوان من قصيدة « الا عم صباحا ايها الطلل البالى » ص ٤٥ .

يضيء الفراش وجهها لضجيعها
كمصباح زيت فى قناديل ذبال

ويحس أنها تضيء له حياته .

ويقول (٧) :

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل
ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى
الا رب يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتى
فيا عجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى جناك المعلل

ويدب اليها فى سترها ، مقتحما أسوارها ، غير عابىء بحراسها، وهو يعلم أنهم لو ظفروا به لقتلوه ، والمغامرة مضمونة النتائج لانه قادر مغامر ، والجرأة والمغامرة يرددهما امرؤ القيس كثيراً (٨) .

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

---

(٧) من معلقته راجع الديوان ص٢٩ وانظر شرح المعلقات للزوزنى ص ٧ ، ٨ .
(٨) المعلقة .

تجـاوزت أحراسـا اليهـا ومعشرا
على حراصـا لـو يسرون مقتلى

ويصفها وصفا ينم عن تعلق وتشوق يقول (٩) :

وجيـد كجيـد الرئم ليس بفـاحش
اذا هى نصـته ولا بمعطـل
وفـرع يـزين المتن أسـود فـاحم
أثيث كقنـو النخـلة المتعثـكل
غـدائره مسـتشزرات الى العـلى
تضـل العقـاص فى مثنى ومرسـل
وكشـح لطيف كالجـديل مخصـر
وسـاق كأبنـوب السـقى المذلل

انه يحس أن الحياة ابتسمت له ، فهو يطوى اليهـا الامـد طيا ، فى متعـة أبيقورية يريد أن يهتبلهـا قبـل أن يطويه ما يطوى الحيـاة .

وانما ركزنا على امرىء القيس ، ووقفنا عنده فى الاستشهاد كثيرا ، لانه أمام فى هذا الجانب ولانه بقلبه الاخضر برغم بداوته متحضر نوعا ما بالنسـبة الى عصره وهو خليع متحـرر يحس برفاهة حسه وقع الحياة أكثر من غيره ، ولهذا كان سبقه فى هذا المجال ، برغم ما أخـذ عليه من ملاحظـات ومآخـذ ذوقيـة فى تعامله مع المـرأة ، ولكنها شغلته كثـيرا فلقيت عنده اسـتجابة كثيرة ، وظفرت بشعر كثير .

ولذلك نعذر الشاعر فى هذه البيئـة اذا نظـر الى المـرأة من زاوية غريزة حفظ النوع ، أو اذا ذكر أن المرأة تنظر اليه من هـذا الجانب .

---

(٩) راجع قصيدة « الما على الربع القديم بعسعسا » ص ٨٧ وما بعدها من الديوان .

يقول امرؤ القيس :

يرعن الى صوتى اذا ما سمعنه
كما ترعوى عيط الى صوت أعيسا

والعيط النياق التى لم تحمل سنتها ؛ والاعيس البعير الابيض الذى يضرب بياضه الى الحمرة .

يقول طرفة (١٠) :

لا يكن حبك داء قاتلا
ليس هذا منك مأوى بمر
كيف أرجو حبها من بعد ما
علق القلب بداء مستسر

وهو يصورها بأنها أفنت شبابه « وهل (١١) أغنى شبابه غير هر » الا أنه يتسلى عنها .

يقول (١٢) :

وتسلت عمايات الرجال عن الصبا
وليس صباى عن هواها بمنسل

حتى بعد أن يتخطى الشاعر مرحلة الشباب يظل نزوعه الى كل ما يغرى بالحياة .

يقول امرؤ القيس (١٣) :

---

(١٠)من قصيدة له مطلعها « العمرك ما قلبى الى أهله بحر » الديوان ص ٨٩ وما بعدها .
(١١) طرفة من قصيدة مطلعها اصحو تاليوم ص ٧٥ من الديوان .
(١٢) المعلقة .
(١٣) الديوان من قصيدة مطلعها جزعت فلم أجزع من البين مجزعا ص ١٣٢ .

جزعت ولم أجـزع من البين مجـزعا
وعـزيت قلبـا بالـكواعب مولعـا
وأصـبحت ودعت الصـبا غـير أننى
أراقب خـلات من العيش أربعـا
فمنهن قـولى للنـدامى : ترفقـوا
يداجـون نشـاجا من الخمـر مترعا
ومنهن ركض الخيـل ترجم بالقنـا
يبادون سربـا آمنـا أن يفـزعا
ومنهن نص العيس ، والليل شـامل
تيمم مجهـولا من الارض بلقعـا
ومنهن سـوق الخـود قـد بلها الندى
تـراقب منظـور التمـائم مرضـعا
تعـز عليهـا ريبتى ويسـوءها
بـكاه فتثنى الجيـد أن يتضـوعا

فهو قد جزع ، ولكنه عزى القلب بالحسان ، وهو ودع الشباب، الا أنه يحرص على أربع خصال لا تفارقه ، معاقرة الخمر مع الندامى، والصيد مع الاصحاب ، والارتحال الى قرية يجد فيها حبيبا يواصله، أو مطمعا يحققه ، واللهو مع المرأة الشابة الجميلة.

وقد وصفها بأنها يعز عليها غضبه فتواصله .

وقد يراها الاعشى هما ، لانه لا يستطيع نوالها .

يقول (١٤) :

هى الهم لا تدنـو ولا يسـتطيعها
من العيس الا الناجيـات الـرواسم

وهى تأسى اذا ما فارق أو هلك ، أما كانت أو زوجا أو أختـا

---

(١٤) ديوان الاعشى القصيدة التاسعة ص ١١٣ وما بعدها .

أو حبيبة ، أو خليلة يقول امرؤ القيس واصفا حال أم عمرو بن قميئة رفيقه وصاحبه فى سفره الى بلاد الروم .

أرى أم عمــــرو دمعهـــا قـــد تحدرا
بـــكاء على عمــــرو وما كان أصـــبرا

بل قد يوصيها ببكائه (١٥) :

اذا مت فـــانعيني بمـــا هو أهـــله
وشـــقى عـــلى الجيب يا ابنـــة معبد

ويقول كعب بن سعيد (١٦) الغنوى :

لقـــد أنصـــبتنى أم قيس تـــلومنى
ومـــا لـــوم مثلى باطـــلا بجميـــل

تقـــول :

ألا يـــا فاســـتبق نفسك .. لا تـــكن
تســـاق لغبـــراء المقـــام دحـــول

لقد لامته أم قيس وأتعبته ، تريده ألا ينفى نفسه فى مواضع التهلكة خوفا عليه ، وضنا به .

وقد تحزن ان ألم به ضيم ، أو ناله شر ، أو وقع عليه مكروه ، فها هى حبيبة الاعشى لم تره منذ زمن بعيد ، وقد عجبت أن رأته أعشى يقاد ، بهتت وتملكها الحزن :

عـــلى أنهـــا اذ رأتنى أقـــاد
قـــالت بمـــا قـــد أراه بصـــيرا

---

(١٥) راجع ديوان امرىء القيس فى قصيدته « سمالك شوق » .
(١٦) طرفة فى معلقته .

رأت رجـــــلا غــائب الوافـــدين
مختلــف الخلــق أعشى ضـــــريرا
فـــان الحـــــوادث ضـعضـــعتنى
وان الـــذى تعلمــين اســـــتعيرا

لقد كان فى شبابه وافر الصحة سليم الخلقة ، وقد رأتـه بعد غيبة وانقطاع فرثت له وتملكها شعور حزين وقالت بأى شىء أفتديه وأرد اليه بصره ؟ فيشكو اليها الاعشى أن الحوادثضعضعتنى ومضى شبابى الذى كنت تعلمين •

وهى عند الاعشى أجمل من الخضرة وأحسن من الحسن يقول من قصيدته « ودع هريرة » (١٨) •

ما روضـــة من رياض الحــزن معشبة
خضـــراء جـاد عليهـا مسبل هطــــل
يضـــاحك الشـــمس منهـــا كوكب شرق
مـؤزر بعميم النبـــت مكتهـــــــل
يـــــوما بأطيب منهـــا نشر رائحـــة
ولا بأحسن منهـــا اذ دنـــا الاصـــل

يقول هذا عنها برغم أن حبها أتاه عرضا ولم يســع اليــه ؛ وهى لا تحبه ، وانما تحب رجلا آخر ، ومن عجب أن هــذا الذى تحبه لا يبادلها الحب ، لانه يحب فتاة أخرى •

ولا يبعـــده عنها ولا التمتع القليـــل برؤيتها شغله ورحلته ؛ فهو حريص على أن يراها وقليـــل من الزمن معها يكفيه ، يبل صداه ويشفى غلته •

يقول النـــابغة (١٩) :

---

(١٨) القصيدة رقم ٦ من ديوانه ص ٩١ وما بعدها .
(١٩) الديوان من قصيدته « عوجوا فحيو النعم » ص ٣٢ ومـــا بعـــدها .

نبئت نعمـــا على الهجـران عاتبـــة
سقيا ورعيا لذاك العاتب الزارى (٢٠)
رأيت نعمــــا وأصحابى على عجــل
والعيس للبين قد شـــدت بأكوار (٢١)
فــريع قلبى •• وكانت نظــرة عرضت
حينـــا •• وتوفيق أقدار لآقدار (٢٢)

لقد علم أن نعما غاضبة عاتبة لازماعه على الرحيل ، وهو يدعو بالرعاية والسقيا لتلك الغاضبة ، ونلمس مقدار تأثره بالنظــر اليها مع احساســه بالفراق فقد ارتاع قلبه وأشفق على نفســـه أن يمــوت •

وهو يودعها ، والتوديع منتهى ما يمكن عمله •

يقول النابغة (٢٣) :

ودع أمامـــة والتـــوديع تعـــذير
وما وداعك من قفت به العير (٢٤)

وهو فى فراقها يحس أنه ودع الحياة لان فؤاده معها ، وخاصة أن كان السفر بعيدا ، والصحراء واسعة •

يقول النابغة (٢٥) :

نـــأت بســـعاد عنك نـــوى شـــطون
فبـــانت والفـــؤاد بهـــا رهين

وقد يلعن الغد وطلعته ان كان فيه فراق الاحبة •

يقول النابغة فى متجردته :

لا مرحبـــا بغـــد •• ولا أهـــلا بـــه
ان كان تفـــريق الاحبـــة فى غـــد

(٢٠) الزارى الغاضب .
(٢١) وشدت العيس بالاكوار كناية عن الرحيل .
(٢٢)ريع خاف وارتاع ، والحين الهلاك .
(٢٣) الديوان من قصيدة « ودع أمامه» ص ٧٤ وما بعدها .
(٢٤) التعذير منتهى ما يمكن عمله وقفت سارت .
(٢٥) الديوان من قصيدة « أتيتك عاريا» ص ١٠٤ وما بعدها .

الفصـــل الرابع

الخمـــــــــــر

قد يظن البعض أن الشاعر الجاهلى كان يشرب الخمر للتبسط والمفاكهة واللذة ، ولكن اذا فتشنا عن الحقيقة الكامنة فى واقـــع الحياة التى تكتنفه والتى يعيشها ؛ ربما خرجنا بنتيجة مخالفـــة ؛ وانتهى البحث الى أن الشاعر الجاهلى كان يشرب الخمر فى محاولة لعمليـــة هروب من واقعه النفسى والبيئى الذى يعيشـــه ، ليبعـــد ولو الى حين عن مشكلاته ، وخاصة اذا انضم الى العوامل النفسية الضاغطة عليه صدود المـــرأة واعراضها أو رحيلهـــا عنـــه ، أو تجاهلها اياه •

فى ظل هذه الظروف المحدقة به يلجأ الشاعر الى الخمـــر ، لا على أنها تعينه أو يستعين هو بها على واقعه ، أو تشحذ مواهبه فى التصدى للمشكلات التى تعترض طريقه ، ولـــكن على أن يدفن نفسه وهمومه معه فى رشفاتها ودنانها وكئوسها ، فهـــو يشـــرب ويتسامر بين ندمانه على أن ينسى أو يتناسى ما تعرض له أو لقيه أو سوف يلقاه من مخاطر وهموم •

انه يحس أن سعادته فى هذه المجالس التى يعدها للشـــراب والمنادمة أو هـــو يتـــوهم أن الوقت الذى يقضـــيه فيها هو الوقت الخالى من أكدار الحياة وشوائبها ، فهى ساعات لذة وتناس وصرف للهموم •

من هنا فقط نشعر لماذا كان يعتبرها لحظات صـــفو ولذة ومرح وسعادة وانطلاق •

يقول طرفه فى معلقته :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى (١)
وبيعى وانفاقى طريقى ومتلدى
الى أن تخافتنى العشيرة كلها
وأفردت أفراد البعير المعبد

ويقول :

كريم يروى نفسه فى حياته
ستعلم أن قتنا غدا أينا الصدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى (٢)
فمنهن سبق العاذلات بشربه
كميت متى ما تعل بالماء تزبد (٣)

والكميت من الخمر الصفراء تضرب الى السواد ، يقول طرفة أنا أسبق من يلومنى الى السكر ، فاذا جاء يعذلنى أصابنى سكران فيرجع عن لومه .

وبعد هذا البيت كما جاء فى الجمهرة .

يقول طرفة :

فذرونى أروى هامتى فى حياتها
مخافة شرب فى الحياة مصدد

والتصديد التصفيق أو هو التصدى بعد ابدال الداء ياء ومعناه الاعراض ومعناه دعونى أغرق نفسى فى صميمها مخافة أن أسقى من الحياة ما لا يحلو .

---

(١) راجع الديوان ص ٤٦ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص٧٢ طبعة صبيح سنة ١٩٦٨ وراجع شرح القصائد التسع لابى جعفر احمد بن النحاسى ج ١ ص ٢٦٦ طبعة وزارة الاعلام العراقية .
(٢) فى الديوان بلفظ من لذة الفتى .
(٣) فى الديوان سبقى العازلات .

وقال امرؤ القيس (٤) :

أراقب خـــلات من العيش أربعـــــا
فمنهـــن قـــولى للنـــدامى ترفقـــوا
يداجـــون نشـــا جامن الخمـــر مـتـــرعا

والنشاج زق الخمر يسمع له نشيج أى صوت • ويداجون يدارون ويعالجون •

وبرغم ما يقـــوله امرؤ القيس فى هذه الخمـــر الا أننا نراه يعترف بأنه ما جعله يقصر عن مراتب الكمال والملوك الا الســـكر والشراب •

يقول (٥) :

لعمـــرك مـــا ان ضـــرنى وسط حمـــير
وأقوالهـــا الا المخيـــلة والســـكر
وغـــير الشـــقاء المســـتبين •• فليتنى
أجـــر لســـانى يـــوم ذلـــكم مجر•

والاقوال والاقيال الملوك والمخيلة التكبر والخيلاء ، والســـكر ضد الصحو وأجر لسانى أمنعه الكلام •

أرأيت كيف قرن السكر بالشقاء المستبين ؟

ويقول الاعشى (٦) :

لعمـــرك ان الـــراح ان كنت ســـائلا
لمختلف غديهـــــا وعشـــــاتها

---

(٤) الديوان ص ١٣٢ من قصيدة له مطلعها «جزعت ولم اجزع من البين مجزعا » •

(٥) الديوان ص ٨٩ وما بعدها من قصيدة بعنوان « لعمرك مـــا قلبى الى اهلى بحر » •

(٦) الديوان قصيدة رقم ١٠ ص ١١٩ •

لنـــا من ضـحاها خبث نفس وكآبـة
وذكــرى همــوم مـا تغب أذاتهـا
وعنــد العشى طيـب نفس ولــذة
ومــال كثـير غــدوة نشــواتها
على كـل أحـوال الفتى قـد شربتهـا
غنيـا •• وصـعلوكا ومـا ان أقاتهـا

يقول الاعشى : ما أعظم الفرق بين صباح الشارب وبين مسائه، هو فى صباحه كثيب منقبض النفس ، تطرقه الهموم الملحة عليه والتى لا تفارقه ، وهو فى المساء قرير النفس ، يسارع الى البذل غير عابىء . بالمال ، ومن أجل هذا شرب الخمر فى كل حال ، غنيا ومهموما وصعلوكا لا يجد القوت •

وهذا يرشح ما قلنا من آن الخمر انما كان شرابها من أجل دفن الهموم وانقباض النفس ••

وربما لمسنا أن الاعشى يفضل كأس الصبوح التى يتلهى بها عن همومه يقول (٧) :

وكأس كعين الـديك باكـرت حـدها
بفتيان صـدق ، والنـواقيص تضرب

يقول : وكم اصطبحت بكأس من الخمر ، أغدو اليها قبل مطلع الشمس فأشربها على قرع النواقيس مع فتية صلاب •

ولكننا نراه يتركها ويغير من خلقه عند الكبر والمشيب يقول (٨) :

أراك كبـرت واسـتحدثت خلقـا
وودعـت الـكواعب والمـداما

---

(٧) الديوان القصيدة رقم ٣٠ ص ٢٣٩ والنواقيص هى النواقيس
(٨) الديوان القصيدة ٢٩ ص ٢٣١ .

على أنه مما يسترعى النظر أن الخمر على شيوعها بين الشباب، فانها لا تشيع بين الشيوخ ولا تسيطر على نتاجهم ، فلا نرى فى شعرهم أثراً لها ، ويبدو أنهم يستقبحون فى شعرهم أن يذكروا بها ، لأنهـا مذمة ومنقصـة كمـا رأينـا امرأ القيس يذكر أنه ما ضره ولا أخره الا السكر ، وربما يكون ذلك سببا من أسباب تغير الخلق بعد المشيب كما وجدنا عند الاعشى .

ولا نكاد نحس فى الاعمال الادبية الكبيرة كالمعلقات ما عدا معلقة عمرو بن كلثوم لا نكاد نحس بذكر الخمر ، كما أن شعر بعض الـكرام مثل حاتم الطائى يخلو من ذكرها ومن أثرها ، لأنه يخاف مذمات الأحاديث بعده .

وبدء القصائد بذكر الخمر غير شائع على أى حال ..

الفصل الخامس

الطبيعـــــة

الماء هو الحياة قال تعالى : « وجعلنا من الماء كــل شيء حي » فهو حياة الارض والنبات والشجر والانسان والحيوان • وهـــو بالنسبة الى العربى فى الصحراء يعادل حياته ، يطمئن ويســتقر وتتفتح لهاته للحياة اذا ما عثر على الماء ، فيشرب ويزرع ويسقى ماشيته ويأكل لحمها ويشرب لبنها وتطيب الاقامة وتطيب العيش•

وتضن الطبيعة بالماء فيسخط ويتألم ويترك الارض وينطلق الى مكان آخر يعثر فيه على الماء •

والصحراء ضنينة بالماء ، والعثور عليه صعب ، والبحث عنه فيه مشقة عظيمة ، ولكن عندما يعثر عليه يحس أنه امتلك ناصيتى الكون والحياة •

ويصنع العربى من تدفق المياه ومن اخضرار العشب والــكلا حوله ما يشبه الواحة الخضراء فى قلب الصحراء المجدبة الظامئة ، فيفد عليها كل غاد ورائح ما بين قائل ومستظل ، أو طالب رفــدا ، أو تائه حيران ، ويطيب الاقامة لكل من ترضى عنه القبيلة التى يقع الماء فى حوزتها ، ويصبح البئر ملكا لها ، تدافع عنه وتناضل حتى يغلبها عليها الغالبون •

وياما أسعد العربى ، وما أشد فرحته بمنظر الماء الجارى ، أو المتدفق أو المطر ، انه يتحول أمام هذا المشهد الى طفل كبــير ، يلعب ويضحك ، ويطرب ويسعد ، وتجيش نفسه بمختلف الاحاسيس، ويفهق بالشدو والتغريد •

ولقد وصف امرؤ القيس فى نهاية معلقته المطر الذى نزل على جبل ثبير وملا الوادى يقول (١) :

كأن ثبيرا فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمل (٢)
كأن ذرى رأس المجيمر غدرة
من السيل والغناء فلكة مغزل (٣)
وألقى بصحراء الغبيط بعاعة
نزول اليمانى ذى العياب المحمل (٤)
كأن مكاكى الجواء غدية
صبحن سلافا من رحيق مفلفل (٥)
كأن السباع فيه غرقى عشية
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (٦)

لقد وقف امرؤ القيس يصور الجبل وما عليه وما حوله وما حدث فيه ، والماء وقد انهمر عليه فأثر فيه ، فصور الجبل وما أحدثته كثرة الماء فيه من خطوط ، شبهه برجل كبير فى قومه تصدر المجلس ، وقد لبس ثوبه المخطط .

---

(١) الديوان ص ٤٠ وراجع الابيات فى شرح المعلقات السبع للزوزنى ص٤٦ ــ ٤٨ ، وفى شرح القصائد التسع لابن النحاس ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها ، والروايات بينها اختلاف يسير فى الالفاظ وترتيب الابيات .

(٢) الطرنين أوائل المطر والوبل المطر الشديد وثبير جبل بالمدينة ، والبجاد كساء مخطط ، والتزميل التلفيف بالثياب .

(٣) الذرى أعلى الشىء ، والمجيمز اكمة ، والغثاء ما جاء به السيل من الحشيش والشجر والكلأ والتراب والمغزل معروف .

(٤) الغبيط أكمة قد انخفض وسطها وارتفع طرفاها لتشبه الغبيط، والبعاع الثقل واليمانى التاجر اليمانى الكثير المتاع والخدم .

(٥) المكاكى طيور تشبه العصافير ، والحواء الوادى وصبحن من الصبوح وهو شرب الخمر فى الصباح ، والمفلفل الذى التى فيه الفلفل .

(٦) الغرقى جمع غريق ، والعشية ما بعد الزوال الى طلوع الفجر ، والارجاء النواحى ، والانابيش اصول التبت واحدتها انبوشة ، والعنصل البصل البرى .

وقد جرف السيل حطام الشجر والاوراق والعشب والـكلا والتراب حتى صارت هذه الاكمة مما أحاط بها من الغثاء الذى حمله السيل فلكة مغزل ، فقد شبه استدارة هذه الاكمة مما أحاط بهـا باستدارة فلكة المغزل ، وأحاطتها بها احاطة المغزل وألقى ثقله بهذه الصحراء فأنبتت الكلا وألوان الازهار والنبـات حتى صـار نزول المطر أشبه بنزول التاجر اليمانى المحمل بالثياب المختلفة الالـوان وكأن السباع حين غرقت من السيول أصول البصل البرى ، لتلطخها بالطين والماء الكدر بأصول البصل البرى •

كما وصف غيثا فى قصيدة له (٧) :

ديمـــة هطـــلاء فيهـــا وطف

طبــق الارض تجـــر وتـــدر

وصور حركة المطر فى ارتفاعه وانخفاضه ، تخف حدته فتظهر الارض وما عليها ، وتشتد فيواريها بـــكل ما تحمل ، وكيف أن الحيوانات أسرعت فى الهروب ، حتى الضب أسرع فى خفة ومهارة فما يصيبه التراب •

وصور الشجر وقد ارتفع الماء حوله حتى صار الشـــجر أشبه بالعمائم المستديرة على الرءوس ، من كثـرة ما ملا المطر الـــوادى •

وقد وصف (٨) تأبط شرا شعبا به سيول الصيف التى عـادة ما تكون قليلة أو غير مستديمة ، فتجمعت بقية من مياه قديمة فى الشعب ليس لها مصادر ووصف طرفة الضباب الغرقى فى ميـاه السيول فقال (٩) :

وضـــباب ســـفر الماء بهـــا

غـــرقت أولاجهـــا غير الســـدد (١٠)

---

(٧) راجع الديوان ص ١٠٦ ـــ ١٠٧ .

(٨) راجع الاصمعيات ص ١٢٥ القصيدة رقم ٣٧ .

(٩) الديوان ص ٦٧ .

(١٠) الاولاج جمع الولجة وهى الـكهف الذى يختبىء فيه النـاس من المطر والســد الحجارة المرتفعة .

فهى مبوتى لعب المـاء بهـا
في غثاء ســاقه السيل عدد

ولكى ندرك أثر الغيث وأثر الماء عموما فى حياة العربى لابد أن نتصوره وهو يدعو للديار بالسقيا ، وللموتى بالسقيا ، وشآبيب الرحمة ، وكأن السقيا رحمة للاحياء كما هى رحمة للاموات .

ووصف الشعراء الجاهليين للطبيعة قليل فى الشعر الجاهلى ، ولكنه وصف ينم عن افتتان بالطبيعة ، فيه أريج أحاسيسهم ولن نجد أجمل من قول شاعرهم وهو يقول فى طرب وخفة :

أقول لصاحبى والعيس تهوى
بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع مع شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد
وريا روضه غب القطا

وقد وصف العربى من النبات الكلا والعشب والمراعى والشيح والقيصوم والعرار والخزامى والنخيل .

ووصف السحاب المتراكم يسوق بعضه بعضا والامطار والرياح والبرق والرعد والسراب والسيل المتدفق ، ووصف الشهب والسماء والشمس والقمر ، والفيا فى المقفرة والتلال والقمم والاودية والشعاب وكل ما يصور اقباله على الحياة .

ووصف الغدران والابار ، ووصف كل ما فى الصحراء من حيوان ونبات ومناظر الطبيعة ، واستمد من حيواناتها صور تشبيهاته وغذاء خياله والتجأ الى الطبيعة التى يقع عليها حسه ،

فأوجد العلاقات والمشابهة بينها وبين ما يريد وصفه من غيد حسان وظبـــاء وبقر وحشى ، وأدرك الالفة بين هـــذه المـــدركات الحسية وبين نفسه وما يعتمل فيها من صور وأحاسيس •

وكانت الطبيعة ملجأه وملاذه ، لانها أم رءوم ، يصـــادقها وتصادقه وتؤكد فيه حبه للحياة والبقاء •

الفصل السادس

وصـــف الناقة

فاذا ثقلت الهموم وأراد الشاعر التسلى عنها ركب ناقتـــه وارتحل ما شاء الله له أن يرتحل .

ونلاحظ أن الشاعر الجاهلى كثير التسيار بالابل ، وتـكاد لا تخلو قصيدة لشاعر من الشعراء الجاهليين دون ذكر النــاقة ، وقد أطلق عليها أسماء كثيرة ، فهى « جسرة » و « شملة » و « ذات لوث » و « سفين » و « بازل » .

يقول المثقب العبدى (١) :

فســـل الهم عنـــك بـذات لــوث
عـــذا فـــرة كمطـــرقة القيـــون

وقد أكثر الـــشعراء فى عصره من ذكر تسلية الهموم بركوب الابل والضرب فى الفيافى (٢) .

قال عمرو بن قميئة (٣) :

وكنت اذا الهمـــــوم تضـــيفتنى
قـــريت الهـــم أهـــوج ذو سريـــا

وقال عبيد بن الابرص (٤) :

---

(١) راجع ديوانه طبعة الجامعة العربية ص ١٦٥ من قصـــيدة له مطلعها « افاطم قبل بينك متعينى » .
(٢) المرجع السابق هامش ص ١٦٥ .
(٣) ديوانه ص ١٣٥ تحقيق حسن كامل الصيرفى .
(٤) ديوانه طبعـــة الحلبى مصر ص ١٠١ و ١٠٨ بيروت . و ٨ دار المعـــارف .

وقد أسلى همومى حين تحضرنى
بجسرة كقلاة القين شملال

وقال (٥) :

لولا تسليك جماليتة
أدماء دام خفها ببازل

وقال امرؤ القيس (٦) :

فدع ذا وسل لهم عنك بجسرة
زمول اذا صام النهار وهجرا

وقال علقمة بن عبدة (٧) :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة
كهمك فيها بالرداف خبيبة

وقال طرفة بن العبد البكرى (٨) :

وانى لامضى الهم عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

وقال الاعشى ميمون بن قيس (٩) :

وقد أسلى الهم حين اعترى
بجسرة دوسرة عاقر

وقال (١٠) :

(٥) الديوان ص ٦٨ الحلبى مصر .
(٦) ديوانه ص ٦٥ من قصيدة مطلعها سماك شوق .
(٧) ديوانه ص ١٣٢ الوهبية .
(٨) الديوان معلقته ص ٣٤ الشركة اللبنانية بيروت .
(٩) الديوان ص ١٨٣ قصيدة رقم ١٨ طبعة المكتب الشرقى للنشر بيروت تحقيق الدكتور محمد حسين .
(١٠) المصدر ص ٢٣١ .

وقـد أمـرى المهـوم اذا اعتـرتنى
عـدا فـرة مضـبرة عقـاما

وقال (١١) :

فدعهـا وسـل الهم عنـك بجسـرة
تزيـد فى فضـل الـزمام وتغتلى

وقال أوس بن حجر (١٢) :

فدعهـا وسـل الهم عنـك بجسـرة
عليهـا من الحول الذى قد مضى كنـز

وقال بشر بن أبى خازم (١٣) :

لـولا تسـرى الهم عنـك بجسـرة
عـيرانة مثـل الفنيـق المـكدم

وقال النابغة الدبيانى (١٤) :

فسـليت ما عنـدى بروحـة عرمس
تخـب بـرحلى •• تـارة وتنـاقل

وقال امرؤ القيس (١٥) :

فهل تسلين الهم عنك شملة

ومن هذا العرض يتبين مدى تأثر هؤلاء الشعراء بعضـهم ببعض ، حتى تشابهت صدور أبياتهم تشابها كاملا (١٦) •

---

(١١) الديوان ص ٣٩١ وقد ورد البيت فى ديوان المثقب العبـدى ص ١٦٧ بدون « الهم » .
(١٢) ديوانه ص ٣٨ والـكنز السنام .
(١٣) ديوانه ص ١٧٩ والفنيق المـكدم الفحل الغليظ .
(١٤) الديوان ص ٢٠٨ طبعة الشركة اللبنانية ببروت .
(١٥) الديوان ص ١٢٢ طبعة دار احياء التراث العربى بيروت •
(١٦) المثقب العبـدى هامش ص ١٦٧ •

وكما تشابهت أقوال الشعراء فى تسلية الهم بالارتحـــال بالابل ، تشابهت أقوالهم أيضا فى تشبيهها بالسـفينة ، يسـتوى فى ذلك الشـاعر الذى فى شمال الجزيرة أو جنوبها أو من هو فى شرقها أو غربها .

يقول المثقب العبدى (١٧) :

وهن كـذاك حـين قطعـن فلجـــا
كـأن حــد وجهـن عـلى سـفين
يشــبهن السـفين وهـن بخـت
عراضـات الاباهـــر والشـئون

وقد كرر هذا التشبيه المثقب العبدى فى كثير من قصائده .

وقد أكثر الشعراء الجاهليون من تشبيه الابل فى سـيرها بالسفن (١٨) .

يقول طرفة بن العبد فى معلقته (١٩) :

كـأن حـدوج المالـكية غـدوة
خـلايا سـفين بالنـواصف مـن دد
عدوليــة أو من سـفين ابن يـامن
يجـــور بها الملاح طـورا ويهتدى
يشـق حبـاب المـاء حيزومهـا بهـا
كمـا قسـم التـرب المفايل باليـد

وقال عبيد بن الابرص (٢١) :

(١٧) الديوان ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(١٨) راجع المثقب هامش ص ١٥١ .
(١٩) الديوان ص ٣٢ .
(٢٠) ابن يامن ملاح من اهل هجر .
(٢١) الديوان ص ٣٠ — ٣١ الحلبى مصر .

تبصـــر خليـــلى هـــل ترى من ظعائن
يمانيـــــة قـــــد تغتـــــدى وتـــروح
كعـــــوم ســـفن فى غـــوارب لجـــــة
تـــــكنفها فى وســــــط دجـــلة ريـــح

وقال بشر بن أبى خازم (٢٢) :

فـــكأن ظعنهـــم غـــــــداة تحمـــــلوا
ســـــفن تـــكفأ فى خليج مغـــــــرب

وقال امرؤ القيس (٢٣) :

فشـــــبهتهم فى الآل لمـــــا تـــكمشوا
حـــــدائق دوم أو ســــــفينا مقـــــيرا

وقال المرقش الاكبر (٢٤) :
لمـــن الظعن بالضـــحى طافيـــــــات
شـــــبهها الـــدوم أو خلايا ســـــفين

وقال عمرو بن قميئة (٢٥) :

هل تـــرى عـــيرها تجيـــــز ســـراعا(٢٦)
كالعـــــــــدولى رائحـــــــا من أوال

واشتراك الشعراء فى وصف الابل على هذا النحو ، واشتراكهم فى تسلية الهموم بالارتحال بالناقة يدلنا على مقدار اعتـزازهم بالابل ، وهذا ليس بغريب .

فلقـــد كانت الناقة تمثل عنـــد العربى شـــيئا غاليا ، فهى

---

(٢٢) ديوانه ص ٣٥ .
(٢٣) الديوان ص ٦٢ .
(٢٤) ديوان تحقيق حسن كامل الصيرفى والمفضليات المفضلية رقم٤٨
(٢٥) الديوان ص ٦٠ .
(٢٦) العدولى نسبة الى قرية بالبحرين اسمها « عدولى » .

سفينته التى يرتحل بها فى الصـــحراء ، فتتحمــل العطش والطقس الملتهب ، ويشرب لبنها ويعمل من أوبارها خيمتـــه ، ومن جلـــودها أمتعته •

وارتحاله بها عندما تضيق بـ هـمومه ، أو عندما يضـــيق بهمومه وانطلاقه بها الى الصحراء يعنى انفلاته من همومه ، وانطلاقه من قيودها وأسرها ، أو هـــو يزيح عن نفســه كابوسها ولـــو الى حين •

ولا عيب أن يقول الشاعر فى الابل ، ولا ضير عليه ولا مذمة ، فقال فيها جميع الشعراء ، كبيرهم وصغيرهم ، دون أن يحســوا بلوم أو ذام ، كما هو الحال فى الخمر ، ولهذا تصدرت أوصـــاف الناقة القصيدة •

يصف الشـــاعر الناقة وصفا دقيقا ويصـــف الرحل وسيرها ، والشريط الارضى الذى قطعته وما قابله وما لقيه فيه •

وقد يحس الشـــاعر فى ناقته شريكا ومناجيا ، يحارها وتحاوره وكأنها تعرف عنه كل شىء ، ويسعد بذلك الشاعر العربى ، والانسان العربى عموما بهذه المحاورة ، ويفضى اليها بهمومه وضيقه وذات نفسه ، ثم يعود ، وكأنه ألقى عن نفسه أثقالها ، فخفت وبرئت وصفت ، أو عاد اليها هدوءها ونشاطها •

هكذا صور الشاعر العربى الناقة ، ولهذا تصدرت القصـــيدة الجاهلية •

الفصل الســابع

بــكاء الاطلال غرض جاهلى أصيل

وبعد هذا التطواف الطويل نصل الى أن بكاء الاطلال ظاهرة شاعت فى العصر الجاهلى ، وهى تعبر عن هموم الشاعر قلقــه ، ووطــأة الحيــاة بعواملها السلبية على وجدانه فى حياة لا تــكون الا للاقوياء •

واذن فالبكاء على الاطلال تعبير ذاتى ، بل ربما يكون الجزء الذووى فى القصيدة بعد ما تصورناه ، انها عملية أفضاء نفسى ، وتعبــير عن المعاناة والصراع فى داخل الشاعر ، وليست غرضا غيريا كما توهم بعض النقاد المحدثين •

وهو فى هذا العصر فقط ظاهرة فيها كل الصــدق والواقعية وتصوير الجوانب الخفية التى كان الشاعر يحاول أن يضن بها ، ايثارا للفحولة والظهور بمظهر الرجل الخارق الذى لا تؤثر فيه هذه العوامل ، أو الذى لا يشكو •

هى فى العصر الجاهلى اذن ليست جزءا دخيلا على القصيدة ، وليست جزءا يمكن فصله عنها والاستغناء عنه ، بل ربما تكون هى الجزء الذى يقصد الشاعر الى قوله ، ولعلى لا أكــون مغاليـــا اذا قلت أن الشاعر ربما قصــد اليــه قصــدا ، ولو وقف عنده دون أن يكمــل يــكون قــد قال ما فى نفسه وأفرغ ما أثقلــه ، وأفضى بكل شحناته النفســية وهمومه وخطواطره المثقلة وذات نفســه •

بكاء الأطلال فى غير العصر الجاهلى تقليد :

اما بكاء الاطلال فى غير العصر الجاهلى فهو الذى يمكن الوقوف عنده لنقول : انه تقليد فى تقليد ، لان الشاعر الذى يكون فى « بغداد » أو « سر من رأى » أو يكون فى المدينة أو مكة أو غيرها من الامصار ، لا يكون بكاؤه بكاءا طبيعيا أو حقيقيا أو صادقا ، اذ ليست هناك أطلال ولا دمن دوارس ، وليست هناك ضغوط وهموم . ولم يعد ينتاب الشاعر فى هذه المدن ما كان ينتاب الشاعر الجاهلى أو ينتهبه من قلق وصراعات وهموم وعوامل نفسية فرضتها ظروف العصر الجاهلى .

واذن فليس فى هذا البكاء شىء من الصدق أو العاطفة أو الاثارة ، وانما هو تقليد فى تقليد ، وهو محاكاة للجاهليين ليس الا ، والشاعر الذى يبكى الاطلال فى العصور التى تلت العصر الجاهلى انما هو يلبس زى الجاهليين وليس منهم ، ويحاول فقط أن يقول كما قالوا . وأن ينسج على منوالهم ، وفى اعتقاده أن هذا هو الحب والصدق . وما هو الا لون من البراعة اللغوية لا غير .

نقول هذا فى شعر الشاعر الذى يقطن المدن والامصار ويتشبه بسكان الصحارى والقفار ، أما الشاعر الذى كان ما يزال يسكن الصحراء فى العصرين الاموى والعباسى ، فقد نقبل منه بكاءه ، اذ ما يزال والصحراء موطنه ، بشرط أن نلمس فيه الصدق فى العاطفة ، والصدق فى التعبير .

ابن قتيبة وتخطيط القصيدة :

يذكر ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » تخطيطا عاما للقصيدة حاول أن يفرضه على القصيدة العربية ، بحيث لا يترك للشاعر — أيا كان — الحرية فى القول أو الخروج على هذا النظام

يقول (١) : « وسمعت بعض أهل العلم يقول : ان مقصد

---

(١) راجع الشعر والشعراء ص ٦ ، ٧ الطبعة الاولى « المكتبى — مصر » سنة ١٣٣٢ هـ .

القصـــيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثـــار فشكا وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، اذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء الى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشـــــوق وألم الوجد ، والفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، ويستدعى به اصغاء الاسماع اليـــه ، لان النسيب قريب من النفوس ، لايط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء ، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حرام أو حلال ، فاذا علم أنه قـــد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له ، عقب بايجاب الحقـــوق ، فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وانضـــاء الراحـــلة والبعير ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بـــدأ فى المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه على السماح ، وفضـــله عـــلى الاشباه ، وصغره فى قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام ، ولم يطل ويمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد .

ثم قال ابن قتيبة : وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الاقسام ، فيقف على منزل عامر ، ويبكى عنـــد مشيد البنيان ، لان المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرســـم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما ، لان المتقـــدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذبة الجوارى ، لان المتقدمين وردوا على الاواجـــز الطـــوامى ، أو يقطع الى الممدوح منـــابت النرجس والورد والآس ، لان المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار » .

وقفـــة مع ابن قتيبـــة :

لقد حاول ابن قتيبة أن يعالج فوضى النظام فى القصـــيدة ، وأن يضع لها بعض الضوابط التى تحكمها ، لما رأى بعض الشعراء

قال قصيدة فى المدح غزلها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، ولما نبهه الممدوح معترضا على جور غزله على المديح ، وطالب الاقتصاد فى الغزل ، فأتاه فأنشده قصيدة غزلها شطر بيت ، فقال له الممدوح لا هذا ولا ذاك ولكن ينبغى المواءمة بين الامرين ..

حاول ابن قتيبة أن يعالج هذا الخلل ويضبط الشاعر بنظام معين لا يخرج الشعراء عنه .

فخطط للقصيدة على النحو الذى ذكر ، بادئا بالبكاء على الاطلال ، ثم النسيب ، ثم بما لاقاه الشاعر فى رحلته من تعب وارهاق ، ثم مدح فحرك فيه مواهب الاعطاء ، والشاعر المجيد من سلك هذا المسلك .

ونرى فى هذا التخطيط أن ابن قتيبة انما خطط لقصيدة المدح وحدها ، لان ما لمسه من خلل انما كان فى مجال هذا الغرض الشعرى ، ولهذا لا يتسع هذا التخطيط لغير قصيدة المدح وقد حاول أن ينبه الشعراء الى ضرورة العدل بين هذه الاقسام وتلك الاغراض .

ويظهر تمسك ابن قتيبة بالمذهب القديم فى الشعر والنقد فى كل هذه الفقرة المركزة وفى الفقرة الاخيرة بالذات حين يضبط الشعراء جميعا بهذا النظام لا يخرجون عنه ، ولا يتصرفون فيه ولا يحيدون ، ولم يترك لهم أدنى حرية فى التصرف .

وهو قد قرر أن تبدأ القصيدة المادحة بالبكاء على الاطلال ، ولسنا معه فى هذا القرار ، لاننا ــ كما أسلفنا ــ وجدنا أن بكاء الاطلال كان أمرا طبيعيا وغرضا طبيعيا فى القصيدة الجاهلية للظروف التى أسلفناها ، وقد سقطت هذه الظروف عن انسان العصور التالية ، ولم تعد العوامل التى كانت تؤزم الشاعر الجاهلى أو تقلقه ، واذن فلا داعى للبدء بالبكاء على الاطلال ، لاننا سننظر اليه حينئذ على أنه غرض تقليدى ومحاكاة للقصيدة الجاهلية ، لا تنم عن أصالة شعرية أو موضوعية .

ومجاراة الاقدمين على النحو الذى ذكره ابن قتيبة والارتباط به ارتباطا قسريا آسرا ، بحيث لا نترك للشاعر الحرية فى التصرف سيفقد القصيدة العربية رواءها وجمالها ، ويمكن أن تغنى قصيدة مادحة فى ديوان المديح الشعرى عن هذا الديوان ، لاننا سنرى قصيدة واحدة ذات أثواب أسلوبية تختلف باختلاف الشاعر لا غير ، ونكون قد سلكنا كل الشعراء مبدعين ومقلدين جميعا فى اطار واحد .

وهذا غير سديد ، وغير مقبول فى مجال الابداع ، لان التصرف والحرية هما الوسيلة للاجادة والتفوق والتبريز .

ولسنا مع ابن قتيبة فى هذا الالتزام الذى قرره .

الفصـل الثامن

الشاعر الجاهلى أخذ مادته من العالم المشترك فى عصره

والواقع أن المادة التى يتركب منها أى عمل فنى ، انما تنتمى الى العالم المشترك ، أكثر مما تنتمى الى الذات الفردية ، ومع ذلك فان فى الفن تعبيرا عن الذات ، لان الذات تتمثل تلك الصورة بطريقة متمايزة ، لكى تعاود اخراجها الى العالم المشترك فى صورة يكون من شأنها بناء موضوع جديد ..

أما هذا الموضوع الجديد فانه قد يؤدى بدوره الى احـداث عمليـات مماثلة ، اذ يقـوم أولئك الـذين يدركونه باعـادة بنـاء المواد القديمة المشتركة ، أو يعمدون الى اعـادة خلقها من جـديد .

والمادة التى يعبر عنها لا يمكن أن تكون شيئا ذاتيا خاصا ، اللهم الا اذا كان صاحبها نزيلا لاحد مستشفيات الامراض العقلية، وانما الفردى هو الاسلوب الـذى يصطنعه المـرء فى التعبير عن تلك المادة (١) .

هذه ناحية ، والناحيـة الثانيـة أنه لو عزل أى ناتج فنى عن اهتمام خاص من الاهتمامات لكان مجرد مادة (٢) .

فالبكاء على الاطلال على النحو الذى تصورناه لا يكون فرديا ، وانما هو يصور حالات واقعة فى المجتمع الجاهلى ، هذه الحالات لم تكن فردية وانما هى شائعة مستفيضة .

والشاعر الجاهلى أخذ مادة هذا العمل الفنى من العـالم

(١ و (٢) راجع الفن خبره ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٢٢ .

المشترك فى عصره ودوره فيها أنه عبر عنها بطريقته الخاصة ، وعاود اخراجها ، وهذه الصور التى قدمها الينـــا الشاعر الجـــاهلى تثبت ذاتيتــه وفرديته فى الاعادة والاخراج والطريقة الخاصة •

ولقد أخذت الظاهرة الطللية صفة الظاهرة لان مادتها لم تكن معزولة عن الاهتمام الخاص والاهتمام الجماعى معا ، ولهذا وجدنا لهــذه الظاهرة صــفة التأثر والتأثير ، واحــداث صداها النفسى والوجدانى . لقد أفصحت عن روح العالم الجاهلى والشاعر الجاهلى، وتمكن الشاعر من مزج الصورة الشعرية بالمنابع الحية المتدفقة من أعماق النفس والفكر والروح ، وأوجد صلة قوية بينها •

واذا استعرضنا عوامل الفناء والبقاء لوجدنا هــذه العوامل كلها سواء أكانت عوامل الفناء أو عوامل البقاء ، لوجدناها كلهـــا تمثل لنا الوجدان القلق للشاعر الجاهلى الذى لا يستقر ولا يهدأ ، هذا الوجدان المنفعل بكل ما حوله ، المؤرق بكل ما ينتاب مجتمعه من قلق وأرق وهموم •

فالريح العاتية ، والمطر الشديد العارم ، وغارات اللصــوص والوحوش والإعداء ، ليست تدعو الى الامن ، أو الاســـــتقرار والطمأنينة ، انها تثير كوامن الخوف والقلق وعدم الامان •

فهى عوامل ضعف واحباط وانهزامية •

حتى النسيب الــذى نتصــور أنه يذكر الشاعر أو الانسان أيا كان هــذا الانسان ، هذا النسيب الذى نتصــور أنه يذكر انسان الصحراء بفحولته ، ويجعله يتعلق بأمل بقائه ، هو ضعف ، ويظهر جانب الضعف فيه بصورة واضحة فى حالات الهجر والصدود ولدغة النوى ، وحرقة الاشواق •

وكذلك تسلى انسان الصحراء بالارتحال بالناقة لينسى همومه هو الآخر ضعف ، انه يمثل لونا من الهروب الى الامان ، ذلك الهروب الذى يعنى عدم القدرة على المواجهة أو عــدم الشــجاعة على المجابهة •

ولكن الخضرة والماء والعشب والكلا والشجر ، ليس فيها جانب ضعف ، فهى تدل على تفاؤل وثقته ، ولكن ما أقلها وأندرها فى هذه الصحراء الموحشة المجدبة ، حتى تكاد تنعدم من حياة الشاعر ، أو من الحياة الصحراوية كلها ، حيث تمتد عيناه ، وهو يطلبها ويبحث عنها ، باعتبارها أمل حياة وأمن ، لانها حياته التى يبحث عنها ووجوده الذى يطلبه ، وهى أمنه ومصدر ثقته وطمأنينته •

الاطلال والارض الخراب لاليوت :

والبكاء على الاطلال فى الشعر الجاهلى بصدقه وطبيعته وعفويته يذكرنا بقصيدة « الارض الخراب » فى الشعر الغربى ، وهى للشاعر الامريكى ت• س اليوت ، التى أحدثت ضجة فى الادب الغربى الحديث ، وروج لها المروجون •

وتلك القصيدة تجسم لنا (٣) ما نعانيه من يأس وقنوط ، وما نحس به من آمال زائفة ، وبعد عن حقيقة الحياة •

وقد اتخذ الشاعر الرمزية أساسا للتعبير عن هذه القضايا المتشعبة ، كما استعان أيضا بالصور الشعرية البليغة ، فحددت هذه القضايا ، وأبرزتها أمام القارىء ، بد أن صيغت فى قالب موضوعى قوامه التعادل بين الفكر والعاطفة •

ونقف مع « اليوت » وهو يفكر فى أمر الارض الخراب ، يقول (٤) : على لسان تابريزياس (٥) :

---

(٣) و (٤) راجع اليوت سلسلة نوابغ الفكر للدكتور فائق متى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦ ص ٩٢ و ص ٩٩ و ١٠٠ وهذه القصيدة تتعرض للبشرية جمعاء منذ الخليقة حتى اليوم . وهى تركز على أثر الحرب العالمية التدميرى .

(٥) تابريزياس هذا شخصية أسطورية كشخصية بطل المقامة فى الادب العربى ، ولكنه عند اليوت ليس بطلا ولا يمثل شخصية من شخصيات القصيدة بل هو ذكر وأنثى معا راجع ص ١٩٣ من اليوت .

ما هذه الجذور المتشابكة ، وأية أغصان تنمو
من هــذه الاغصـــان المتحجرة يا ابن الانســـان

انك لا تقدر على الكلاس أو الحدس ، لانك لا تعرف سوى مجموعة مهلهلة من الصور حيث تسطع الشمس ٠

والشجرة الذابلة لا تلقى ظلا، وصوت صرار(٦) الليل لايجلب الراحة ، وقد خلت الحجارة الجافة من خرير المياه ، هنـــاك تجـد الظل تحت هذه الصخرة الحمراء ، وسأريك شيئا يختلف عن ظلك ، حينما يلاحقك فى الصباح ٠٠ أو يهم بلقائك فى المساء ، سأريك الخوف مجسما فى حفنة من الثرى ٠٠

ونلاحظ أن الجزء الذى ذكرناه من هذه القصيدة يصور الى جانب ما يصور ، خوفنا الشديد من الاعتراف بتلك الحقيقة الراهنة، وهى أن الموت أو الفناء يتجسم فى حفنة الثرى ٠٠

ويتعرض اليوت للمشكلة الزمنية التى لاحظناها فىبكاء الاطلال، فيقول :

« الزمن الحاضر والزمن الماضى كلاهما موجود فى المستقبل ، كما أن المستقبل يتضمن الزمن الماضى » (٧) فالماضى والحــاضر والمستقبل كلها تكون وحدة واحدة ، وكل نقطة فى هذا المجرى الزمنى تمثل نهاية شوط من الصراع وبداية شوط جديد ٠

ويقول :

« كلما تقدمت بنا السنوات ، أصبح العالم أكثر غرابة ، وتعقدت نماذج الموت والحياة ، ان لحظة الصراع لم تنته بعزلها ، وقد لا تكون لها سابقة ، وقد لا تقع مستقبلا ، انها الاحتراق فى كل لحظة طوال

---

(٦) صرصـــار ٠
(٧) اليوت ص ١٧١ ٠

حياتنا ، وهي ليست لحظات الحياة لفرد واحد ، بل تمتد الى الاحجار القديمة التى لم تفك طلاسمها » (٨) •

ان الحياة الغنية بمدلولاتها هى التى تنطوى على سلسلةمتصلة من الصراع ، وهذا الصراع غير مقصور على فرد معين ، بل انه ينصب على البشرية برمتها ظهور الطلاسم المنقوشة على الاحجار المختلفة ، وهو ينم عن احتراق داخلى فى كل لحظة من لحظات الحياة » ••

فالنهاية تحمل فى ثناياها عناصر البداية ، وتلك هى رحلة الانسان من مهده الى لحده ، سلسلة طويلة من البدايات والنهايات من اليأس والامل والفشل والنجاح » (٩) •

---

(٨) المصدر ص ١٧٧ .
(٩) المصدر والصحيفة .

الباب الرابع

ظاهرة الوضع والانتحـــال

في الشـــعر الجاهلى (١)

(١) راجع « مصـــادر الشعر الجاهلى » لناصر الدين الاســـد ، و « الادب الجاهلى » لطه حسين ، و « تاريخ آداب العرب » للرافعى، و « العصر الجاهلي » لشوقى ضيف ، و «طبقات فحول الشعراء» لابن ســـلام .

— ١ —

هناك اذن رواة وصناعون حرفوا فى الشعر الجاهلى ، وأضافوا اليه ، وانتحلوا فيه ، من أمثال حماد وخلف ، ولكن كان هناك كذلك رواة أمناء تعقبوا أولئك المحرفين ، ووقفوا لهم بالمرصاد ، يكشفون زيفهم ، ويصححون أخطاءهم ، حتى خلصوا لنا قدرا كبير من الشعر الجاهلى الصحيح الذى يمكن أن نثق به ، ونطمئن الى صحته ، ومن هؤلاء أبو عمر بن العلاء ، والمفضل الضبى ، والاصمعى ، ثم ابن سلام صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء) •

ومع ذلك فقد استغل كثير من المستشرقين ومن تابعهم من النقاد العرب المحدثين ، موضوع الرواة الوضاعين ، فأخذوا يشكون فى الشعر الجاهلى كله ، ويشككون فيه ، حتى انتهى الشك بكثير منهم الى رفضه كله ، وقادهم الى تعميم الحكم عليه كله بالوضع والانتحال •

وقبل أن نفصل الامر فى هذه القضية ، يحسن أن نشير الى الاسباب التى دعت الى تحريف الشعر الجاهلى والانتحال فيه •

وقد ردها ابن سلام فى كتابه الى : عامل القبائل ، وعامل الرواة الوضاعين ، ثم زاد الدكتور طه حسين على هذين العاملين : عاملى الدين والشعوبية :

١ — فأما عامل القبائل ، أو عامل السياسة كما سماه طه حسين ، فيرجع الى عصبية القبائل التى أرادت أن تتزيد فى مناقبها ، فزادت فى أشعارها التى تصور هذه المناقب ، وقد أشار ابن سلام الى ما أضافته قريش من هذا الشعر ، وما وضعته على لسان حسان ، كما يشير الى أن داود بن متمم بن نويرة زاد على شعر أبيه ، حين استنشد أبو عبيدة الذى اكتشف

زيفه بنطنته وذوقه وبصره بشعر الشعراء (٢) • كما شك في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في مدح الرسول عليه السلام (٣) •

٢ — وأما الرواة المنتحلون فهم عند ابن سلام طائفتان : طائفة تحسن صوغ الشعر ، فهي تضيف ما تنظمه الى الجاهليين ، مثل حماد وخلف ، « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون » (٤) ، وطائفة لا تحسن ذلك ، ولا تستطيع أن تحتذي شعر الجاهليين ، ولكنها تجمع كل غثاء وزيف ، مثل رواة الاخبار والسير والقصص ، كابن اسحق صاحب السيرة النبوية • وقد وصف ابن سلام صنيع هؤلاء بأنه شعر غث « لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع •••• الخ » (٥) •

وربما كان الدافع لهؤلاء الرواة على الوضع ، هو الاستجابة لرغبة القبائل في ذلك ، أو حرصهم على أن يظهروا في الناس بمعرفة ما لا يعرفه غيرهم ، بدافع المنافسة •

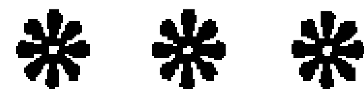
وقد أشار ابن سلام الى هذين العاملين بقوله : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة فزادوا في الاشعار » (٦) •

٣ — وأما عامل الدين فيتمثل في الاشعار التي نظمت في الجاهلية

(٢) طبقات الشعراء : ٤٠
(٣) المصدر نفسه : ٢٠٤
(٤) المصدر نفسه : ٤٠
(٥) طبقات الشعراء ص : ٥
(٦) المصدر السابق : ٣٩ وما بعدها

ارهاصا ببعثة الرسول عليه السلام ؛ وفيما أضيف الى الجن والامم القديمة البائدة ؛ ونحو ذلك مما رواه أمثال ابن اسحق وغيره •

٤ ــ وأما عامل الشعوبية فقد دفع بالاعاجم الى أن تضع على ألسنة الجاهليين أشعارا تثبت مثالبهم ومناقب الاعاجم ، كما دفع العرب الى وضع عكس ذلك ، ومن هذا المنطلق أخذ طه حسين يشكك فيما أضافه الجاحظ الى الجاهليين فى كتابه (الحيوان) مما يدل على اتساع معرفة العرب فى هذا العلم •



هذه هى أسباب الانتحال عند ابن سلام وغيره من النقاد • ومعنى ذلك أن فى الشعر الجاهلى منتحلا ، وفيه كذلك ما هو موثوق به • وقد تعقب الرواة الثقات حقيقة هذا المنتحل ، وكشفوا زيفه ، ورفضوه ، كما استطاعوا تمييز الموثوق به ، والمجمع عليه ، وقبلوه • وقد تبلور ذلك كله آخر الامر فيما أوضحه النقاد ، كابن سلام فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) •

غير أن جانب الانتحال قد أغرى كثيرا من المستشرقين ومن تابعهم من نقاد العرب المحدثين بالشك فى الشعر الجاهلى كله أو معظمه ، حيث وجدوا فى الرواة الوضاعين منفذا الى الطعن فيه ، وعدم الثقة به ، متجاهلين الجانب الحقيقى الاخر لصورة المشكلة ، ذلك الجانب الذى وقف فيه الثقات من الرواة والنقاد على أرض الحقيقة الصلبة •

هنالك (نولدكه) ، ثم (آلورد) الذى نشر دواوين الشعراء الجاهليين ، ثم (بروكلمان) ، ثم (مرجليوث) و (بلاشير) وغيرهم من المستشرقين •

وسنكتفى هنا بعرض أهم هذه الآراء ومناقشتها •

— ٢ —

أما (مرجليوث) :

فقد كان أكبر من أثار هذه القضية ، ومن أهم ما كتب فى ذلك مقاله فى مجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٩٢٥ (٧) • وهذه خلاصة آرائه :

١ — ينفى أن يكون الشعر الجاهلى قد انتقل عن طريق الرواية الشفوية ، وأن تكون هذه الرواية هي التي حفظته حتى انتهى الينا •

مع أنه قد ثبت لنا أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ، على أن المستشرق (لايل) فى مقدمته لديوان عبيد ابن الابرص يؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من العصر الجاهلى الى أن دون نهائيا فى العصر العباسى ، ويقول : أن من يرجع الى المعلقات مثلا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التى تنفرد بها ، والتى تثبت أنها لصاحبها •

٢ — يتخذ من الرواة المتهمين ومن طعن الرواة بعضهم فى بعض ذريعة لما زعمه من أن الوضع فى هذا الشعر كان مستمرا •

ويرد عليه (لايل) فى مقدمته للمفضليات ، بأنه لو فرضنا التسليم بذلك ، فان من وضعوا هذا الشعر كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة • وهذا يدل على وجود أصل كانوا يحاكونه •

كما يرد عليه أيضا فى مقدمة ديوان عبيد بن الابرص ، بأن تقاليد شعر القرن الاول الهجرى تلزم بوجود الشعر الجاهلى الذى يشترك معها فى نفس التقاليد • وبأن فى الشعر

---

(٧) راجع تلخيص هذا المقال فى كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » لناصر الدين الاسد ٣٥٣ وما بعدها

الجاهلى الذى وصلنا ألفاظا غريبة لم تكن تستخدم فى عصر هؤلاء الرواة الذين دونوه •

ويضيف الدكتور شوقى ضيف الى هذه الردود أن فى الشعر الجاهلى صورا من الاساليب والتركيبات الخارجة على الصـــورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها ، وأن فيه كذلك صورة للتهتك الخلقى لا تقوم الا فى نفس وثنى ، كما فى معلقة امرىء القيس (٨) •

٣ ــ ويقول : أن الشعر الجاهلى لا يمثل الوثنية ولا النصرانية ، وانما هو مصبوغ بصبغة اسلامية •

وفى كتاب (الاصنام) لابن الكلبى ، من الشـــــعر الجاهلى المصور لذلك ما ينقض زعمه ، و لاينافى ذلك أن ما ورد منه مصبوغا بصبغة اسلامية موضوع منتحل •

٤ ــ ويقول كذلك : ان هذا الشعر أولا لا يمثل لهجات القبــائل المتعددة فى الجاهلية ، وثانيا لا يمثل الاختلاف بين لغـــة العدنانيين فى الشمال ولغة الحميريين فى الجنوب ، وانما يمثل لغة واحدة هى لغة القرآن الكريم •

أما اللهجات فقد توحدت وتركزت فى لهجة قريش منذ أوائل العصر الجاهلى ، اذ أن قريشا بحكم مركزها الـــدينى فى مكة ، ومكانها الاقتصادى فى الجزيرة العربية ، واشرافها على الاسواق التجارية والادبية ، كانت تحتل مكان السيادة ، فسادت لهجتها تبعا لذلك ، ونظم بها جميع الشعراء : متخلين عن لهجات قبائلهم •

وأما أنه لا يمثل اللغة الحميرية فى الجنوب فلانها ليست لغتــه ، لأنها لغة الحميريين الذين لم يهاجروا الى الشمال • أما السبئيون الذين هاجـــروا فانهم اصطنعوا اللهجـــة

---

(٨) العصر الجاهلى ص ١٦٨

القرشية ونظموا الشعر بها • ولهذا يقول أبو عمرو ابن العلاء : «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » (٩) •

٥ — وأخيرا يقول مرجليوث : ان النقوش الاثرية لا تدل على وجود أى نشاط شعرى فى الممالك الجاهلية المتحضرة كاليمن ، فكيف يتاح هذا النشاط لبدو غير متحضرين ؟•

وقد رد عليه المستشرق (بروينلش) بأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة ، فهناك بدائيون لهم شعر كثير مثل الاسكيمو (١٠) •

— ٣ —

وأما (بلاشير) :

فيتلخص طعنه على الشعر الجاهلى فيما يلى (١١) :

١ — يزعم أن رواة البصرة ونحاتها جردوا لغة الشعر الجاهلى الذى وصلنا من آثار اللهجات المختلفة ، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية ، فاللغة التى نراها فى هذا الشعر موحدة لا تمثل اللهجات التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى •

والرد على ذلك ما أشرنا اليه قبل ذلك ، من سيادة اللهجة القرشية ، واتجاه الشعراء الى نظم شعرهم بها •

لقد كان لقريش نفوذ كبير بسبب مركزها الروحى والمادى، فقد كانت تقوم على حراسة الكعبة ، وكانت قوافلها تجوب كل أنحاء الجزيرة ، وكانت كل القبائل تجتمع عليها فى الاعياد

---

(٩) طبقات الشعراء لابن سلام ص : ١١
(١٠) العصر الجاهلى لشوقى ضيف : ١٦٧
(١١) كتاب « تاريخ الادب العربى » لبلاشير

الدينية والاسواق التجارية والادبية • واذن فقد كانت محط الرحال ، ومناط الانظار ، ومهوى الافئدة • وهي في كل ذلك تعمل على صقل لهجتها ، وتهذيب حواشيها ، باختيار ما عذب في اللسان ، وخف على السمع ، من لهجات هذه القبائل جميعها• وبذلك كله تهيأ للهجتها أن تسود اللهجات ، وأن تصبح هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم •

يقول أبو نصر الفارابي : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما في النفس » (١٢) •

ويروى أحمد بن فارس عن اسماعيل بن عبيد الله قوله : « أجمع علماؤنا ••• أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله اصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة ، فجعلهم قطان حرمه ، وجيران بيته ، فكان وفود العرب يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون اليهم ••• وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها اذا أتتهم الوفود تخيروا من كلامهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلمهم ••• فصاروا بذلك أفصح العرب ••• » (١٣) •

ويقول ابن خلدون : « كانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها ، لبعدها عن الاعاجم » (١٤) •

وينقل صاحب الاغاني ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه كان مردودا ••• » (١٥)•

---

(١٢) المزهر للسيوطي ١ / ٢١١

(١٣) الصاحبي في فقه اللغة ، و « العصر الجاهلي » لشوقي ضيف : ١٣٢ وما بعدها

(١٤) المقدمة : الفصل ٣٢ من القسم السادس .

(١٥) اغاني « ساسي » : ٢١ / ١١٢

وأما ما يزعمه بلاشير من أن الرواة عدلوا فى أصول الشعر الجاهلى ، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية ، فينقضه ما امتلات به كتب النحاة من بصريين وكوفيين من الشواذ النحوية التى أبقوها على حالها دون تعديل •

٢ ـ ويعتقد بلاشير أن الرواة أدخلوا فى الشعر الجاهلى اصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على رصانة الالفاظ وجزالتها •

ولو صح اعتقاده لكانت اصلاحاتهم على أساس مقاييس جمالية عرفوها للشعر الجاهلى ، تنهض على الجزالة والرصانة، وهذا يقوده الى الاعتراف بوجود نماذج جاهلية صحيحة يقيسون عليها اصلاحهم •

ومما يدفع هذا الاعتقاد كذلك أن كثيرا من القصائد الجاهلية أثبتها الرواة على حالها دون اصلاح أو تعديل ، مع أنها مضطربة الاوزان ، مختلة العروض ، مثل قصيدة عبيد بن الابرص :

أقفر من أهله محلوب
فالقطبيات فالذنوب

فبعضها من مخلع البسيط ، والبعض الاخر مضطرب ، لا يجرى على وزن معروف ، ومثل قصيدة امرىء القيس :

عيناك دمعهما سجال
كأن شأنيهما أو شال

فالشطر الاول من المخلع ، والثانى مضطرب ••• هكذا •••

٣ ـ ثم ينتهى بلاشير الى القول بأن القصائد المقلدة اختلطت بالقصائد الاصيلة فى الشعر الجاهلى ، بحيث لا يمكن تمييز المقلد من الاصيل •

والرد على ذلك هو أن الرواة الثقات ميزوا لنا الاصول الصحيحة ، وأجمعوا على توثيقها ، كما سبق •

— ٤ —

ولعل الدكتور (طه حسين) قد تأثر كثيرا بآراء هؤلاء المستشرقين ، وتابعهم فيها ، حين درس هذه القضية فى كتابه (الشعر الجاهلى) الذى أثار ضجة عنيفة فى الاوساط الدينية والادبية ، حيث تصدى للرد عليه كثيرون من العلماء والادباء ، فلم يلبث أن حذف منه ما حذف ، ثم أعاد نشره باسم (فى الادب الجاهلى) (١٦) •

وقد انتهى الدكتور طه حسين من بحثه الى رفض الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ، فهى منتحلة بعد ظهور الاسلام ، والى التسليم بصحة القليل جدا من هذا الادب ، وهو لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شيء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورةالادبية الصحيحة لذلك العصر الجاهلى •

ونجمل هنا خلاصة آرائه فى الشعر الجاهلى والرد عليها :

أولا :

الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، بينما نجد القرآن الكريم يمثلها تمثيلا قويا •

ففى الناحية الدينية نرى القرآن يجادل اليهود والنصارى

---

(١٦) من الردود على هذا الكتاب : « الشهاب الراصد » للاستاذ لطفى جمعة ، و « النقد التحليلى » للغمراوى ، « نقض مطاعن فى القرآن» للاستاذ محمد عرفه ، « نقض كتاب الادب الجاهلى » للخضر حسين ، ونقد كتاب الشعر الجاهلى للاستاذ محمد فريد وجدى

والمجوس ، ويعرض لكل المعتقدات الجاهلية ، وليس فى الشعر الجاهلى صـــدى لذلك كله .

والرد على ذلك أن القرآن كتاب دينى يدعـــو الى دين جديد وهو الاسلام ، فمن الطبيعى أن يعـــــرض للديانات والمعتقدات ويناقشها ، وليست هذه مهمة الشعر (١٧) .

على أن كتاب (الاصنام) لابن الكلبى حافل بالشعر الذى يصور هذه المعتقدات .

ويرى جورجى زيدان أن المنظومات الدينية قـــد ضاعت لاشتغال العرب عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب ، فلما جاء الاسلام أغضى الرواة عنها ، لانها وثنية ...

ويذكر المستشرق (ادوار براونلش) أن قـــلة الشـــعر الدينى ترجع الى أن علماء المسلمين يرفضون من الشـــعر ما خالف الاسلام (١٨) .

فاذا كان الشعر الدينى قد بدا قليلا ، فذلك راجع لتحرج الرواة ، أو لعدم تغلغل الـــــدين فى نفوس الشـــــعراء الجاهليين .

وأما عدم تصوير الشعر للحياة العقلية عند الجاهليين ، فأية حياة عقلية لهؤلاء البدو يمكن أن يصورها هذا الشعر؟ انه صور حياتهم العقلية الفطرية التى لم تصل الى مستوى فكرى منتظم ، وهى ليست حياة راقية ولا معقدة .

ومن الناحية السياسية يرى طه حسين أن شعر الجاهليين لا يوضح اتصالهم بمن كان حولهم من الامم الاخـــــرى

---

(١٧) « العصر الجاهلى » لشوقى ضيف : ١٧١
(١٨) مجلة الادبيـــات الشرقيـــة عام ١٩٢٦

كالروم والفرس ، بينما يوضح القرآن ذلك مثلا فى سورة الروم •

والحق أن شعراءهم اتصلوا بالغساسنة أتباع الروم ، والمناذرة أتباع الفرس ، ومدحوهم وهجوهم ، كما نرى ذلك عند شعراء بكر لما نشبت الحرب بينها وبين الفرس •

وهذا عمرو بن كلثوم يقول : (وكأس قد شربت ببعلبك) •

وامرؤ القيس يصف رحلته الى القسطنطينية ، فيقول :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

ويقول الاعشى :

قد جبت ما بين بانقيا الى عدن
وطال فى العجم ترحالى وتسيارى

كما يقول :

أتيت النجاشى فى داره
وأرض النبيط وأرض العجم

وشعر النابغة يمثل اتصاله بملوك الحيرة ، كما أن شعر عدى بن زيد يمثل هذه الصلة بين العرب والفرس ، واتصال عدى بديوان كسرى معروف •

وأما الناحية الاقتصادية فانه يرى أن القرآن يتحدث عن الاغنياء المستأثرين بالثروة ، والفقراء المعدمين ، كما يتحدث عن البخلاء ويذم البخل ، وليس فى شعرهم صدى

للنظام الطبقي ، ولا تصويرا للبخل ، وانما فيه أن العرب كلهم أجواد كرام .

والحق أن شعراءهم كما أكثروا من ذكر الكرم ومدحه ، اكثروا كذلك من ذكر البخل وذمه . وشعر الصعاليك يصور الصراع القوى بين الفقر والثراء ، ويثور على ذلك النظام الاقتصادى الجائر .

فالواقع أن الشعر الجاهلى قد مثل حياة الجاهليين ، ورسم ألوان معيشتهم ، وصور عاداتهم ، وتحدث عن أديانهم ، ووصف بيئتهم بما أظلها من سماء وكواكب ، وما أقلته من جبال وكثبان ، وما دب على أرضها من حيوان، وما انطلق فى أجوائها من طير . كما سجل أيامهم وأخبارهم وتاريخهم .

يقول نيكلسون : « ان الادب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الايام الجاهلية تصويرا أقرب ما يكون الى الدقة » .

ويقول « ثوربكه » الالمانى فى كتابه « عنترة : «يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » .

ويقول نولدكه المستشرق الهولندي : « أن عادات العرب وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلاً عن أشعارهم » .

ثانيـاً :

الشعر الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية ولهجاتها المختلفة. فقد كانت هناك لغتان تختلف كل منهما عن الاخرى : لغة الحميريين الجنوبية ، ولغة العدنانيين الشمالية . وقد روى كثير من شعر الجنوبيين بلغة الشماليين ، مع ما ثبت من اختلاف اللغتين .

هكذا يرى الدكتور طه حسين متخذا من ذلك مسوغا للشك فى الشعر الجاهلى ، حتى انه شك فى شعر امرىء القيس لانه يمنى وشعره قرشى اللغة .

والحق أن ما يضاف الى من كانوا فى أقصى الجنوب من اليمن منتحل ، أما من كانوا يجاورون الشماليين فقد تعربوا فى الجاهلية قبل مذحج وبلحارث بن كعب .

والسبيئون من القحطانيين نزحوا من الجنوب الى الشمال قبل الاسلام بعد سيل العرم ومنهم اللخميون «ملوك الحيرة» والغساسنة ملوك الشام ، وغيرهم .

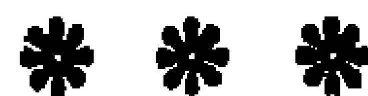
أما حمير فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسنان حمير وأقاصى اليمين بلساننا ولا عربيتهم عربيتنا » .

أما اللهجات الشمالية المختلفة التى لاحظ الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلى لا يمثلها ، حيث كان ينبغى أن تظهر فيه وجوه اختلافها . فقد ذكرنا من قبل أن لهجة قريش قد سادت هذه اللهجات ، وأن الشعراء اتجهوا اليها فى أشعارهم ، وتحروها فى لغتهم الادبية .

ثالثـا :

ويشك الدكتور طه حسين فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية والنحوية، ويتخذ من ذلك وسيلة لانتحال الشعر الجاهلى .

وهذا الاتهام ينبغى ألا يتجاوز هذه الشواهد الى الشعر الجاهلى عامة ، فتلك أبيات فردية لا يقاس عليها .



وهكذا نرى من كل ما مر بنا أن الشعر الجاهلى قد دخله كثير من التحريف والوضع ، غير أن ذلك لا يحملنا على الشك فيه كله ، أو رفضه ، فان النقاد القدماء والرواة الثقات قد أدركوا هـــذا الوضع ، وكشفوا عن الزيف ، وبذلوا من الجهد والتحرى والتثبت ما كشف لنا عن الصورة الصحيحة للشعر الجاهلى ، بما نقلوه الينا فى صدق وأمانة ، من قصائده التى لا تحتمل الشك أو الرفض ، والتى دونتها المصادر الصحيحة التى أشرنا اليها من قبل .

كراتشكوفسكى والشعر الجاهلى

للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى كتاب بعنوان « الجغرافيا عند العرب » وفى الفصل الاول من هذا الكتاب وهو بعنوان « الجغرافيا عند العرب قبل المصنفات الجغرافية الاولى » تحدث عن الشعر الجاهلى والقرآن ويمكن تلخيص آرائه فيما يتعلق بالشعر الجاهلى فى النقاط الاتية (١) :

أولا : يرى أن الشعر الجاهلى كله خاص بالبدو وحدهم دون المراكز الحضارية فى بلاد العرب .

ثانيا : يرى أيضا أن الشعر الجاهلى يزخر بالواقعية والصحة فى مجال المادة الجغرافية ، أما القرآن فالمادة الجغرافية فيه قليلة .

ولا يمكن أن نسلم له بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو وحدهم دون المراكز الحضارية ، لان الشواهد التى استمد منها معارف العرب وتصوراتهم الجغرافية فى الجاهلية تكفى وحدها للرد عليه .

فهو قد استشهد بأبيات لحسان وعبيد بن الابرص ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبيانى والاعشى ، وكل هؤلاء من مراكز حضارية ، وليسوا من البدو .

.. فالقول بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو وحدهم ، أو يعطينا

(١) راجع تعليق الدكتورة عائشة عبد الرحمن على هذا المستشرق فى مذكرات الجامعة العربية وهو مخطوط ، وقد ردت على موضوعات « محمد والقرآن » و « الشعر الجاهلى والقرآن » و « القرآن والجغرافيا » . و « الحديث والجغرافيا » وهو يريد أن يصل فى النهاية الى أن القرآن من عند محمد

المعارف الجغرافية لهم وحدهم • دون بقية المراكز الحضارية فى بلاد العرب خطأ أساسى ، أقام عليه هذا المستشرق فكرته فى الربط بين القرآن الكريم وثقافة الحجاز ليخلص الى القول بأن القرآن الكريم • هو جماع ما حصله الرسول صلى الله عليه وسلم من تلك الثقافة المتاحة لبيئته ، مع أن كراتشكوفسكى يعترف بأن الرسول كان أميا ، وهو لا يجهل أيضا أنه كان من بين الشعراء العرب فى عصر البعثة وقبله عدد ليسوا بالاميين ، فلم اختص محمد صلى الله عليه وسلم وحده من بينهم بهذه المعارف دونهم ؟•

أما ما ذكره من أن الشعر الجاهلى يزخر بالواقعية والصحة فى مجال المادة الجغرافية ، فذلك سببه أن الشاعر الجاهلى الذى كان يقيم فى الصحراء كانت النجوم والشمس والقمر والليل والنهار والافلاك ، والجبال والوديان والغيران والابار والغدران وغيرها من كل ما يشكل هذه المادة الجغرافية ، كانت هذه الاشياء ألصق به وأقرب الى حياته البدوية ، فهو ينظر من فروج الخيمة فيرى هذه الاشياء واضحة مكشوفة أمامه لا يحجبها عنه شىء ، وهى أساسية بالنسبة اليه ، وقد سئل بعض الاعراب عن النجوم فقال : أتعرفنى بحراس على ؟ •

والامر يختلف قليلا أو كثيرا بالنسبة الى الحضرى •

وعلى أى حال فالصحة والواقعية فى مجال المادة الجغرافية تعنيان تصوير الشعر الجاهلى للحياة الجاهلية فى هذا المجال ، وهو يخالف ما ذهب اليه الدكتور « طه حسين » فى «الشعر الجاهلى» من أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهليين •

وهو أيضا ليس فى مصلحة « مرجليوث » وطه حسين وغيرهما فى قولهم : « ان الشعر الجاهلى » لا يمثل لهجات القبائل ••

واذا كان «كراتشكوفسكى » قد رأى أن المادة الجغرافية فى القرآن قليلة ، ويريد أن يغمز القرآن بأن الرسول استقاه من

البيئة الحضارية التى لا يمثلها الشعر الجاهلى ، فان الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى قد قال غير ذلك ، فقد قال (٢) بأن القرآن يمثل حياة العرب وهو أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذى يسمونه الجاهلى ... والقرآن لا يمثل الحياةالدينية وحدها وانما يمثل .. حياة عقلية قوية ... ويقول : ان القرآن أصـــدق مرآة للحيـــاة الجاهلية ..

---

(٢) راجع فى الادب الجاهلى ص ٧١ ــ ٧٤ دار المعارف مصر ١٩٦٦.

الباب الخامس

فى الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين

القضية والمنهج

الفصل الاول

القضية

فى سنة ١٩٢٥ م نشر « مرجليوث » فى مجله الجمعية الاسيويه بحثا بعنوان « نشاة الشعر القديم » ينكر فيه صحة هذا الشعر .

ثم صدر فى سنه ١٩٢٦ كتاب الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى » فاثار ظهور هذا الكتاب زوبعة هائلة وسخطا عارما فى دوائر المهتمين بالدين والادب والفكر واللغة . فطعن فيه على الدين الأسلامى فى مواضع اربعة من كتابه .

الاول :

أهان الدين الاسلامى بتكذيب القران فى اخباره عن ابراهيم واسماعيل حيث ذكر فى ص ٢٦ من كتابه « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا عن هجرة اسماعيل ابن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى ..

(*) راجع قرار النيابة ضد طه حسين ملف خاص . وقد نشر فى مجلة الهلال عدد يولية عام ١٩٧٠ ص ١٦٢ ، ١٦٣ . وراجع ايضا تقرير اللجنة المشكلة من علماء الازهر لدراسة كتاب الشعر الجاهلى ص ١٧٤ من كتاب « طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام » للاستاذ أنور الجندى مطبعة دار الاعتصام ط ١ عام ١٩٧٦ القاهرة

الثـــانى :

ما تعرض له المؤلف فى شأن القراءات الســـبع المجمع عليها ، والثابتة لدى المسلمين جميعا ، وأنه فى كلامه عنها يزعم عدم انزالها من عند الله ، وأن هذه القراءات انمـــا قرأتها العرب حسب ما اســـتطاعت ، لا كما أوحى الله بها الى نبيـــه .

الثالث :

طعن المؤلف فى كتـــابه على النبى صـــلى الله عليه وسلم طعنا فاحشا من حيث نسبه فقال فى ص ٧٢ من كتـــــابه : « ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين ، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحيـــــة أسرته ونسبه الى قريش ، فلامر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم وأن يكون بنو هاشـــم صفوة بنى عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صـــــفوة بنى قصى ، وأن تـــكون قصى صـــفوة قريش ، وقـــريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الانسانية »..

الـــرابع :

أنكر المؤلف أن للاسلام أولية فى بلاد العرب وأنه دين ابراهيم اذ يقول فى ص ٨٠ : « أما المسلمون فقـــد أرادوا أن يثبتوا للاسلام أولية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبى ، وأن خلاصة الدين وصفوته هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الانبياء من قبل . الى أن قال فى ص ٨٠ : « وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصـــــر من

العصور ، ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون ، وانصرفت الى عبادة الاوثان » •

ولقد استهدف المؤلف كسر القداسة (١) القرآنية ، وجعل القرآن موضع نقد فنى أدبى كالتوراة ، مع أنه يعلم أن التوراة من وضع الاحبار •

الخامس:

وتعرض للشعر الجاهلى فذكر (٢) « أن الكثرة المطلقة مما نسميه الادب الجاهلى ليست من الجاهلية فى شىء » فهو منتحل ، وضعته السياسة والقبائل والمدونون وهو لا يمثل لغة القبائل فى هذا العصر وأن الشعر الجاهلى لايمثل الحياة الدينية (٣) والعقلية والاجتماعية والاقتصادية وأن مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن (٤) لا فى الادب الجاهلى (٥) • « ان القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية » « ويمثل لنا حياة دينية قوية » وهو « أصدق تمثيلا للحياة الدينية والعقلية القوية والنفسية والاقتصادية عند العرب » والتماس الحياة العربية الجاهلية فى القرآن أنفع وأجدى من التماسها فى هذا الادب العقيم الذى يسمونه الأدب الجاهلى » ••

ثم نراه فجأة ينقض ذلك كله ، حين يقول : (٦) « وهنا يجب أن نحتاط ، فلم يكن العرب كلهم كذلك ، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك » •

وكان مما استدل به على انتحال الشعر الجاهلى أيضا اختلاف

---

(١) طه حسين فى ميزان الاسلام ص ١٧٣
(٢) فى الادب الجاهلى ص ٦٦ دار المعارف عام ١٩٦٤
(٣) و (٤) و (٥) المصدر من ص ٧٠ — ٨٠
(٦) فى الادب الجاهلى ص ٧٤

اللغة بين العدنانية والقحطانية الى جانب أن الشعر العربى لا يمثل الحياة الجاهلية ٠

وقد أراد بذلك أن يقدم أبلغ دليل على الطعن فى الكثرة المطلقة من هذا الشعر ، لانه لا يمثل اللغة العربية فى العصر الجاهلى الذى يقول الرواة أنه قيل فيه ٠

وقد بدأ بحثه بالتعرف على اللغة العربية فى هـــذا العصر « لنجتهدن فى تعرف اللغة الجاهلية هذه ما هى ؟ أو ما اذا كانت فى العصر الذى يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلى قد قيل فيه » ٠٠

وكان ينبغى (٧) وصولا الى معرفة اللغة العربية أن يبحث فى ثلاثة أمور :

أولا : الشعر الذى يريد أن يبرهن على أنه منسوب بغير حق الى **الجاهليين** ٠

ثانيـــا : الوقت الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه ٠

ثالثـــا : اللغة التى كانت موجودة فعلا فى الوقت المذكور ٠

ولكنه وضع السؤال وحاول الاجابة عنه ، وتطرق فى بحثـــه الى الكلام على مسائل فى غاية الخطورة صدم بها الامة الاسلامية فى أعز ما لديها من الشعور ، ولوث نفسه بما تناوله من البحث فى هذا السبيل فى غير فائدة ، ولم يوفق فى الاجابة بل قد خرج من البحث بغـــير جواب ، اللهم الا قوله : ان الصـــلة بين اللغة العدنانية وبين القحطانية ، انما هى كالصلة بين اللغة العربية ، وأى لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ٠

وبدهى أن ما وصـــل اليه (٨) ليس جوابا عن السؤال الذى

---

(٧) راجع قرار النيـــابة ضد طه حسين ـــ الهلال عدد يولية عام ١٩٧٠ من ص ١٥٠ ـــ ١٩٧٨

(٨) راجع قرار الادانة ص ١٦٥

وضعه ، وقد نوقش فى التحقيق فى هــذه المسألة فلم يستطع رد هذا الاعتراض •

لقد كان هناك اختلاف فعلا بين القحطانية والعدنانية • ولـكى يبين طبيعة الاختلاف بين اللهجات التى كانت سائدة ، قسم العرب الى قسمين ، قحطانية وعدنانية ، والقحطانيين فى اليمن والعدنانيين فى الحجاز ، وأن القحطانيين عربيتهم بالفطــرة ، والعـــدنانيين عربيتهم مكتسبة ، لانها تتصل باسماعيل الذى يقول الرسول عنه أنه « **أول (٩) من تكلم العربية ونسى لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم**» • ابراهيم » •

وذكر أن الرواة :

متفقون على وجود اختلاف أو خلاف بين القحطانيين والعدنانيين، **وأن أبا عمرو بن العلاء (١٠) قال :« ما لسان حمير وأقاصى اليمن ولا عربيتهم بعربيتنا »** •

وذكر أيضا أن البحث الحــديث أثبت خـــلافا جوهريا بين القحطانية والعدنانية ، ثم شكك فى وجود العرب المستعربة ، وفى هجرة اسماعيل الى الحجاز ، وفى حديث الرسول ، وحرف قول أبى عمرو بن العلاء المشار اليه ، فقد رواه هكذا « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » ، والعربية غير اللغة بالطبع ، وتحريفه للنص يدل على سوء القصد ، وتعمد سوء النية •

كل هذا من أجل أن يثبت ما استقر لديه ، وما أصر على اثباته من التشكيك فى الشعر الجاهلى ، ورميه بالانتحال •

وأول ما شكك فيه ، هو كيف تعلم اسماعيل وأبناؤه العربية ؟ واذا كانوا قد تعلموها من العرب العاربة ، فكيف بعد ما بين اللغتين؟

---

(٩) راجع كتاب طبقات الشعراء ص ٨ دار الباز مكة المـــكرمة
(١٠) المصـــدر ص ٨

لغة العرب العاربة ، ولغة العرب المستعربة ، ثم استطرد فى انكاره، فأنكر حتى مجرد الوجود التاريخى لابراهيم واسماعيل ، وقصة هجرة اسماعيل ذاتها ، واذا كان القرآن والتوراة شاهدى اثبات ، فهو قد تعمد الانكار ليقطع الطريق على شاهدى الاثبات ، مع أنه يعلم أن صدق القرآن ينبغى التسليم به ، فهو ليس محلا للطعن أو الشك • وهو قد صدقه حين قرر أنه « أصدق مرآة للحياة الجاهلية» والتماس الحياة الجاهلية فيه أنفع وأجدى •

أما اختلاف اليمنية عن العدنانية فهو أمر لا اختلاف عليه حتى قال ابن جنى : « لسنا نشك فى بعد لغة (١١) حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار •• » وعندما جاء العلماء لرواية اللغة تحروا ذلك لتفاوت القبائل فى الفصاحة ، « وقد استبعدوا لغة حمير ، لانها تكاد تكون لغة وحدها مخالفة للغة مضر ، ولانهم خالطوا الحبشة وخالطوا اليهود . وخالطوا الفرس فتأشبت لغتهم (١٢) •

وكان الاختلاف والتفاوت من آثار التطور التاريخى ، ومن المعلوم أن « اللغة العربية ظلت قرونا قبل العصر الجاهلى التاريخى، وهى تتطور وتتكون وتأخذ بكل الاسباب التى تكملها ، وتنوعت فيها عوامل النمو من ابدال واشتقاق ونحت وتعريب حتى برزت للتاريخ كاملة ناضجة » (١٣) •

كان الاختلاف بين اليمنية والعدنانية شديدا ، قبل انهيار سد مأرب•وتوزع القحطانيين والحميريين،وهجرتهم الى كل أنحاء الجزيرة وامتزاجهم باخوانهم العدنانيين بعد استقرارهم ، حتى استقرت الازد وهم جرهم والاوس والخزرج فى المدينة ، ورأينا كندة اليمانية وهى قبيلة امرىء القيس تستقر فى العروض فى الشمال ،

---

(١١) راجع الخصائص ج ١ ص ٣٩٢ ، وراجع أيضا ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٤٤ . النهضة المصرية ط ٨ عام ١٩٧٤

(١٢) راجع ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٤٦ .

(١٣) النابغة الذبيانى للاستاذ عمر الدسوقى ص ٣١ مطبعة لجنة البيان العربى ط ٣ عام ١٩٥٤ م .

وخزاعة فى مكة ، وتدخل فى جوار قريش ؛ ورأينا بعض هذيل وكنانة يتوغل فى أرض اليمن ، ويجتمع فى العراق والشـــام من الشمال والجنــوب بطون وعشــائر لعبت دورا خطيرا فى حــركة الفتــح الاســلامى (١٤) •

ولكن بعد هذه الهجــرات واســــتقرار اليمنيين وامتزاجهم بالعدنانية عن طريق المصاهرة والجوار والحكم والاقامة والمعــاشرة والاحتكاك ، بعد هذا كله تقاربت اللغة ، ولم تعد بالخطر الذىجسمه الدكتور طه حسين •

وهناك عامل آخر أغفله الباحث وأهمله مع يقيننا واعتقــادنا بمعرفته اياه وهو عامل اللغة الادبيــة • فقد عمد العرب الى تكوين لهجة أدبية تكون أداة للتعبير الادبى ، ينطق بها الخطباء ، ويقول بها البلغاء ، ويصوغ بها الشعراء ، ويتفوه بها الحكماء ••

وقد عمت هذه اللغة الادبية الجزيرة العربيــة ، وارتضاها العرب ، وارتضتها القبائل ، وقد بقيت لكل قبيلة لغتها أو لهجتهــا الخاصة لتستعملها فى غــير التعبير الادبى كالتخاطب والحيــاة اليومية ، تبعــا للبيئة التى تعيش فيها ، واختلاف طــرق الوضع والارتجال (١٥) •

لقد ظهرت اللغة الادبية وازدهرت فى الفترة التى اكتملت فيها التقاليد الفنية للشعر العربى ، وقد استولى فى القول والنظم بهذه اللغة امرؤ القيس اليمنى ولبيد بن ربيعة المضرى العدنانى •

وكان م ن نتيجة ذلك أن ينقسم الشعراء العرب الى قسمين :

أولا ــ شعراء اقليميون :

وهم الذين بقوا فى قبائلهم ، وأصبح شعرهم يمثل لغات هذه القبائل بكل خصائصها الصوتية واللغوية •

---

(١٤) راجع فى الشعر الجاهلى نظرة ام نظرية للدكتور أحمد كمال زكى المنشور فى هلال فبراير عام ١٩٦٦ ص ١٧١

(١٥) النابغة الذبيانى ص ٣٢ ، ٣٣

ثانيا ـ شعراء عموميون :

وهم الذين تركوا لغات قبائلهم ، واصطفوا اللغة الادبيــة ، وقالوا بها ، وهؤلاء لا يصبح شعرهم مرتبطا بلغتهم الاصلية ، ولا يصح الاستشهاد به عليها ، وانما يستشهد به على اللغة العربية كلهــا •

واذن فدعوى رفض شعر بعض شعراء ربيعة لأن شـــعرهم لا يتفق ولغتهم دعوى مرفوضة لما أسلفنا •

وقد ساعد على انتشار اللغة الادبية عوامل كثيرة منها ما اعتبرته العر بأمرا أساسيا وضروريا بالنســبة اليها ، وهو وجود لغة موحدة تجمعهم وتصبح وعاء لادبهم •

وكان مما ساعد على اتجاه العرب نحو اصطفاء لغة أدبية تجمعهم ما أحسوا به من خطر يتهدد حياتهم ، فلقد كانت القوتان الكبريان آنذاك وهما فارس والروم تتقاسمان النفوذ فى الشرق ، وتحاولان استعباد شعوبه •

فقد احتل الفرس العراق ، واحتل الرومان مصر والشـــام ، وبسطوا نفوذهم على أغلب بقاع الشرق ، وساعدت كلتا الدولتين أعوانها على احتلال اليمن ، ولم ينج من عار هــذا الاحتـــلال غير وسط شبه الجزيرة العربيــة ، الذى هددته حمــلة أبرهة عام الفيـــل •

وأمام هذا الخطر المحدق بالعرب برزت ضرورة الوحدة بين قبائلها التى كانت قد مزقها الصراع ••

وبدأ التواصل بين شبه الجزيرة واليمن بعد تحريرها بقيــادة سيف بن ذى يزن ، الذى أرسلت اليه قريش وفدا لتهنئته بانتصاره وقد ضم الوفد وجهاء مكة •

ولعبت الاشهر الحرم دورا هاما فى جعل القبائل العربيةتعيش فترات من السلم ، تنمو فيها روابط الوحدة بين اللغـــة والتجارة والعادات والتقاليـــد (١٦) ٠

وكانت هذه اللغة الادبية ثمرة هذا التقارب ، بين لغات القبائل والعشائر وبها نزل القرآن ٠

---

(١٦) راجع فى هذا مقال العروبة والاسلام للاستاذ محمد عمـــارة فى مجلة الهلال عدد نوفمبر عام ١٩٨٣ ص ٣٢ — ٣٦

الفصل الثـــانى

طه حسين والمنهج الديكارتى

لندع الدكتور طه حسين نفسه يقدم منهجه • يقــول (١) :
« أريد أن أصطنع فى الادب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه « ديكارت » للبحث عن حقائق الاشياء فى أول هذا العصر ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الاساسية لهذا المنهج هى أن يتجـــرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضـــوع بحثه خالى الذهن مما قيل خلوا تاما ، والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الادب فى أدبهم ، والفنـــانين فى فنونهم ، وأنه الطابع الذى يمتـــاز به هذا العصر الحديث » •

وقد رد فى عنف واستنكار على من حاول أن يتهمه بالاســـاءة الى « ديكارت » يقول (٢) :

« ان شيخين من أنصار القديم رأى أولهما (٣) أن مـــذهب « ديكارت » قريب جدا من المذاهب الاسلامية ، وأن صاحب الشعر الجاهلى قد حرف هـــذا المذهب لحاجـــة فى نفســـه ، بينمـــا رأى الاخر (٤) أن مؤلف هذا الكتاب لا يفهم « ديكارت » ولا يحس تخريج مذهبه الفلسفى » •

---

(١) فى الادب الجاهلى دار المعارف عام ١٩٦٤ ص ٦٧ ، ٦٨

(٢) راجع « من بعيد »

(٣) يقصد المرحوم الاستاذ محمد فريد وجدى راجع نقـــد الشعر الجاهلى الطبعة الاولى ص ١١ وما بعدها مطبعة دائرة معارف القرن العشرين مصر اكتوبر عام ١٩٢٦

(٤) هو الشيخ محمد الخضر حسين راجع نقض كتاب الشـــعر الجاهلى المطبعة السلفية عام ١٩٤٥ هـ القاهرة ص ٣٦ وما بعدها .

وقد رد طه حسين عليهما بأنهما لا يحسنان لغة «ديكارت» ولا يعرفان اسمه و لافلسفته ..

وهذا الرد غير موضوعى ، ولا يحسم القضية ، وفيه ما ينهض دليلا على أنه حوصر بالرأى والدليل فلم يجد أمامه الا هـذا الـرد الذى يحمل طابع الاحـكام الجزافية بما فيها من مبالغـة وعـدم اتزان وانضـباط ، وهو أشبه بمـا قاله الجاحظ فى ملاحاة شيخه أبى الحسن الشيبانى حيث قال : « ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك لقلت أن أباه لا يقول شعرا أبدا » قال الجاحظ هـذا فى تفصيل اللفظ على المعنى هكذا قيل ..

فلنناقش فى هدوء هذا المنهج الديكارتى ، ومدى التزام الباحث به ، أو خروجه عنه ، ولنستعرض آراء المؤيدين والمعارضين ، ثم ننظر أصاب الدكتور طه حسين أم أخطأ ، وهل استخدم المنهـج الديكارتى أم لم يستخدمه ؟

أولا ـ الاراء المؤيدة لطه حسين فى استخدام المنهج الديكارتى :

١ ـ ينسب المستشرق فرانشيسكو (٥) جابريللى الى المستشرقين الاوربيين قولهم : ان آراء طه حسين ومنهجه « فى الشـعر الجاهلى » تعتبر ثمرة لمبادىء « ديكارت » التى تشبع بها أثنـاء اقامته فى أوربا .

ولا ننسى أن هذا الرجل بذكاء أو دهاء وربما بأمانة لم يرض أن ينسب هذا الرأى الى نفسه ، وانما نسـبه الى المستشرقين الاوربيين ، دون تحديد النسبة ، ومركز القائلين الادبى ، وثقلهم الفكرى حتى يمكن القبول أو الرفض .

٢ ـ والدكتورة «سهيرالقلماوى» (٦) وهىتلميذة الدكتورطه حسين

---

(٥) راجع مجلة فصـون المجلد الثالث العدد الرابع عام ١٩٨٣ ص ١٠٤ من بحث للاستاذ عبد الرشيد محمودى

(٦) الهـلال عدد خاص عن طه حسين ظهر فى نوفمبر عام ١٩٦٦ من بحث بعنوان « أستاذي طه حسين » ص ٤ ـ ٩

ومتأثرة به ؛ تتابعه على طول الخط دون تحفظ ، فترى أن منهج طه حسين منهج « ديكارتى » وأن أستاذها قد تأثر بفلسفة « ديكارت » •

ثانيا — آراء المعارضة :

١ — يرى الدكتور أحمد كمال زكى (٧) أن المنهج الذى استخدمه طه حسين لم يكن منهجا ديكارتيا ، وأن منهج الشك الذى استخدمه لم يكن منهجا غربيا ، وانما هو منهج شرقى ، كمنهج ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » حيث شك فى كثير من الشعر المدون ، ووزع الشك على محاور كثيرة ، منها المدونون والرواة والقبائل والسياسة •

يقول الدكتور أحمد كمال « والواقع أن الدكتور طه حسين دخل ميدان الشعر العربى كباحث وفى أذنيه ما اعتاد أن يقوله كل من « نولدكه » و « مرجليوث » وهو أن يضاف للعرب قبل الاسلام من شعر ليس لهم » •

ويذكر أيضا أنه فى سنة ١٩٢٥ أى قبل أن يصدر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » نشر « مرجليوث » فى مجلة الجمعية الاسيوية بحثا بعنوان «نشأة الشعر القديم » ينكر فيه صحة هذا الشعر ، معتمدا لعى ما ورد فى كتب من جاء بعد « ابن سلام » تاركا كتاب ذلك الرائد الذى كان متداولا اذ ذاك ، فقد طبع فى « ليدن » بعنوان « طبقات الشعراء » سنة ١٩١٢ ، ١٩١٦ م بتحقيق يوسف هل •

وهذا يعنى أن قضية النحل أو الوضع ، كانت معروفة عندما شرع الدكتور طه حسين مع المستشرقين فى تقويم شعرنا القديم ، ويبدو أنه انتفع بكتاب « ابن سلام » أكثر مما انتفع به أحد من

---

(٧) المصدر السابق من بحث بعنوان « فى الشعر الجاهلى نظرة أم نظرية » ص ١٦٦ — ١٧١ •

قبله ، وقد ظهر ذلك فى محاضراته التى كان يلقيها ، ثم فى كتـــابه « فى الشعر الجاهلى » •

وتعنى هذه الفقرة أن طه حسين تأثــر بآراء المســتشرقين « فولدكه » و « مرجليوث » وغيرها ، ثم بكتاب « طبقات الشعراء »، ولكنه فى منهجه استخدم منهجا لا يعتمد اعتمادا كليا على «ديكارت» كما ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه فى استعراض واعتداد وثقة ، وكما دافع فى صلافة وسخر من المعارضين له •

فهو استخدم منهجا خليطا من عدة مصادر . من بينها «المنهج الديكارتى » وان كان تأثره بدا واضحا فى استخدام منهج ابن سلام فى « طبقات الشعراء » الذى انتفع به أكثر من غيره ، ولم يلتزم بـــه ، وانما أخـــذ منه ما يريد أخذه وما يخـــدم دعاواه ، وأعرض عما لا يريده ولا يوافق هواه ولا يخدم قضيته بل سنراه حرف بعض النصوص ، اعمالا لحاجة فى نفســـه ، وأهمل البعض الاخر لحاجة فى نفسه أيضا ، ونحن نعلم أنه اما أن يؤمن الباحث بكل ما فى الـــكتاب فيستشهد به ، أو لا يؤمن به فيتركه ، وما عليه فى الحالين من بأس ، أما أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الاخر، فهذا ما لا نوافقه عليه •

٢ ـــ والدكتور عبد الرحمن بدوى فى تقديمه لكتاب دراســات حول صحة الشعر الجاهلى ذكر أن الدكتور طه حسين قد تأثر بابن سلام فى كتابه « طبقات الشعر » •

ونحن نجد مصداقا لما قاله الدكتور بدوى والدكتور أحمـــد كمـــال زكى فى كتـــابه « الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلى » وتأثره بابن سلام •

فمثـــلا يقول ابن سلام (*) : « ومما يدل على ذهاب العلم وســـقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة والمصححين ، فطرفة وعبيـــد

(*) طبقات الشعراء ص ١٧ •

والذى صح لهما قصائد يقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن،فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة » •

ونجد الدكتور طه حسين (**) يقول : « ولابن سلام مذهب فى الاستدلال لاثبات أن أكثر الشعر قد ضاع لا بأس أن نلم به ، فهو يرى أن طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدهم تقدما ؛ وهو يرى أن الرواة والمصححين لم يحفظوا لهذين الشاعرين الا قصائد بقدر عشر » •

ويقول ابن سلام (***) فى موضع آخر « ثم كانت الرواة فزادوا فى الاشعار ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء ؛ أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الاشكال » •

ويقول طهحسين (****) فىكتابه « وقد رأيت أنالقدماء قد سبقونا الى هذه النتيجة ، فابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذى ينتحله الرواة فى سهولة ، ولكنهم يجدون مشقة وعسرا فى تمييز الشعر الذى ينتحله العرب أنفسهم » •

٢ — ومن الباحثين من رأى أن الدكتور طه حسين استخدم منهجا استشراقيا تأثر فيه بآراء الذين سبقوه الى اثارة هذا الموضوع من المستشرقين • أمثال « نولدكه » و « مرجليوث» « بلاشير » و « بلنت » وغيرهم ، أو من الذين تتلمذ على يديهم الدكتور طه حسين ممن يطعنون على الادب ، أو يكيدون لاهله •

(**) فى الشعر الجاهلى ص ٦٦
(***) طبقات الشعراء ص ٢٣
(****) فى الشعر الجاهلى ص ٦٧

ومن الذين قالوا بهذا الرأى أصحاب الكتب الذين ردوا بهـا على مطاعن الدكتور طه حسين مثل « الدكتور الغمراوى » فى كتابه « النقد التحليلى » ولطفى جمعة فى « الشهاب الراصد » والشـيخ محمد الخضرى حسين فى « نقض كتاب فى الشـعر الجـاهلى » ومحمد فريد وجدى فى « نقد الشعر الجاهلى » والدكتور محمـد عبد المنعم خفاجى فى « نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى » من بحث بعنوان (٨) « طه حسين وقضية الشعر الجاهلى » والاستاذ أنور الجندى فى « طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام » والاستاذ محمد عرفة فى « نقد مطاعن على القرآن » •

ولا يزال الاعتراض على النتائج التى توصل اليها الباحث والمنهج الذى استخدمه يثير رد الفعل والاعتراض والمناقشات والتساؤلات ولم تحسم القضية بعد ، برغم مرور أكثر من نصف قرن عليها ، وذلك لان التراث قضية بناء تال على أول ، وميراث جيل لجيـل ، ولابـد لهـذا البنـاء من أن يثقف ويقـوم ويدعم ، لتبنى عليه الاجيال القادمة فى تثبت وأمان ، والا انهار وانهدم •

ولعل هؤلاء قد استندوا فى آرائهم الى انبهار «طه حسين » بفكر الغرب ، ووقوفه عنده فى دهشة واستغراب ، وانه لم يكن لـه قبل رحلته الى « أوربة » ما ينهض ليكون رأيا له كبير الاثـر ، وأنه استفاد استفادة كبيرة بآراء الغرب فى الداخل والخارج ، وأنـه مفتون بالغرب وفكره الى حد قوله ، فى احدى اجازاته التى قضاها فى مصر أيام بعثته بمناسبة عيد ميلاده السـادس والعشرين : يقول (٩) : **« فى مثل هذا اليوم ولدت منذ ست وعشرين سنة ، وفى هذا اليوم سافرت الى أوربة منذ سنة واحدة ، وأنا الليلـة فى القاهرة أرجو ألا يصبح على الغد الا وقـد رحلت الى حيث**

---

(٨) سلسلة بحوث ودراسات باشراف صالح جودت

(٩) راجع الهـلال عدد خاص عن طه حسين فبراير عام ١٩٦٦ بحث بعنوان « صفحات مجهـولة من حيـاة طه حسـين » للاستاذ انور الجندى من ص ٨٠ — ٩٣

لا يرجع ظاعن ولا يرجى لمرتحــل اياب ، لا تصبح أيها الليل عن هذا الغد » ..

٣ ــ ومن الباحثين من يرى أن طه حسين لم يتأثر فى نظرية الانتحال هذه بالمستشرقين بقدر ما تأثر بتقاليد البحث التــاريخى الاوربى فى التراث اليونانى ومن هــؤلاء الدكتــور جابر عصــفور فى كتابه (١٠) « المرايا المتجــاورة » والدكتــــور « ريمــــون فرنسيس » (١١) .

٤ ــ أما الاستاذ محمود أمين العالم (١٢) فيقول :

« ما أكثر ما يقال أنه (طه حسين) اصطنع المنهج الديكارتى كما يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الادب الجاهلى » ولــكنه فى الحقيقة لم يكن فى حاجة الى هذا المنهج الديكارتى ، فجــوهر حركته الفكرية هو التجديد العقلى ، وليس الشك الديكارتى الا وجها من أوجه هذا الجهد العقلى» .

حقا انه شك منهجى استطاع به الدكتور طه حسين أن يزيــل كثيرا من الاوهام فى تاريخ الادب العربى فى العصــر الجــاهلى ، **على أنى أريد أن أقول : انه لم يكن تبنيا لفلسفة ديكارتية فى التفكير، كان وقوفا عند الشك المنهجى لديكارت مطبقا على الادب .**

والحقيقة أنه ليس فيه من الديكارتية غير هذا المظهر الخارجى، لقد واصل الدكتور طه حسين فى الحقيقة طريقه العقلى الصــارم الذى بدأه برسالة عن أبى العلاء ، ولم يكن الشك الديكارتى غير جانب من منهجه العقلى العام ، ولكنه ليس سمته الاساسية ، بــل لعلنا نجد فى هذا المنهج العقلى سمات ديكارتية أخرى غــير الشك

---

(١٠) القاهرة ١٩٨٣

(١١) عدد الهلال فبراير عام ١٩٦٦ من بحث له بعنوان « طه حسين والادب الفرنسى »

(١٢) المصدر ص١١٦ وما بعدها من بحث بعنوان «طه حسين مفكرا»

مثل الوضوح والتميز فى الحكم والتعبير والتحليل ، على أن المهم أن أؤكـد أن هـذا المنهج العقلى فى صياغة الظواهر التاريخيـة والادبية وتفسيرها لم يكن الا مجرد تطبيق للشـك الديكارتى ، هو امتداد للمنهج العقلى الصـارم الذى أخذ به نفسه منذ بداية حياته العلمية)) .

وانما أطلت فى هذا الاقتباس حتى يتضح رأى الاستاذ العالم، وتكراره بأن طه حسين لم يستخدم المنهج الديكارتى ، وانما كـل الذى استخدمه منه الشك فقط .

ويكون افتعال الضجيج واثارة السخرية وتجهيـل من ردوا عليه بأنه أساء الى المنهج الديكارتى ، وأنه لم يستخدمه استخداما أمثل ، يكون كل هذا منه من قبيل الدخان الذى يثار ليسرع بسيارة الهرب ؛ أو هو الهجوم الذى هو أقوى وسائل الدفاع ..

الفصل الثالث

وقفة مع طه حسين والمنهج الديكارتي

أو فلسفة الشك

لديكارت كتابان يوضحان منهجه في فلسفة الشك همـــا « المقال في المنهج » و « وقواعد لهداية العقل » .

ومن يقرأ هذين الكتابين يمكن أن يتعرف على منهج الشـك الفلسفي عنـد « ديكارت » ، وسـوف يتضـح له أنه بين الشك الذي استخدمه الدكتور طه حسين وبين الشك الديكارتي فـروق جوهرية .

ومن هذه الفروق :

١ ــ الشك الديكارتي يهدف الى معرفة موضوع البحث معرفة احاطة وشمول بكل ما هو جوهري يقيني ، بينما الشك في صحـة الشعر الجاهلي يتسم بالطابع السلبي الذي ينتهي الى زوال موضوع البحث أو تلاشيه .

لقد سمي الشك الديكارتي منهجيا ، لانه مجرد أداة يستعملها العقل بحرية تامة ، ووفقا لترتيب منطقي صـارم ، يستبعد كل ما نعرفه عن طريق الظن والاحتمال والغموض ، ويكتشف في وضوح تام دون أدنى شك ما نعرفه .

أو قـل ان شئت هو شـك قائم على الارادة العقليـة الحـة وليس تابعا لارادة نفســية ، أو نابعـا من حالة نفســية أو وجودية (١) .

---

(١) راجع ديكارت للدكتور عثمان أمين القـاهرة ص ١٢٧ ــ ١٣١

فديكارت مثلا يشك فى وجود العالم الحسى الخارجى بقدر ما تشهد عليه الحواس ، لان الحواس تخدعنا كثيرا ، ولكنه يعود ليثبت وجود العالم الخارجى على أساس من العقل المحض ، البعيد عن التوجيه ، وهو ان الله لا يمكن أن يخدعنا ، وهو أساس لا يرقى اليه الشك .

أما الشك الذى استخدمه الدكتور طه حسين فى دراسة الشعر الجاهلى ، فهو الشك الذى يملك نفس صاحبه ، ويستغرق فكره ، فينتهى به الى انكاره وجود موضوع البحث انكارا ، لقد بالغ فى تقدير الاسباب التى تدعو الى الارتياب فى صحة الشعر الجاهلى بدعاوى كثيرة أقامها وبرهن عليها .

فهو لم يعط العقل موهبة الحرية ليكون حرا تام الحرية كما يتطلب المنهج الديكارتى .

فهو يرى أن الشعر الجاهلى لا يمثل الحياة الجاهلية من عقلية وثقافية ودينية ولغوية وسياسية واقتصادية ، ولم يحاول الالتفات الى أى استثناء قد يخرج على هذا التعميم ، فهو لم يسمع بل لم يلتفت الى أقوال تخالف رأيه كآراء ابن الكلبى فى « الاصنام » الذى تحدث فيه عن الحياة الدينية عند العرب ، ولم يلتفت الى آراء « ابن سلام » الذى قرر فى ثقة أن النقاد والمدونين والعلماء بالشعر الجاهلى غربلوا الشعر الجاهلى ، وميزوا الصحيح من الزائف والموثوق به من المنتحل « وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون » (٢) .

كذلك لم يحاول الباحث الاصغاء الى أن الشعر الجاهلى ليس مرآة تنقل كل ما أمامها من صور العصر بحذافيرها ، وما قد تلبس فيه ووجد ، ولم يحاول أن يقف عند آراء ابن سلام فى أن هناك شعراء قبائل وقفوا بشعرهم عند حدود لغة القبيلة ، فقد بقوا فى قبائلهم واستعملوا لغاتها وأصبح شعرهم يمثل لغة القبيلة .

---

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٣ دار الباز مكة المكرمة

وأن هناك شعراء عموميين لا يقفون بشعرهم عند دائرة القبيلة وانما يمثلون بشعرهم الجزيرة العربية كلها ، ولهذا لا يقفون بشعرهم عند حدود لغتهم الضيقة التى يفهمها كثير من القبائل ، بل يصطفون اللغة الادبية التى تتفق عليها أكثر القبائل ليكون شعرهم أكثر قبيلا وجمهورا ، ويكتب له الذيوع والانتشار ، ولهذا كان الشعراء العموميون لا يمثل شعرهم لغة قبائلهم ، لانهم لم يلتزموها ولم يتمسكوا بها ، بل تظموا شعرهم باللغة الادبية التى أوجدتها الحاجة .

وقد ألغى من اعتباره الغاء مطلقا أثر انهيار سد مأرب وتشتت القحطانيين والحميريين فى كل أنحاء الجزيرة ، واندماجهم مع اخوانهم الشماليين وتكلمهم بلغتهم وتقاربهم منها ، فأقاموا الممالك الكثيرة على أطراف الجزيرة العربية وأواسطها مثل امارة الغساسنة والمناذرة ، وكندة .

وقد أحدث هذا التقارب انقطاع الشعراء عن لغتهم الاصلية ، وأخذهم باللغة العدنانية القريبة وهى لغة العدنانيين المحيطين بهم .

فامرؤ القيس برغم أنه يمنى الا أنه قال الشعر بلغة تقارب العدنانية فى جميع أشكالها وصورها وقواعدها وضوابطها ، وكذلك الشعراء العموميون مثل أصحاب المعلقات ومن أنس فيه الثقة ومن رغب فى مزيد من الشهرة ، ومن كان يذهب الى أسواق العرب ببضائعه الشعرية .

ومثل هذا يوجه الى أسباب الانتحال كالسياسة والدين والشعوبية والقصص ، وهو فى سبيل هذا الزعم السلبى الذى قصده لا مانع عنده من تحريف النص الذى يأخذه ، أو يقطعه عن سياقه . كما فعل بالنص الذى استشهد به ونقله عن أبى عمرو بن العلاء . فقد روى الدكتور (٣) طه حسين قول أبى عمرو هكذا « ما لسان

---

(٣) فى الادب الجاهلى ص ٨١ .

حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » وهذا النص رواه (٤) ابن سلام في طبقات الشعراء هكذا : « ما لسنا حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وادعى أن الاسلام قد فرض لغته مع أنه يعلم أن اللغة الادبية التى نزل بها القرآن نشات قبل نزول القرآن بقرنين أو قرن ونصف، لان الشعر الجاهلى روى بها ، وأقدم نص فيه كان فى مطلع النصف الثانى (٥) من القرن الخامس الميلادى .

ومعنى هذا أن الشعر الجاهلى كان افرازا للغة موحدة هى اللغة الادبية التى اصطلحت عليها كل القبائل دون رفع لافتة او شعار ، وتبناها الشعراء العموميون الذين يمثلون الشعر العربى كله . والتزموا بها فى كل أشعارهم ، وأقامت لاجلها قريش أسواقها وحكومتها الشعرية وعملت على ازدهار لغتها نظرا لظروف اقتضتها أوضاعها الدينية والاقتصادية والجغرافية والسياسية ، وجاء الاسلام والعرب كلهم يكادون يجمعون على هذه اللغة الادبية فنزل القرآن بلسان عربى مبين .

لم يفرض الاسلام لغته كما زعم الدكتور طه ، ولم يوجه العرب الى لغته ، وعندما نزل فهمه العرب جميعا ، ولم تقف قبيلة عن فهمه ، نظرا الى ما أسلفناه .

ونخلص من هذا الى أن طه حسين قد غلبت على شكه الصور والاعتبارات السلبية ، فاستسلم للشك ، وأنكر دواعى المعرفة والحكم اليقينى .

---

(٤) طبقات الشعراء ص ٨ طبعة دار الباز مكة المكرمة وراجع بحث فى الشعر الجاهلى نظرة أم نظرية للدكتور أحمد كمال زكى ص ١٧١ الهلال نوفمبر عام ١٩٦٦ .

(٥) راجع دراسة فى مصادر الادب للدكتور الطاهر احمد مكى ط ٤ دار المعارف عام ١٩٧٠ ص ١١

وما دامت مقدماته سلبية والنتيجة تتبع المقدمات ، كانت النتيجة التى توصل اليها سلبية بالطبع .

ولهذا لا نستغرب نتيجته التى توصل اليها وهى (٦) أن الكرة المطلقة مما نسميه الادب الجاهلى ليست من الجاهلية فى شىء ..

٢ ـ وهناك أمر هام لا بد من التنبيه عليه ، وهو أن الدكتور طه حسين قد يخدعنا فى صور التساؤل التى تأخذ واجهة البحث ، مما يوحى بأنه يثير أسئلة تتمثل شكوكا فى قضية وأنه محايد ويناقش فى حيدة تامة ، لانه أوهمنا بصورة جدلية أنه يحاول الوصول الى الحق ، ولكن هذه الصورة لا تستمر كثيرا حين يدخل الى القضية وينتقل الى الجانب التطبيقى ، حينئذ نجد أن الاطار الخارجى الذى خدعنا بتساؤلاته يسقط ، لانه قد كان واجهة فقط ، فهو لم يجب على الاسئلة المثارة .

فنجد الدكتور طه حسين يمهد (٧) لبحث أدب الجاهليين ولغتهم بالاسئلة الآتية : « أهناك شعر جاهلى ؟ فان كان هناك شعر جاهلى فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز عن غيره ؟ وهو لا يود أن يظهر بأنه صاحب هذه الاسئلة ، بل يجريها على لسان أنصار الجديد ، فيقول : هم لا يطمئنون الى ما قال القدماء ، وهم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلى فيتساءلون ومن عادة الدكتور طه حسين أن يسوق آراءه على لسان راوية يختبىء وراءه ، كما فعل فى « الحب الضائع » و « دعاء الكروان » و « قادة الفكر » (٨) .

وهو مغرم بهذه التساؤلات الكثيرة التى يثيرها فى صدر

---

(٦) فى الادب الجاهلى عام ١٩٦٦ ص ٦٥ و ص ٦٦
(٧) راجع فى الادب الجاهلى ص ٦٤
(٨) راجع زكى مبارك ناقداً ص ٨٠ ، ص ٨٨

كل مشـكلة أو قضية يود بحثها ثم هو لا يجيب منها الا عـلى « السؤال فقط » •

ولم يشأ أن يتعرض للاجابة على بقية الاسئلة حتى يكون منهجيا، وحتى نقتنع بأنه قد أجهد نفسه فعلا ليعطينا مذاقا فكريا ؛ وثمرة جديدة ونتيجة جديدة توصل اليها بعد مجهود عقلى رائع ، بـل يكتفى بالاجابة على السؤال الذى يقصد الاجابة عليه ، وهو الذى بيت النية وحفل بكل نشاط من أجله ، ويعتقد أنه لاعليه اذا اكتفى بما أجاب •

«ونحن لم نر المؤلف(٩)وهو اللهج بالمهب الحديد قد حل شيئا من هذه الاسئلة ما خلا السؤال الاول وهو قولهم : «« أهناك شـعر جاهلى ؟ »» فانه حـرر فى بعض الفصول الاتية أن للجاهلية شعرا يتلى ، ولم يبحث فى سائر المسائل فيرينا السبيل الى معرفة الشعر الجاهلى ، أو يشرح حقيقته ، أو يفصل مقداره ، أو يأتى على مميزاته، وكأنه رأى الطريق دونها ملتوية ، فأنكر هذا الشعر الجاهلى حتى لا يجهد نفسه فى حل هذه الاسئلة ويشقى » ••

٣ ــ ونحن مقتنعون ــ (١٠) كما اقتنع غيرنا بأن لكل علم مناهجه وقوانينه التى لا تصلح الا له ، والمنهج الفلسفى لا يمكن تطبيقـه بصورة تعسفية تطبيقا جبريا آسرا ضاغطا على الادب • كما أنـه لا يمكن تطبيق المناهج الادبية على الفلسفة ، ولا علم النفس ، ولا يمكن كذلك تطبيق القوانين فى التجارب المعملية السائدة فى العلوم التجريبية على الادب والنقد وتنتظر نتائج صحيحة •

هذه قضية أهملها الدكتور طه حسين وأغفلها عن قصد ، ولا يمكن بأى حال الحكم عليه بأنه لم يكن على علم بها ، ولكنه حين طبقها كان يقصد الى سوء النية والافساد •

---

(٩) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى للشيخ محمد الخضر حسـين المطبعة السلفية ص ١٣ القـاهرة

(١٠) راجع فى الميزان الجديد للدكتور محمد مندور والنقد المنهجى له أيضا

وتطبيق المنهج الديكارتى لم يسىء الى الادب فقط حين استخدم فى الادب ، ولكنه أفقد المنهج الديكارتى قيمته ودقتـــه ، ففلســفة المنهج ترجع الى نظامه ورياضيته وتسلسله حتى ينتهى الى اليقين كنتيجة يبحث عنها أو يبحث فيها ، وهو بانع من طبيعة الموضوع •

فديكارت حين عمم شكه على كل المعارف الحسية والرياضية وجد فى شكه ذاته ما ينهض دليلا على أنه يفكر وأنه موجود •

والخطوات التى خطاها ديكارت ثار حولها جدل كبير ، واذا خرج هذا المنهج من مجاله الفلسفى الى مجال آخر كالادب والنقد أصبح مستحيلا وصفه بالمنهجية المضبوطة ، الا على سبيل (١١) من التجاوز أو التشبيه •

فالمنهج الديكارتى لا يصـــلح أساسا للعمل به أو لتطبيقـــه واستخدامه فى مجال الادب والنقد مع قناعة بأنه سيعطى نتـــائج ســـليمة صحيحة ومقبولة ، وذلك لانه لا يخلو فيهمـــا من الاعتماد على الرواية الشفوية والشواهد ، وهى مادة غير متجانسة ، لا يمكن ترتيبها ترتيبا صارما •

ولو أن الدكتور طه حسين فعل كما فعل ابن سلام فى طبقات الشعراء ، حين شك فى بعض الروايات وطعن فيها ليصحح أو ليرجح البعض الاخر ، أو ليثق فيها ويرجحها أو لو أنه عنى بالاســـباب الايجابية التى تدعو الى اثبات صحة الشعر الجاهلى فى معظمـــه أو فى جزء منه يعتد به ، بقدر ما عنى بالاسباب السلبية التى تدعو الى الشك والحذر والطعن •

ولو أنه اهتم بدراسة خواص هذا الشعر ومميزاته واتخـــذ منها هذه الخواص ميزانا ضابطا يحكم به لننجح فى هذا وأســـعدنا

---

(١١) راجع طه حسين وديكارت للاستاذ عبد الرشيد الصـــادق محمود المنشور فى مجلة فصـــول المجلد الثالث العدد الرابع عام ١٩٨٣ ص ١٠٤ ــ ١١٥

معه وجعلنا نقتنع بنزاهة مقصده ، ولخلف لنا ميزانا نزيها عن الاهواء وتعسفها وعن الغرض وجوره .

وقد فعل ابن سلام هذا المنهج حين تعرض لشعر الشاعر فتعرف على قاموسه اللغوى ومميزاته وخواصه ثم نفى الشعر الذى لا يكون سائرا مع هذه الخواص فنجح فى ذلك نجاحا كبيرا فقد لاحظ روح الشاعر فى النصوص ومتابعتها من خلال استقراء شعره واستنتاج سماته وملامحه الاسلوبية والفكرية واتجاهه الفنى . ومن خلال هذه الملاحظة يثبت ما شايع تلك الروح أو ظاهرها . وينفى ما خالفها ، وأقرب مثل على ذلك ما ذكره عن حسان ابن ثابت رضى الله عنه حين يقول (١٢): «وقد حمل عليه ما لا يحمل على أحد لما تعاضدت قريش واستتبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به » .

والدكتور طه حسين كما يقال استفاد أكثر من غيره بكتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام وبآرائه ، ولكنه لم يشأ أن يستعمل هذا المنهج الفنى الذى هو أقرب الى الادب وروحه لانه يعلم أنه لا يفيده فى تحريك الادب واثارته ، ولانه يود أن يطلع بجديد ، وأن يقال عنه وأن يقول عن نفسه أنه استعمل ويستعمل مناهج غربية أجنبية استفادها فى اقامته الفرنسية .

لو أن طه حسين فعل هذا لكان أقرب الى الروح الديكارتية السليمة ولجاز وصف شكه حينئذ بأنه شك منهجى فلسفى لا على سبيل التشبيه والتجاوز ليس الا .

أما وقد استسلم للشك السلبى وانتهى الى نتائج سلبية ، وحكم فى الادب بقوانين لا تصلح له فلا يمكن أن يكون صادق الاتجاه ، ولا مقبول الرأى ، ولا سليم النية ، ولا مأمون النتيجة .

---

(١٢) راجع النقد الادبى للدكتور سعد ظلام مطبعة الامانة طبعة أولى عام ١٣٩٧ هـ ص ٨٥ سنة ١٩٧٧ م

كيف نحدد القصور فى المنهج الديكارتى عند طه حسين :

نود أولا أن نقرر أن هناك فروقا بين النزعة العقلية ، والطابع العقلى لفلسفة لم يفهموه ، وأخطأ حين شغل نفسه وشغل النقـــاد معه بهذه الدعاوى غير الصحيحة ، وأخطأ حين تصور أنه بهذه الاثارة وتلك الضجة يستطيع أن يخدع الناس •

صحيح أنه يصح لكل باحث أن يستخدم المنهج الذى يريد فى بحثه ، ولكن ليست هذه الحرية مطلقة ، فلا يحق له بأى حال أن يستخدم منهجا ثم يقول أنه استخدم منهجا آخر ، لمجرد أن هـــذا المنهج الذى يقول أنه استخدمه كانت له وجاهة أو كان يلقى قبـــولا واستجابة ، أو كان مسيطرا على الساحة آنذاك ، كما أنه لا يحق له أن يتعمد استخدام منهج يعلم مسبقا أنه سوف يسىء الى جوهر القضايا ويزيفها ، ثم يزعم أنه توصل الى نتائج صحيحة ، وكيف تكون القضايا صحيحة ومقدماتها غير صحيحة ؟ كما أنه يـــكون غير موفق حين يهاجم كل المقدسات وكل المسلمات لمجرد أنه يعـــرض رأيا أو يستخدم منهجا أو يفترض نتيجة ، يعلم هو نفسه قبل غيره فسادها •

ولو أن الامر بحسن النية والقصد ، لحمل محملا جميلا ، ولكن سوء النية والقصد والتوفر على الفساد والافساد والجهر بذلك ، كل هذا وغيره لا يكون مقبولا •

المنهج الذى استخدمه :

ومن هنا نكون مع الاستاذ محمد فريد وجدى حين قـــال : أن المنهج الذى استخدمه الدكتور طه حسين أقرب الى المنـــاهج الاســـلامية ، يعنى أنــــه اذا أحسن استخدامه ، لان هـــذا المنهج الشك نفسه استخدمه الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » •

ومنهج ديكارت ، وما طبقه الدكتور طه حسين فى شكه الفلسفى انما

هو من قبيل النزعة لا من قبيل الشك المنهجي الديكارتي ، وسوف نتعرض لهذه النزعة العقلية قريبا ان شاء الله .

ولكي نتبين مدى قصور المنهج الذي استخدمه الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي لابد أن نعرف أن ديكارت أقام فلسفته العقلية على دعامتين .

الدعامة الاولى :

أن معارفنا الحقيقية حتى الخارجية منها مستمدة من العقل وحده دون تدخل من الحواس .

الدعامة الثانية :

أن العقل هو السلطة الوحيدة التي ينبغي الاحتكام اليها في الحكم على أي شيء .

ويمكن بعد هذا التحديد القول بأن طه حسين أدرك على نحو ما أن هذه الثورة ترجع الى عقلانية ديكارت ، ولكنه (١٣)، « لم يحسن تحديد دور ديكارت »، ولم يحسن اقتفاء أثره في موقفه من الشعر الجاهلي ، فقد غفل تماما عن المعنى الاساسي لمفهوم العقلانية ، واقتصر منه على معناه الاول ، ألا وهو الاحتكام الى العقل وحده في الحكم على الاشياء ، ثم فسر هذا الاحتكام تفسيرا سلبيا فاعتبره مجرد الشك أو الطعن في الاراء الموروثة .. وبذلك خفي على طه حسين لب الثورة الديكارتية .. »

ويمكن بعد هذا كله أن نقول أن طه حسين أراد أن يحدث ثورة عقلية في مجال الادب أشبه أو أقرب الى الثورة العقلية التي حدثها ديكارت في مجال الفلسفة الحديثة .

وقد سبق أن استعمل الدكتور طه حسين هذه الثورة العقلية

---

(١٣) طه حسين وديكارت الفصول المجلد الثالث العدد الرابع ص ١٠٧

فى كتابه « تجديد ذكرى أبى العلاء » قبل أن يطلع على ديكارت كما أشار الاستاذ محمد أمين العالم(١٤) ..

وبذلك يكون الدكتور طه حسين قد أخطأ حين قرر أنه سوف يستخدم المنهج الديكارتى ، وأخطأ حين واجه من ردوا عليه باساءة فهم ديكارت فديكارت كان يشك ليصل الى حكم يقينى ، كالغزالى ولعل « ديكارت » قرأ له وتأثر بفكره ، وهو أقرب أيضا الى منهج الجرح والتعديل (١٥) فى رجال الاثر .. والجرح مقدم على التعديل فى الرواية ، ويقرب (١٦) من هذه القاعدة فى الجرح والتعديل قاعدة فى المؤرخين فان أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ، ورفعوا أناسا ، أما لتعصب أو لجهل ، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به و لغير ذلك من الاسباب ..

وقريب من هذا المذهب الافتراضى فى الفقه والشروح الازهرية.

ومنهج الجرح والتعديل استخدمه رجال الحديث حتى يطمئنوا الى سلامة تدوينه وروايته ، وقد استخدمه ابن سلام فى « طبقات الشعراء » وأبو الفرج فى « الاغانى » والمبرد فى « الكامل » وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » ومن الرواة المدونين أبو عمرو بن العلاء والمفضل الضبى ، والاصمعى .

ولا شك أن منهج ابن سلام فى الادب ، والمناهج الافتراضية فى الفقه ومناهج المتكلمين فى التوحيد ومنهج الغزالى فى فلسفة الشك للتوصل الى نتيجة يقينية ، ومنهج الجرح والتعديل فى رجال الحديث كلها مناهج شرقية تأثر بها الدكتور طه حسين فى دراسته الازهرية التى كان يصر على انكارها وجحودها ، حتى يستمر فى انكاره لدور الازهر فى حياته وعقليته .

---

(١٤) الهلال-عدد نوفمبر عام ١٩٦٦ ص ١٢٠ .

(١٥) و (١٦) راجع قاعدة فى الجرح والتعديل لتاج الدين السبكى ط ٢ عام ١٣٩٨ هـ و ١٩٧٨ م مطبعة دار الشعب ص ٩ ، ٦٩

أو هو خلاصة هذه المناهج جميعا وهى كلها مناهج شرقيـــة ، أراد أن يطبعها بطابع غربى استشراقى ، حتى يموه على القارئين ، وينكر على الازهريين ، ويروج لمذهب غـــربى بالدعاية لفرنســـا وتأثيرها .

الفصــل الرابع

أخطــاء أخــرى فى المنهج

وبقى أن ننبه الى خطأ جسيم وقع فيه الدكتور طه حســين وهو يطبق المنهج الديكارتى على الادب الجاهلى ، وهــذا الخطأ هو تطبيق مناهج عصرية على أدب قديم ، وعمل اسقاطات عصرية على الادب الجاهلى ، والحكم يكون سليما صحيحا ، لو أنــه طبق على الادب الجاهلى مناهج جاهلية ، وعلى الادب الحديث مناهج حديثــة •

ولا نشك فى أن الدكتور طه حسين كان يعرف قبل غيره هذا المزلق ، ومدى افساده للقضايا التى يتناولها •

وهنا خطأ لا يقل عن الاخطاء الاخرى وهو تطبيق المناهج الحديثة على أدب شفوى •

ولا يصح تطبيق المناهج الحديثة على أدب شفوى •

هذا الى جانب الاخطاء السابقة التى أشرنا اليها فى دراســة المنهج الديكارتى •

لقد ذهب الدكتور طه حسين مذهب الشك السلبى و « الشك حالة نفسية يتردد معها العقل بين الاثبات والنفى ويتــــوقف عن الحكم » (١) ولكننا نراه حكم من خلال هذا الشك •

فهل كان يذهب مذهب الجدليين ؟ والجدل ضرب الحوار والمناقشة والاستدلال لايلزم أساسا (٢) يقينا وقد عده « كانت » قسما من أقسام نقد العقل ••

---

(١) المصطلحات الفلسفية لمجمع اللغة العربية ص ٦٨
(٢) المصدر ص ٦٠٨

أم كان يذهب مذهب القياس المضمر ؟ والقياس المضمر قياس طويت مقدمته الكبرى أو الصغرى أما لظهورها والاستغناء عنها ، وأما لاخفاء كذبها (٣) ..

وأيا ما كان فهو قد التزم مذاهب الشكاك الارتيابية ، فانتهى الى صورة من الشك الى هذه الصورة العقلية الشاذة ، فقد أصبح رجلا يقبل جميع المذاهب الفلسفية على إختلافها ولا ينكر شيئا انكارا صريحا ، ولا يؤمن بشيء ايمانا صريحا ، أصبح صورة من صور الشك . وكان يلقي درسه ويؤيد مذهبه بالحجج والبراهين، ثم يقول في آخر هذه الحجج والبراهين : « ومع ذلك فلست مقتنعا بما أقول » .

ولم يكن يعرض « لرينان » في عصره الاخير فكرة الا قبلها ورفضها في وقت واحد ، حتى أحدث في العقل الفرنسي في ذلك الوقت اضطرابا شديدا ، وحتى دفع الشباب الناشيء الى شيء من الشك الخطر الذي لم يقف عند المسائل الدينية ، بل تجاوزها الى مسائل سياسية ووطنية (٤) .

وقد كان هذا الشك وذلك الإضطراب مذهبا للدكتور طه حسين ليس بعد استغرابه وانديباحه في قرار الفكر الغربي والفلسفة الغربية، ولكن قبل بعثته الى أوربا .

كان يقول الشيء ونقيضه معا ، يرى أن العشق رسول الفسق:

انمـــا العشق رســول الفسق (٥)

ســيقولون بـــذيء ليس في الحق بـــذاء

ثم يرى أنه لولا عاهته لكان أبا نواس..

---

(٣) المصدر ص ٦٠٩
(٤) طه حسين حياته وفكره في ميزان الاسلام ص ٤٦ ــ ٤٧
(٥) مصر الفتـــاة في ١٥ يناير عام ١٩٣٠

أنـا لـولا سـوء حظى لم أكن الا ابن هـانى

ثم يرى أنه ليس فى الحب شبيه له .

أنـا أصـبو الى الغـرام ولا
يعـرف فى الجنـون بالحسـن ثـان

ويقول « ليت للحب قضاة » .

ثم يرى أن الزواج بالاجنبيات شرك وكفر ، ويكتب المقالات فى هذا ، ثم اذا به بمجرد أن أخبروه بالموافقة على ابتعاثه الى فرنسـا ، يسـخر من اخـواته ، مفاخرا عليهن أنـه سـيتزوج باريسية .

وهو يرى أن الازهر أصلح مكان للتعليم والتدريس ، ولكنه يرمى عمامته فى البحر الابيض مبحرا الى فرنسا ، وينادى بعـد ذلك بالخطوة الثانية .

هـذا الشـك ، وذلك التنـاقض فى حيـاة الدكتـور طه حسين ظاهرة لا مجال للطعن فيها ، يقول ثم يريد أن لا يقول، ويبدى رأيا ، ولكن ليس من خلال قول صريح واعراب وافصـاح ولكن من خـلال راوية كما فى « الحب الضـائع » و « دعـاء الكروان » (٦) وهو يجاهر بأنه عربى ولقب بعميـد الادب العربى، ولكنه منتم الى ثقافة غربية هى الثقافة اللاتينية أو ثقافة البحـر الابيض المتوسط ، وهو مولع شديد الولوع بالفكر الغربى والمفكرين والفلاسفة الغربيين ، سائر وراءهم منقادا انقيادا أعمى دون نقاش، فلم يناقش طـه حسـين فى رواية « الحب الضائع » الراوية فى أفكاره ، ولم يناقش ما نقل عن الرواة أيضا فى « قـادة الفكر » بل وثق بهم وثوقا مطلقا (٧) .

---

(٦) راجع زكى مبارك ناقداً ص ٨١
(٧) زكى مبارك ناقداً ص ٨٠ ، ٧٥

والرجل كما يرى صديقه وتلميذه الدكتور زكي مبارك محب للتطرف (٨) .

والرجل أيضا جمع الى تناقضه وشكه اضطرابه ومن أمثلة ذلك أنه كان معمما وناقش الدكتوراه وهو معمم ، ولكنه علم أن أمور الدولة سائرة مع أصحاب الطرابيش ، وقد أقلته الباخرة من الاسكندرية الى مرسيليا وهو معمم ، ولكن ركاب الباخرة قد أفزعهم شيء يقع بعنف في البحر ولم يكن ذلك الشيء سوى عمامة طه حسين .

ومن العجيب أن يذكر طه حسين بعد ذلك لاحد الصحفيين أنه ما ندم على شيء فى حياته كما ندم على رمى عمامته فى عرض البحر ولكن الواقع غير ذلك (٩) .

وقد شهد الدكتور طه على نفسه فى مواطن كثيرة من كتاب « الايام » باضطراب العقل ، وأقول أن هذا الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية ، وأن عده الدكتور زكي مبارك من مظاهر الحيوية وسر قوة هذا الرجل أنه من دعاة الثورة .

وكان معجبا جدا بالامام محمد عبده ، يتابعه ويتأثر به حتى عاد من أوربة ، فتخلص من هذا الحب ، ولم يرد أن يتابعه ولا يحب أن تبقى طريقته فى التفكير أساسا للحياة العقلية (١٠) .

وكذلك موقفه من أحمد زكي شيخ العروبة يعجب به الدكتور طه حسين فى النشاط والاقناع ، ولكنه كما يقول لا يتفق معه فى مذهب من مذاهب العلم أو منهج من مناهج البحث .

وكذلك كان موقفه من الدكتور زكي مبارك ، وكان موقفه أيضا

---

(٨) زكي مبارك ناقداً ص ٨٠ ، ٧٥
(٩) المصدر ص ٦٩
(١٠) طه حسين فى ميزان الاسلام ص ١٩٦

من شيخه المرصفي ، فلقد كان معجبا بشيخه السيد المرصفي . ثم ثار عليه .

ويقول الدكتور زكي مبارك عنه أنه صفحة من التقلبات في المودات والصداقات « فهو يقطع ما بينه وبين أصدقاء لا يجود الزمان بأمثالهم ، وهو قد يصل أقواما لا يمتون الى روحه بسبب قريب أو بعيد (١١) » .

وحبه للتطرف والثورة ، وتناقضه وشكه واضطرابه العقلي والتناقض في شخصيته ، والتقلب في المودات ، وعدم ثبات عاطفته واستقرارها ، وغدره بالصداقات ، كل هذا كان وراء منبع شخصي يحكم شخصيته في كل تصرف أو سلوك .

ومن هنا نفهم ثورته على القرآن والتوراة والرسول وكل مواريث الاصالة والتقاليد العربية وكل ما يمكن الحفاظ عليه والاعتزاز به ، كما يمكن تفسير موقفه من الشعر الجاهلي والقراءات الى آخر سلسلة الثورة والتطرف والتناقض والاضطراب .

انها تصرفات يمكن أن تحكم شخصيته ، أو تجعلنا نحكم على شخصيته وهي شخصية قلقة ...

وسوف نقف معه في القضايا التي أثارها في كتابه الشعر الجاهلي وآرائه التي أثارها فيه ، واتهامه الشعر الجاهلي بأنه لا يمثل الحياة الجاهلية العقلية والدينية واللغوية ، لنرى أأخطأ الرجل أم أصاب ، آخذين في اعتبارنا ما سبقت الاشارة اليه مستكملين ما قلناه فيها .

---

(١١) زكي مبارك ناقدا ص ٧٨

البـــاب الســـادس

الشعر الجاهلى واللغة

فى نظـــر طـــه حســـين

الفصـــل الاول

كتب الدكتور طه حسين فصلين كاملين عن اللغة الشعرية فى العصر الجاهلى والفصل الاول بعنوان « الادب الجاهلى واللغة (١)» والثانى بعنوان « الشعر الجاهلى واللهجات » (٢) من الكتاب الثانى من كتابه « فى الادب الجاهلى » •

وقد قرر فى الفصل الاول منهما أن الادب الجاهلى بعيـــد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية ، ولا يمثـــل اللغة الجاهليـــة ، وذكر أن العرب ينقسمون الى قسمين قحطانية فى اليمن وعدنانية فى الحجاز ، وهم متفقون على أن القحطانية عرب فطـــــروا على العربية ، وأن العدنانيين اكتسبوا العربية اكتسابا • وأن العدنانية يتصل نسبها باسماعيل بن ابراهيم •

وذكر أن هناك خلافا بين لغة القحطانية واللغة العدنانية ، وأن أبا عمرو بن العلاء قال : ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا•

ثم استدل ببعض النقوش الحميريةالقديمة، وقرر أن القحطانية شىء والعدنانية شىء آخر •

وهذا صحيح كما أيده أبو عمرو بن العلاء ، وكما رآه بعض العلماء من أن القحطانية لهجة سامية ، وهذا نفسه ما أيده الدكتور طه حسين ، وان كان قد حرف نص أبى عمرو وذكر أنه ربمـــا تكون هجرة اليمنيين الى مواطن العدنانيين ، ثم النسب والمصاهرة بينهما، قد يكون هذان العاملان مؤثرين فى اللغة ، ثم عاد كعادته فناقض نفسه ، فشكك فى هجرة القحطانيين بعد انهيار سد مأرب •

ومع أن القرآن ذكرها وهو قد أقر بها واعترف ، الا أنه قال :

---

(١) راجع فى الادب الجاهلى ص ٨٠ — ٩٢
(٢) المصدر ص ٩٢ — ١١٢

أن الهجرة على فرض وجودها انما كانت بعد الاسلام ، مع أن هذا مخالف لنص القرآن .

وقد خلص الى القول بأن اللغة العربية الفصحى كانت لغة أدبية للعرب وغير العرب بعد ظهور الاسلام ، فأما ما قبل ظهور الاسلام فقد نحب أن نتبين كيف استطاعت اللغة العدنانية أن تكون لغة أدبية للقحطانيين ، مع أن الميزان السياسى والاقتصادى والحضارى كان فى صالح القحطانية ؟

وفى الفصل الثانى وهو « الشعر الجاهلى واللهجات » ذكر أن الرواة حدثونا أن الشعر تنقل فى قبائل عدنان ، كان فى ربيعة ثم انتقل الى قيس ثم الى تميم ، فظل فيها الى ما بعد الاسلام .

ثم عاد فأنكر ذلك وشك شكا قويا فى قيمة هذه الاسماء التى تسمى بالقبائل ، وذكر أنها أقرب الى الاساطير .

واستدل بأن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ، ولا متفقة اللهجة فتنقل الشعر فى قبائل عدنان قبل الاسلام مسألة فيها نظر ..

هكذا يقول : مع أنه استشهد بآراء ابن سلام واعتنق أفكاره وربما منهجه في « طبقات الشعراء » وابن سلام يقرر تنقل الشعر فى القبائل ، ولكن لكى يقطع الطريق على الحقيقة أنكر حتى مجرد أسماء القبائل ؟ .

وقال : انه من المعقول أن تكون لكل قبيلة من القبائل العدنانية لهجتها الخاصة ومذهبها الكلامى .

وضرورة ظهور اختلاف اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل انه قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ، ولهجات متقاربة .

ثم قال : ولكننا لا نرى شيئا من ذلك فى الشعر الجاهلى .

وقال : أن القرآن الذى تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، وتعددت اللهجات فيه ، وتباينت تباينا كبيرا .

وقرر أن قوما من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر ، ولم يوفقوا لدليل يستدلون به على ما يقولون . سوى ما روى فى الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

وقال : « والحق أن هذه القراءات السبع ليست من الوحى فى قليل أو كثير . وانما هى قراءات مصدرها اللهجات واختلافها .

وليست هذه القراءات بالاحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن ، وانما هى شىء . وهذه الاحرف شىء آخر .

فالاحرف جمع حرف ، والحرف اللغة ، فمعنى انزال القرآن على سبعة أحرف ، انه أنزل على سبع لغات مختلفة فى لفظها ومادتها ، فالاحرف اذن اللغات التى اختلفت فيما بينها لفظا ومادة ، فأما هذه القراءات التى تختلف فى القصر والمد والحركة والسكون والنقل والاثبات ، وفى حركات الاعراب فليست من الاحرف فى شىء . فهذه القراءات - كما يزعم - مظهر من مظاهر اختلاف اللهجات ، وأن تلك القراءات التى أنزل عليها القرآن ، انما هى لغات محى منها ست لغات وبقيت واحدة » .

أى والله هكذا يقول .

وسبب هذا التخلط كله تفسيره معنى الحرف بأنه اللغة ، وهذا وجه من وجوهه ، ومن معانى الحرف كما جاء فى كتب اللغة الوجه قال تعالى(٣) : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » أى وجه

(٣) القاموس المحيط مادة « حرف »

واحد ، وهو أن يعبده على السراء لا الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة على أمره ؛ أى لا يدخل فى الدين متمكنا •

والحقيقة أن أئمة الحديث والقراءات الذين توافروا على معنى الحديث مثل الباقلانى وابن الجوزى وابن حجر والسيوطى وغيرهم قالوا فى هذا وكثر القول الى حد كاد يطمس الحقيقة ، وحتى قال البعض أنه مشكل (٤) •

والحقيقة أن الاستقراء الموضوعى (٥) يؤدى الينا أنه لم ينقل عبر القرون كتاب سماوى بالتواتر القطعى والاسناد الصحيح عن العدول الضابطين طبقة بعد طبقة مثلما وقع القرآن •

فقد تلقاه الصحابة من فم الرسول وبلغوه كما سمعوه دون أن يضيعوا منه كلمة أو يهملوا حرفا أو حركة أو سكونا ، ونقله عنهم التابعون بهذا الوجه من الاحكام والتحرير والاتقان وهكذا الى عصرنا •

وليس لاحد أن يعدل فى نقطة أو أن يضيف اليه حركة ليست منه ، فالقراءات توقيفية ، لا شأن لها باختلاف اللهجات وكأن كل صاحب لهجة أصبح صاحب قراءة •

والقراءات المتواترة صدرت بوجوهها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتداولها الصحابة فى العهد النبوى ، كما قطعت بذلك الاخبار الصحيحة ، والآثار الصريحة والادلة النقلية التى بلغت فى مجموعها مبلغ التواتر ، وكلها مخبر أن القراءات منبعها الوحى الالهى ، ومصدرها النقل المتواتر الصحيح من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ولو كان مصدر القراءات هو اختلاف السنة العرب ولهجاتهم،

---

(٤) مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقانى ص ١٣٠ — ١٣١
(٥) القرآن يتحدى للاستاذ أحمد خلف الله مطبعة السعادة الطبعة الاولى عام ١٣٩٧ هـ و ١٩٧٧ م القاهرة ص ٣٠٥ — ٣٠٨

فنطقت كل قبيلة بما يوافق لهجتها ويلائم لغتها لما تعددت وجوه القراءات عنه صلوات الله وسلامه عليه ، ولما تواتر النقل عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم تلقوا ما نقلناه عنهم من القراءات من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم •

ولو كانت القراءات صادرة عن اختلاف اللهجات لما اختلفت قراءة اللفظ الواحد فى عبارتين ، وفى القرآن الكريم قد يكون للفظ قراءة لا تكون فى آية أخرى لنفس اللفظ •• مثل لفظ «غشاوة» فى الآية رقم ٧ من سورة البقرة وفى الآية رقم ٢٣ من سورة الجاثية وهو مرسوم فى الآيتين «غشوة» ولكن فى سورة الجاثية له قراءتان « الاولى بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها ، والثانية بفتح الغين وسكون الشين مع حذف الالف » غشوة •

وكذلك لفظ الصاعقة فى الآية رقم ٥٥ من سورة البقرة ، والآية رقم ١٥٣ من سورة النساء ، والآية رقم ١٣ من سورة « فصلت » والاية رقم ٤٤ من سورة « الذاريات » ولفظ «صاعقة» والصاعقة مرسوم فى جميع المصاحف العثمانية بدون الالف بعد الصاد فى المواضع الخمسة ، ولكنه فى آية الذاريات قرىء باثبات الالف تارة وبحذفها مع تسكين العين تارة أخرى •

والقراءات تنتهى (٦) فى نهايتها الى أنها من ترتيل القرآن الذى تفضل الله سبحانه وتعالى فقال : « ورتلناه ترتيلا » فالقراءات هى الاصوات التى أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مدها وغنها ، واهمازها واهمال همزتها ، وامالتها واقامتها ، وهى سنة متبعة ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه •

فالقراءة التى وعد الله تعالى نبيه عليه السلام هى الترتيل ، وهى تلك القراءة المأثورة عن صحابة رسول الله الذين تلقوها عن النبى •

---

(٦) راجع القرآن المعجزة الكبرى للامام محمد ابو زهرة دار الفكر العربى القاهرة ص ٤٨ — ٤٩ •

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها مع أنها تنتهى جميعا الى المورد العذب والمنهل السائغ • وهو تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم التى تلقاها عن ربه وهو ليس اختلاف تضاد فى المعنى ، أو اختلاف تباين فى الالفاظ بل يكون الاختلاف فى شكل آخر الكلمة أو بنيتها ، أو مد الحروف أو امالتها أو اقامتها •• الى غير ذلك (٧) ••

ولو كان المراد(٨) بالاحرف السبع سبع لغات للزم أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الائمة ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآنا ، وهذا غلط عظيم ••

ولو لم تكن القراءات توقيفية لجاز أن تقرأ كل قبيلة بلهجتها دون أن يكون هناك اعتراض ، فيكون التحريف للقرآن الذى تكفل الله بحفظه •

وقد أنكر (٩) ابن قتيبة وغيره أن يكون المراد بالاحرف السبعة اللغات ، وقالوا : لم ينزل القرآن الا بلغة قريش لقوله تعالي : «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » •

قال ابن قتيبة : "ولا نعرف فى القرآن حرفا واحدا يقرأ على سبعة أوجه وان كان قد اعترض عليه ابن الانبارى •

وقال ابن عبد البر : قد أنكر أهل العلم أن يكون معنى سبعة أحرف سبع لغات ، لأنه لو كان كذلك لم ينكر القوم بعضهم على بعض فى أول الامر ، لان ذلك من لغته التى طبع عليها ، وأيضا فان عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشى ، وقد اختلفت قراءتهما ، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته •

---

(٧) راجع الاتقان ج ١ ص ٨١ •

(٨) راجع الاتقان للسيوطى ج ١ ص ٨١

(٩) راجع البرهان ج ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ طبعة الحلبى القاهرة الطبعة الاولى عام ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م تحقيق الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم •

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن المراد بالاحرف السبعة ليس المراد بها سبع لغات وانما الوجوه ، أو الترتيل ، وأن القراءات توقيفية أخذها الصحابة من رسول الله فى تواتر وتواصل واضطراد .

وبهذا يبطل ما زعمه الدكتور طه حسين فى كل ما زعمه عن القراءات .

ونعود الى آراء الدكتور طه حسين فى « الشعر الجاهلى واللهجات » .

فنراه يتساءل : أسادت لغة قريش ولهجتها فى البلاد وأخضعت العرب لسلطانها فى الشعر والنثر قبل الاسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول : أنها سادت قبيل الاسلام حين عظم شأن قريش، وحين أخذت مكة تستحيل الى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الاجنبية التى كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية ، ولكن سيادة لغة قريش قبيل الاسلام لم تكن شيئا مذكورا ، ولم تتجاوز الحجاز، فلما جاء الاسلام عمت هذه السيادة .

ثم يقول : انه قد اتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قريش .

ثم نراه يناقض نفسه فى ذلك حين يقول : « وقد يكون من التكلف والتحذق أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هى لغة قريش ، وألا يظهر فى العصر الاسلامى الاول ولا فى أيام بنى أمية ولا فى أيام بنى العباسى من ينكر هذا أو يجادل فيه ، رغم ما كان من الشعوبية الاعجمية ، ومن الشعوب الحميرية ، ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ، ثم (١٠) لا يزعم زاعم

(١٠) فى الاصل ص ١٠٥ ثم يزعم زاعم ، والسياق يقتضى ذكر «لا» لانه يتعجب كيف أجمع الجميع اجماعا سكوتيا على أن القرآن نزل بلغة قريش مع ما بينهم من خصومات، فلا يزعم زاعم زعما يناقض ذلك الاجماع

أن هذه اللغة ليست لغة قريش ، وانما هى لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة » •

وبعد أن يعدد الاسر التى كانت سائدة وبيئاتها ، ومنها الكندية فى نجـد ، والقرشية فى مكة ، وبيئة الطائف ، وبيئة العـرب والبيئة اليهودية فى يثرب وما حولها ، بعد هذا كله يتعجب كيف تكون هذه البيئات ، ثم يجتمع لقريش سلطان سياسى واقتصادى ودينى ، مكنها من فرض لغتها على من حولها من أهل البـادية •

ثم يقول : لغة قريش اذن هى هذه اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف ، وانما يعتمد على المنفعة السياسية والدينية والاقتصادية •

ثم تساءل عن أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت؟ فى لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت الى هذا الشكل الذى نـراه فى القرآن •

ولكننا نراه كعادته لا يجيب على هذه التساؤلات التى أثارها، بل خرج منها الى القول : « كل هذه مسائل لا سبيل الى الاجـابة عليها الآن ؟

فنحن لا نعرف أكثر من أن هذه اللغة لغة سامية ، تتصل بهذه اللغات الكثيرة التى كانت شائعة فى هذا القسم من آسيا ، ونحن نـكاد نيأس من الوصول فى يوم من الايام الى تاريخ علمى محقق لهذه اللغة قبل ظهور الاسلام » ؟•

ونقول : اذا لم يكن يعلم ، واذا قرر أنه يكاد ييأس من الوصول فى يوم من الايام الى تاريخ علمى محقق لهذه اللغة قبل ظهـور الاسلام ؟ فلماذا التشكيك فيها ؟ ولماذا الحكم الجزافى ؟ ولـماذا الطعن ؟ ولماذا الاتهام ؟ ولماذا التشكيك ؟ وكل هذا نابع من تناقضه وحرصه على تصور النتيجة وتـكلف المقـدمات بحق أو بغير حق ،

وتعسفها اعتسافا ، على عكس ما يرى المنطق والحق واعتقادات الناس الصحيحة •

بل انه ليعجب ، كيف لا يهاجم العرب ، بل والعجم نـزول القرآن بلغة قريش بعد انحسار موجة الخلافة فى صدر الاسـلام ان لم يستطيعوا مهاجمتها فى عصر الخلافة ؟ كيف لم يهاجمـوها فى عصر الامويين والعباسيين اذا كانوا قد خافوا أن يهاجموها فى عصر الرسول وصحبه ؟ وحتى على الاقل كان يود أن يزعم زاعم أن يهاجم هذه اللغة التى نزل بها القرآن ؟

هكذا كان يود فى تحريض بغيض ؟

والذى يظهر لى أنه لو صح هذا الزعم ، فقام من يزعم أن اللغة التى نزل بها القرآن ليست لغـة قريش ، أو تمـرد على هـذه اللغة لفرح الدكتور طه واستبشر وصفقت نفسـه وأعرست أمانيه •

ولقد تعرض فى الوقت نفسه الى اللهجات فى القبائل العربية فى الادب الجاهلى فى مواضع أخرى غ يرما ذكرنا ، عندما تعـرض لقضية الانتحال ، وأسباب ظهورها وعدم العثور على الشعر الذى يصور لهجات شعراء اليمن وربيعة ، فقد تحدث عن شـعر امرىء القيس وصديقه عمرو بن قميئة وخاله مهلهل ، وجليلة زوج خاله كليب ، وعن عمرو بن كلثوم (١١) والحـارث بن حـلزة ، وطـرفة ابن العبد ، والمتلمس والاعشى ، وكلهم من شعراء ربيعة عدا امرأ القيس فهو يمنى •

اذ أن الدكتور طه يرى أن من أسـباب عدم وثوقه فى نسبة شعر هؤلاء الشعراء اليهم ، هو أنهم قالوه بلغة قريش ، التى تخالف فى وجوه كثيرة لهجتهم الاصلية • أو أنه لم يصور شعرهم لغـة ربيعة وأسلوبها السهل ، الى جانب رفضه للقصص الذى نسب اليهم ،

---

(١١) عمروبن كلثوم من تغلب والحارث من بكر وهما حيان من ربيعة

كالقصص الذى نسب الى امرىء القيس وعمرو بن قميئة وكقتل عمرو بن كلثوم للملك عمرو بن هند ، وكقصة المهلهل مع ليلى ابنته التى هى أم عمرو بن كلثوم عند ولادتها ، ثم اخفاء أمها لها ، كما أنكر القصص الذى روى تدخل عمرو بن هند للاصلاح بين بكر وتغلب ، وأخذه رهائن منهما ، وأن رهائن تغلب أصابها بعض الشر فهلكت أو هلك أكثرها ، فتجنت تغلب على بكر ، وطالبت بدية الهلكى ، فأبت بكر وكادت الحرب تستأنفه بينهما فاحتكم أشرافها الى عمرو بن هند ، وأحس الحارث بن حلزة بميل عمرو بن هند الى تغلب ، فنهض واعتمد قوسه وارتجل معلقته ، وكان به برص حتى أقام عمرو بن هند بينه وبين الحارث ستارا حتى لا يتأثر بعدوى مرضه .

شكك الدكتور طه فى القصة ، وشكك فى ارتجاله الشعر ، فليس فى القصيدة من أمر الارتجال الا شيء واحد هو عيب الاقواء فى بعض أبياتها .

ثم رجح أن قصيدتي عمرو بن كلثوم والحارث منحولتان ، وكل الفرق بين القصيدتين فى رأيه أن الذى نظم قصيدة الحارث كان من هؤلاء الرواة الاقوياء الذين يحسنون تخير اللفظ وتنسيقه ، وأكد على أن هاتين القصيدتين من أثر المنافسة بين بكر وتغلب فى الاسلام ، لا فى الجاهلية .

ولم يبين لنا ما سبب هذه المنافسة ؟ ولا أثرها ؟ ولا ظروف حدوثها فى الاسلام كعهده دائما فى توجيه القضايا ، مع أننا نعتقد أن المنافسة على فرض حدوثها انما كانت فى الجاهلية لا فى الاسلام .

كذلك أنكر الدكتور طه حسين صحيفة المتلمس ، وقصته هو وابن أخته طرفة مع عمرو بن هند ، وجعل هذه القصة أسطورة (١٢) .

---

(١٢) راجع فى الادب الجاهلى ص ٣٢٦

وفى رأيه أن شعر طرفة نفر عن شعر ربيعة السهل ، فكان أقرب الى شعر المضريين فى الاغراب الذى يحتاج الى المعاجم للكشف عن معـــانى مفرداته ، وقرب من الشـــعر الذى يصنعه العلمـــاء باللغة (١٣) .

وأن شعره جمع مع هذه القوة لينا فى غير ضعف ، ثم رجح أن شعر المعلقة صنعه علماء اللغة (١٤) .

أما شعر المتلمس فهو يشبه شعر ربيعة فى السهولة ، ولـــكنه مسف مبتذل ضعيف الصياغة والنظم ، متكلف ظاهر التكلف كما فى سينيته (١٥) .

ثم قرر أن كل ما يضاف الى المتلمس من شعره ، أو أكثره على اقل تقدير مصنوع .

وأنكر القصة التى حدثت بين عمرو بن هند وكل من طرفـــة والمتلمس ، والمسماة بصحيفة المتلمس ، بل انه لا يستبعد أن تكون شخصية المتلمس نفسه قد اخترعت اختراعا (١٦) .

هكذا على طول الخط .

وتعرض للاعشى فذكر أن التردد بين ألقابه وكنيته فيه غرابة ، وذكر أن الاعشى عاش حتى أدرك عصر الاسلام ، وسيطرة لغـــة قريش على الحجـــاز ونجـــد ، فليس هنـــاك مجال للطعن عليه فى لغة شعره .

ولكنه شكك فى كل شىء روى عن الاعشى ، شكك فى أبيه الذى كان يلقب بقتيل الجوع (١٧) ، ثم شكك فيما روى بعـــد ذلك

(١٣) المصدر ص ٢٢٨
(١٤) المصدر السابق ص ٢٢٩
(١٥) المصدر ص ٢٣٠
(١٦) المصدر ص ٢٣١
(١٧) المصدر ص ٢٣٢

من أنه كان صاحب لهو ولذة وشراب ، وأنه كان يأتيه فتيان اليمامة حين يعود من أسفاره فيشربون ويطعمون ، ورأى أن كل هذا مما أضيف الى الاعشى تفسيرا لعدم اسلامه .

وشكك فى وصف الاعشى بأنه كان رفيع المكانة فى قومه مع تكسب بالشعر وتهافته على المال حتى من عامة الناس .

وشكك فى رحلاته ، وفى شعره الذى يصورها ، وفى داليته التى كان قد أعدها ليمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشكك فى كل شعر المديح الـــــذى كان من الاعشى (١٨) ، **وأنه من مظاهر العصبية فى الاسلام .**

ولست أدرى لماذا يلصق كل شك أو طعن بالاسلام ؟

وقرر أن شخصية الاعشى تلتمس فى فنونه الشعرية الاخرى كالغزل ووصف الخمر والصيد .

ثم عاد فطعن فى غزله ، وذكر أن فى غزله لينا شديدا ، أعرفه فى شعر ربيعة (١٩) ، ثم عاد كعادته فرماه بالتكلف والنحل ، وأعمل معول هدمه فى معلقة الاعشى ولاميته الاخرى ، ورماهما بالتفكك وانعدام الوحدة .

لقــد طعن الدكتور طــه حسين فى مدح الاعشى ، وذكر أن العصبية استغلت هذا المدح ، وقـــرر أن الاكثرية مما نســـب الى الاعشى فى هذا الجانب منتحل ، ومن الصعب ومن العسير تمييزه عما قاله حقا .

ولم يبين لنا كيف كان هذا الاستغلال ؟ وهل أدرك فيه شيئا ليدلنا عليه ، تثبيتا لمنهجه الديكارتى ولماذا صعب تمييز المنتحل ؟

---

(١٨) المصدر ص ٢٣٩
(١٩) المصدر ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

واذا كان هذا التمييز صعبا فلماذا رماه بالنحل،وذكر أنمنبينأسباب هذا الانتحال فى رأيه اضطراب الاسلوب بين الجـودة والاتقان ، والضعف والسخف (٢٠) ، وبالطبع لم يبين لنا دليلا واحدا على صحة أحكامه الجزافية •

لقـد قرر أن الاعشى ليس فى شعره مغمز من ناحية اللغـة لكونه أدرك عصر سيطرة اللغة القرشية على الحجاز ونجد ، وتجاوزها ما وراءهما ، فليس هناك مجال للطعن من هذا الجانب فى شعره ، ولهذا راح يلتمس مطاعن غ يراللغة فى فنونه الشعرية ، فشـك فى ألقابه وفى كنيته وفى لقب أبيه وفقره ، وفى مكانة الاعشى فى قومه مع هذا الفقر ؛ ومع تكسبه بالشعر ، وفى انصراف شـباب اليمامة اليه عند عودته من أسفاره للهو والطعام ، مع فقره واعترافه فى قصيدته « ان محلا وان مرتحلا » بهذا الفقر •

وبدل أن يفسر لنا ظاهـــرة الاسراف التى لحقت الاعشى ، وتفسيرها سهل ، خاصة بعد أن أفعمته أسفاره وأمداحه بالمـــال والثراء ، فأراد أن يقتص من الفقر ، وأن ينسى ما كان من أمره فى الماضى ، ويجعل الناس ينسون حاله •

كان « الاعشى » (٢١) ــ كما يبدو ــ متلافا لا يبخل علىالخمر بشىء ، واليه تنسب هذه الابيات التى يقول فيها : ان الخمـــر والنساء والاسراف فى فاخر الطعام قد ذهبت بماله •

ان الاحامـــرة الثـــــلاثة أهلـــكت
مالى • وكنـــت بهن قـــدما مولعـــا
الخمـــــر واللحـــم السـمين مع الطلى
بالزعفـــــران ، ولا أزال مردعـــــا

وهو شديد الولع بها ، لايكاد يطيق مفارقتها فى حالة فقـره

---

(٢٠) المصدر ص ٢٤١

(٢١) راجع ديوان الاعشى ص٢٢ ، ٢٣ تحقيق الدكتور محمد محمد حسين طبـع مؤسسة الاهرام .

وغناه ، ويشربها فى الحل والترحال ، وقد يدأب على شربها فى الريف ليالى وأياما ، وينزل على حكم الخامر حين يغالى فى ثمنها ، ولكن المساومة قد تنتهى الى الشجار •

وقد تنوعت مجالسه التى وصفها فى شعره ، فهو يشرب الخمر فى بيئات يغمرها الترف حين يجد المال ، وقد يستعيض عن هذه الدور المترفة التى تكلف الشارب باهظ النفقات بحوانيت أخرى أقل ترفا حين يعوزه المال فاذا لم يجد الاعشى من المال ما يفى بهذا أو ذاك استعاض عن الحانات بالريف يقيم فيه دائما على الخمر حتى يطول انتظار المترقبين لعودته » •

« وكان الاعشى مع ذلك شديد التبذير لا يبخل على صحبه ورفاقه من الفتيان ، يجتمعون اليه فى منزله ، فيأكلون ويشربون الخمر ، وقد بلغ من وفائهم له بعد موته أنهم كانوا ينادمونه قبره ، فيسقونه الخمر ميتا ، كما كان يسقيهم اياها حيا » (٢٢) •

كانت كل هذه الخصال خليقة أن تجعل الاعشى فى حاجة الى المال ، فراح يطوف بلاد العرب بين الشام والعراق واليمن ، قاصدا الملوك والاشراف يمدحهم وينال عطاءهم ، ولم يكن يجتمع اليه قدر من المال حتى يستنزفه فى لذته ولذة من يجتمع اليه من صحبه ورفاقه ، ثم يعاود الرحلة فى سبيل الحصول على مال جديد ، ينفقه فى لذة جديدة ، وأسرف الاعشى فى الترحال وابتذل نفسه فى السؤال حتى اعتبره مؤرخو الادب أول من سأل بشعره (٢٣) •

وهو يصرح بذلك فى مدحه قيس بن من يكرب يقول (٢٤) :

وتبئت قيسا ولم أبله
كما زعموا خير أهل اليمن

---

(٢٢) راجع الاغانى جـ ٩ ـ ١٢٧ وديوان الاعشى ص ٢٥
(٢٣) راجع طبقات الشعراء ص ٣٠ دار الباز مكة المكرمة وديوان الاعشى ص ٢٥
(٢٤) الديوان القصيدة رقم ٢ ص ٦١

فجئتــك مرتــاد .. ما خبــروا
ولــولا الــذى خبــروا لم تـــرن
فــلا تحــرقن نـداك الجــزيل
فــانى امــرؤ قبلــكم لــم أهــن

وقال (٢٥) معترفا بحرصــه على جمع المال ، فى غــير غضاضة :

وقــد طفــت للمــال آفاقــه
عمــان فحمص فــأورشــليم
أتيــت النجــاشى فى أرضــه
وأرض النبيــط وأرض العجــم

وكما شكك الدكتور طه حسين فى مدح الاعشى مع تكسبه ، ثم رمى غزله بالضعف والاضطراب والضعف .

وكما شكك فى شعر شعراء ربيعة عدا الاعشى من ناحية اللغة شــكك فيه من ناحية القصص ، مع أن ســائر الشعر الجاهلى يغلب عليه القصص .

يقول الدكتور محمد محمد حسين(٢٦) فى تقديمه لديوان الاعشى: « وشعر الاعشى كسائر الشعر الجاهلى ، يغلب عليه اللون القصصى الحماسى ، وأقصد بذلك أن الشاعر فيه أدنى الى القصاص الذى يسجل أحداث العصر وقيمه » .

فالشعر الجاهلى يغلب عليه اللون القصصى ، وقد ذكر صحيفة المتلمس وقصته هو وطرفة كثير من أرخوا للادب مثل أبى الفرج فى أغانيه (٢٧) والزمخشرى (٢٨) فى كتابه « الفائق فى غــريب

---

(٢٥) الديوان القصيدة رقم ٤ ص ٧٧ وراجع مقدمة الديوان ص٢٥
(٢٦) ص ٢٧
(٢٧) جـ ٢١ ص ١٢٦ طبعــة ســاسى
(٢٨) جـ ٢ ص ١٣

الحديث » وابن السيد (٢٩) البطليوسى فى كتابه « الاقتضاب فى شرح الكتاب » والشاعر المحقق (٣٠) حسن كامل الصيرفى فى تحقيقه لديوان المتلمس .

وممن شكك فيها الدكتور (٣١) نجيب محمد البهبيتى فى كتابه « تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى » ولكننا لم نسمع من يقول أن شخصية المتلمس شخصية أسطورية لم يثبت وجودها كما قال الدكتور طه حسين .

لقد ركز الدكتور طه حسين فى رميه بانتحال شعر ربيعة وغيرهم على اللغة باعتبارها مبررا أو سببا للانتحال ، ولهذا سنفرد بحثا خاصا لها لنبحث فيه اللغة الادبية فى العصر الجاهلى .

---

(٢٩) ص ١٠٤
(٣٠) المقدمة ص ٢٣ وراجع أيضا ص ٥٧ من نفس المصدر حتى ص ٦٨ من ديوان المتلمس
(٣١) ص ١٩٧

الفصل الثـــانى

اللغــة الادبيـــة

نحن مضطرون فى بداية الحديث عن هذا الموضوع الى تقديم بعض الاسئلة •

أولا :

ما الحاجة الى اللغـــة الادبيـــة ؟

ثانيـــا :

اللغة الادبيـــة وكيف تكونت ؟

ثالثـــا :

لماذا لغــــة قريش ؟

رابعـــا :

لماذا أنـــزل القـــرآن بها ؟

خامسا :

هل فرض على العرب استخدام لغة القرآن ؟

أولا : ما الحاجة الى اللغة الادبية ؟

وقبل أن نجيب على هذه الاسئلة نقول : لاحظنا أن اللغـــة الادبية جدت دواع سياسية وقومية الى ظهورها ، منها ما ذكرناه سابقا من أن العرب كانوا على وعى بمـــا يتهـــددهم من تربص الفرس والروم بهم •

كما جدت دواع لغوية اقتضت أن تكون لهم لغة أدبية تحمل تعبيرهم الشعرى الذى هو ديوانهم وسجل مفاخرهم واعتـزازهم، تكون هذه اللغة لكافة العرب حتى يتابعوا هذا السجل الفنى الرائع الذى يعشقون أن يروا أنفسهم فيه ، وتكون كل القبائل مشتركة فى روايته واذاعته ، وأن يكون لكل قبيلة قدر من الاهتمـام بهذا الرصيد الذى يمثل كل العرب ، فتقرأ كل القبائل لكل الشـعراء بهذه اللغة الادبية وتحفظ وتتابع فتتسع دائرتها الثقافية واللغوية ويزداد تأثرها واحاطتها بـكل عمل شعرى رائع فى الجزيرة كلها عن طريق هذه اللغة فيتكون النسيج الثقافى واللغـوى ، ويسلس اللسـان وتنضـج الملـكات اللغوية ، وتتفتح المواهب الشعرية على هذا الالهام الشعرى •

كما أن هذه القبائل ستقرأ دون شك شعر شعرائها الـذين يمثلونها فى هذا الاطار اللغوى ، وهم الشعراء العموميون ، فيأنسون به وتزداد ثقتهم وتقوى صداقتهم للغة الادبية الموحدة ، ويسـهل التقارب وتبدأ عمليات الامتزاج ، وشيئا فشيئا تكون الوحـدة العربية لعرب الجزيرة فى انتظـار القطب الذى يجمع هذا الشتات فى بؤرة الامتزاج الحقيقى ، والتكثيف الشعورى ، ويرتفع بالاعتزاز القبلى الى الاعتزاز القومى الانسانى •

كما أن هجرات اليمنيين الى كل أنحاء الجـزيرة ، وكذلك العدنانيون أحدث نشاطا هائلا فى عملية التقريب اللغوى والشعورى والنفسى ، فهناك هجرات للعدنانيين والقحطانيين من غامد وزهران الى الباحة ومكة والمدينة وشمال الجزيرة وشرقها ووسطها ، وبعد هلاك أصحاب الرس ومن قبلهم طسم وجديس ضاقت مكة بأهلها فهاجر منها ثقيف وهوازن الى جبال السراة بالطائف وهاجر غطفان وتميم وقيس عيلان الى نجد طلبا للماء •

أما تميم فقد استقرت بالكوفة والبصرة ، وكان لهم فضـل تقعيد النحو والصرف لما نزلوا بهاتين المدينتين • وكان لهم فضل تزويد « مجنة » و « ذى المجاز » بالادب والادباء ••

كانت اللهجات مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف لا يخرجهـا عن أن تعد لسانا واحدا ، وأن يكون هذا اللسان ذا قوانين تجرى فى هذه اللهجات بأسرها .

وقـد تختلف اللهجات فى معانى بعض الالفاظ ، أو فى ترتيب حروفها واعرابها أو صفات نطقها كالتفخيم والامالة والقلب ، أو فى الزيادة والنقص ، وقـد تختلف فى اعمـال بعض الحروف وتأثيرها .

ولقد حفظت كتب اللغة ذلك كله ووعتـه ، ولكن هناك اطارا عاما كانوا يسلكونه ويلتزمون به ، وهـو اطار اللغة العربية .

يقول ابن فارس (١) بعد أن تعرض لذكر وجوه الاختـلاف فى لهجات العرب : « وكل هذه مسماة منسوبة لاصحابها، .. وهى وان كانت لغة قوم دون قوم ، فانها لما انتشرت تعـاورها كل » .

وقال ابن جنى (٢) : « اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء .

وقال أبو حيان (٣) فى شرح التسهيل : كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه » (٤) .

يقول البستانى (٥) فى دائرة المعارف : « وكان أشد الخلاف بين أهل نجد والحجاز ، وبين أهل اليمن الحميريين ، وكانوا كلهم مولعين بقول الشعر وأرادوا أن تبقى الاتصالية فى الاخبار والاحوال بين قبائلهم على اختلافها ، ولم يكن لهم كتب يدونون فيها الوقائع

(١) راجع الصاحبى ص ٢٢
(٢) الخصائص
(٣) شرح التسهيل
(٤) راجع نقض الشعر الجاهلى ص ٩٩
(٥) ج ١ مادة « شـعر »

بحيث يفهمها الجميع ، فأجمع الشعراء على أن ينظموا شعرهم بألفاظ فصيحة مشهورة شائعة بين كل القبائل ، وبذلك اشتركت ألفاظ اللغة العربية ، وشاعت بمنطوق واحد ، وتقررت من الجميع» وكان عامل الزمن وعامل التطور كفيلين بتطورها .

ثانيا — كيف تكونت اللغة الادبية ؟

يقول « سيديو » (٦) فى خلاصة تاريخ العرب : « كان بين الاسماعيلية والقحطانية تنافس المعاصرة المؤدى الى اختلاف الكلمة، ثم مالوا الى الوحدة السياسية ، ورأوا الاشعار وسيلة لانتشار فخارهم فى جزيرة العرب ، وسبيلا لوصول أعمالهم العجيبة ، ومآثرهم الى ذراريهم فأحيوها وعكفوا عليها ، لكن كلام مؤلفى نجد والحجاز لم يفهمه مؤلفو اليمن بل لم تتفق قبائل بلد واحد على لغة واحدة ، الا أن شعراء العرب الموكول اليهم اختراع لغة أعم من تلك اللغات رويت أشعارهم فى كل جهة ، فتعينت الالفاظ المعدة للدلالة على الافكار والتصورات ، فان العشائر المستعملة للعبارات المختلفة للدلالة على فكرة واحدة متى سمعت قول الشاعر اختارته فى ذلك الموضوع ، وفهمت مع ذلك فوائد التمدن ، فلذا قابلت الامة العربية هذه الابتكارات العقلية بالاعتبار ، وأنشأوا فى « عكاظ » و « المجنة » و « ذى المجاز » للمفاخرة بالشعر مجالس حافلة ، خالية من التحكم على النفوس .

ويذكر الدكتور « تشارلس ليال » (٧) فى تقديمه للمفضليات للضبى بعد أن رد على « مرجليوث » يذكر أنه كان يوجد خلاف بين اللهجات فى كل قبائل الجزيرة ، ولكن فرق اللهجات فى لغة الشعر كان قليلا ، الا فى أشعار طيىء .

ويرى أن مجموعة لغات الشعر الجاهلى بدأت تتدرج فى صور من المترادفات الكثيرة ، وفى عملية امتصاص تدريجى ، حتى نشأت

---

(٦) ص ٣٦ وراجع نقض الشعر الجاهلى ص ١٠١ والنقل عنه
(٧) راجع نقض الشعر ص ١٠١ ، ١٠٢ بتصرف

لغة شعرية هضمت لهجات القبائل كلها ، وكان من الطبيعى أن يستغرق هذا زمنا •

ويعجب الدكتور « تشارلس » لهمة الشعراء الذين أشتغلوا بوضع هذه اللغة الشعرية وأوزانها وتقاليدها الفنية ، ويشيد بعزمهم ونشاطهم ، ويرى أن الاسواق الادبية قد رقت بالشعر واسلوبه وأحكمت قواعده •

وتعجب دائرة المعارف الاسلامية (٨) الانجليزية أيضا بالشعراء الذين وضعوا لغة الشعر ، وأن ذلك ساعد على انتشار شعرهم فى القبائل كلها ، وتذكر الدائرة أن هناك طريقين أمام واضعى هذه اللغة الادبية . فهم اما أن يكونوا قد عمدوا الى استعمال كلمات وجدت فى جميع لهجا تالقبائل بسبب العلاقات والصلات التجارية والدينية والرعوية ، فأخذوها وهذبوها واستعملوها استعمالا فنيا راقيا ، واما أنهم آختاروا بعض اللهجات خاصة ، فجعلوا هذه اللهجة لغة الشعر بالتدريج •

وأيا ما كان ، فقد كان لجميع شمالى الجزيرة العربية فى أوائل القرن الخامس الميلادى لغة واحدة ، وهى لغة الشعر ، ويظهر أنها استقت من لهجات كثيرة •

وأن هذه اللغة الادبية وحدت لهجات القبائل الشمالية ، كما يذهب الى ذلك « ادور براونلشر » (٩) ولم يمنع هذا أن ينظم أناس من القحطانيين أشعارا بهذه اللغة •

ويعلل لاختلاف اللغة القحطانية عن اللغة العدنانية بأن لغة الجنوب ليست بلهجة عربية ، بل هى لهجة سامية ، بينما اللهجات العربية الشمالية أمكن توحيدها فى لغة راقية ••

وبعد هذا العرض نتساءل • هل فرضت اللغة الادبية على الشعراء فى العصر الجاهلى ؟

---

(٨) راجع نقض الشعر الجاهلى ص ١٠١ ، ١٠٢ بتصرف
(٩) المصدر ص ١٠٢

وهل فرض عليهم أن يذهبوا بها فى شعرهم الى « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » ؟ .

لقد كانت اللغة الادبية ونشاط الشعراء فى وضع قوانينها وأوزانها خالية من التحكم فى النفوس .

ولقد بذل جمهور الشعراء جهدا خارقا فى سبيل شيوع هذه اللغة ، واستقرارها وثباتها فى لسان الشعراء والادباء فى كل الجزيرة ، وكان أمامهم أحد طريقين ، فاما أنهم أخذوا قاموسهم اللغوى من كل اللهجات السائدة ، فهذبوا الالفاظ المأخوذة وجعلوها مأنوسة باستعمالهم الشعرى لها ، واما أنهم اصطفوا لهجة أو بعض اللهجات خاصة وجعلوها بالتدريج لغة الشعر ، ولم يمنع هذا أن ينظم بض القحطانيين أشعارا بهذه اللغة الادبية .

والاختلاف بين اللغة القحطانية واللغة العدنانية مرده الى أن القحطانية ليست لهجة عربية ، وانما هى لهجة سامية « وأنها شىء واللغة العربية الفصحى شىء آخر ، وأن هذه اللغة الحميرية أقرب الى اللغة الحبشية القديمة منها الى اللغة العربية ، متأثرة بنحو هذه اللغة وصرفها أكثر من تأثرها بنحو عربيتنا الفصحى وصرفها» كما يقول الدكتور طه حسين (١٠) نفسه .

فاللغة العدنانية أمكن توحيدها فى الشمال .

» هذا ما كان (١١) من أمر اللغة ونموها وتطورها ، وقد رأينا كيف تكونت على مر القرون ، وكيف عمد العرب الى تكوين لهجة أدبية ينطق بها الشعراء والخطباء والحكماء .

وكيف عمت هذه اللهجة جزيرة العرب ، وارتضتها القبائل

---

(١٠) فى الادب الجاهلى ص ٨٤

(١١) النابغة الذبيانى لعمر الدسوقى ص ٣٢ ــ ٣٥ ط ٣ دار الفكر العربى القاهرة عام ١٩٥٤

المختلفة ، وان حافظت كل قبيلة على لهجة خاصة بها ، تبعا للبيئة التى تعيش فيها ، واختلاف طرق الوضع والارتجال لديها ، وكيف كانت هذه اللغة خالية من الهنوات التى اشتهرت بها بعض القبائل ، وكيف اتصلت بأسباب الحضارة ، حتى صارت كاملة تامة ، أهـلا لان ينزل بها القرآن الكريم ، وهو ما هو فى سعة معانيه وغزارتها وتنوعها ، وجمال أسلوبه وقوة أدائه ، وبذلك كانت معجزة الرسول عليه السلام .

فهل ثمة مجال لانكار وجود مثل هذه اللغة المشتركة كما أراد بعضهم أن يقول ؟

وقد بقى أثر اختلاف اللهجات حتى بعد نزول القرآن ، يشهد له اختلاف القراءات الذى كان على « حسب (١٢) اختلاف العرب فى لغاتهم ولهجاتهم ، وقد روى عن ابن عباس قال : نزل القرآن على سبعة أحرف ... » فقراءات القرآن يمكن دراستها من هذه الناحية ، ناحية أنها تمثل بعض لغات قبائل العرب ولهجاتها ..

والحق (١٣) أن هذا الوجه أهم الاوجه السبعة ، لانه يبرز الحكمة الكبرى من انزال القرآن على سبعة أحرف ، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الامة التى تعددت قبائلها ، فاختلفت بذلك لهجاتها ، وتباين أداؤها لبعض الالفاظ فكان لابد أن تراعى لهجاتها وطريقة نطقها .

أما لغاتها نفسها فلا موجب لمراعاتها ، لان القرآن اصطفى ما شاء ، بعد أن صهره فى لغة قريش التى تمثلت فيها لغات العرب قاطبة ، لا لغات قبائل معينة .

ذلك بأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها

---

(١٢) راجع ضحى الاسلام لاحمد امين ج ٢ ص ٢٤٤
(١٣) راجع مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص١١٣

لغتهم الادبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها ، فصدق على لهجة قريش ما يصدق على اللغات جميعا من قوانين التأثر والتأثير •

وهى قوانين لا تكاد تختص اذا درسنا اللغة على أنها ظاهرة انسانية •

واستئناسا بهذا وجدنا البخارى يعقد فى صحيحه بابا لنزول القرآن بلسان قريش والعرب قرآنا عربيا بلسان عربى مبين (١٤)•

وفى هذا كله رد على الدكتور طه حسين حين ذهب الى أن (١٥) القحطانيين عرب منذ خلقهم الله ، فطروا على العربية ، فهم العرب البائدة ، وعلى أن العدنانيين قد اكتسبوا العربية اكتسابا ، وأن الادب الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية ، وأن القراءات السبع أو الاحرف السبع التى نزل بها القرآن الا تعنى الاشارة الى اختلاف لهجات القبائل العربية •

ثالثا : لماذا لغة قريش ؟

ذكرنا أن اللغة الادبية التى قام الشعراء باصطفائها والنظم عليها ووضع قوانين الشعر وتقاليده لها قد أصبحت أداة الاعمال الادبية عامة والشعر خاصة ولسانا أدبيا لجميع القبائل ، كانت هذه اللغة بعد ثباتها وصفائها وتمكنها من اللسان الادبى بدءا حقيقيا لظهور كيان أدبى موحد للعرب جميعا ، وارهاصا بنزول القرآن الكريم •

وذكرنا أن هذه اللغة فى سبيل ظهورها قد اتخذت أحد طريقين اما الاستقاء من جميع اللهجات القبلية ثم نموها بالتدريج وشيوعها، أو الاعتماد على لهجة معينة ثم جعلها بالتدريج أيضا لغة للشعر والأدب •

---

(١٤) جـ ٦ ــ ص ١٨٢ باب فضائل القرآن صحيح البخارى
(١٥) راجع فى الادب الجاهلى ص ٨٠

ولقد استفادت اللهجات كلها من هذه اللغة الادبية ، حتى لغة قريش ، يقول على رضى الله عنه : «نزل القرآن على قريش ولسنا أهل نبر » أى همز •

وعلى أى حال فلم تكن لغات هذه القبائل على درجة واحدة من الفصاحة وسلامة اللغة • نظرا الى قرب هذه القبائل أو بعدها عن العجمة ، أو تلوثها بالاحتلال ، أو أهل الديانات أو كونها فى مركز حضارى ، أو بقائها فى طهارة الصحراء •

وقد لاحظ العلماء ذلك كله عند تدوينهم للغة ، فقد استبعدوا لغة حمير لانها تكاد تكون لغة وحدها مغايرة للغة مضر ، وذلك لاختلاطهم بالحبشة واليهود والفرس ، ولم يأخذوها عن القبائل التى كانت تجاوز مصر والشام وفارس والهند مثل جذام ولخم وغسان وقضاعة وتغلب ولا عن القبائل التى كانت تحاذى الفرس فى الشرق ، أو تتعامل بالتجارة مع أهل اليمن •

وقد اعتبر العلماء لغة قريش أفصح اللهجات العربية واعتبروا قريشا أفصح العرب لسانا ، وأصفاهم لغة •

وقد يعترض على ذلك بكون قريش أيضا كانوا من أهل التجارة والحضارة ، وهذا من عيوب لغتها ، ولانها كانت تذهب بأولادها الى بنى سعد حتى تضمن لهم سلامة لغتهم كما حدث بالنسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

«والذى يظهر لى (١٦) أن سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها أمر غير الفصاحة وأن سلامة اللغة كانت فى بنى سعد خيرا مما هى فى قريش ، لانهم أهل وبر وأبعد عن التجارة والاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش ، فهم أهل مدر •

فمن ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم

---

(١٦) راجع ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٤٧ وراجع المزهر للسيوطى ج ١ ص ١٠٤

ممن خالط الامم الاخرى ، ولكنهم من ناحية الفصاحة فصحاء ، وأعنى بالفصاحة التعبير عمـا فى نفوسهم ، آلى جانب ما اشـتهروا به من رقـة ألسنتهم وحسن اختيار ألفاظهم ، وكانوا أدق تعبيرا •

يقول الفارابى : كانت قريش أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ وأسلسها عند النطق وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما فى النفس •

فاذا امتازت قريش بالفصاحة ، فقد آمتازت بنو سعد بسلامة اللغة ، وقد جمع الرسول الامرين فقال : أنا أفصح العـرب بيـد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر » ••

هذه اللغة الادبية التى أصبحت لغة العرب ، والتى نزل بها القرآن فتوجها ووحد وشائجها ومهد سلائقها ، وفهمته كل القبائل فى الجزيرة كلها •

هذه اللغة اعتمدت على لغة قريش فى المبدأ • حين قامت هذه اللغـة ، أم أخذت تحوى لغات القبائل وتستوعبها فتأخـذ ما خف على السمع ، واستساغه الذوق ، وما لطف على اللسان ، وقـد أصبحت هذه اللغة لسان قريش ، كما أصبحت لسان القبائل جميعا ، كندة فيها كربيعة ، وقيس كتميم وكلها كقريش •

وانما سميت اللغة الادبية لغة قريش ، لانها اعتمدت عليهـا فى المبدأ ، ولان لغة قريش أفصح •

يقول ابن خلدون (١٧) : « ولهذا كانت لغة قريش أفصـح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسـد •

وأمـا من بعـد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسـان واياد

---

(١٧) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٥ طبعة دار الباز بمكة المكرمة

وقضاعة وعرب اليمن المجاورين للامم الفارسية والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد ، عند أهل الصناعة العربية .» ..

وقد قال معاوية يوما (١٨) لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير ، قال : ومن هم ؟ قال : قريش ..

كانت لغة قريش أفصح اللغات ، ولقد ساعدها على هذا التفوق عوامل كثيرة ، ومن بين هذه العوامل موقعها الجغرافى ، فهو فى ملتقى طرق القوافل التجارية ، وموقع أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وهى أسواق أدبية تقام كل عام فى موسم الحج ، اذ كانت القبائل تفد على مكة فى هذا الموسم ، وتعرض فيها مصنوعات قرائحهم الادبية ، وتتخذ منها معارض للتفوق والتبريز ونوادى للتفاخر بالاحساب والانساب ، أو المفاخرات والمنافرات وهذا كله يضع لغات العرب بين يدى قريش فتلتقط منها ما يستخفه السمع ويتسوغه الذوق .

ولقد أفادت هذه المحافل الادبية لغة قريش ثراء وفصاحة ، وميزتها على سائر لغات العرب ، كذلك كان قومها يألفون الرحلتين فى التجارة وهذا سبب لثراء اللغة ..

ومن بين العوامل التى ساعدت على فصاحة لغة قريش زعامتها الدينية ، فبيت الله الحرام يحفل بالحجاج والزائرين من مختلف القبائل ، وكل قبيلة تبرز معرضها اللغوى عند وجودها فى مجتمع بعيد عنها ، فتتأنق أو تحاول التأنق فى لغتها وتركيبها ، وتبدى من جمال لغتها ما تبديه ، وقريش تختار من هذه المعارض

---

(١٨) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٢٩٢ دار صعب بيروت

الكلامية واللغوية ما يفيد لغتها ويميزها ، ولم تكن زعامة قريش في الناحية الدينية فحسب ، بل كانت لها الزعامة على العرب في الناحية الناحية المدنية أيضا .

وزعامات قريش كان لها في نفوس العرب جميعا تقدير خاص . الى غير ذلك من الاسباب وهذا ما جعلها تتقدم على سائر اللغات وكانت تجمعها أسواقها لانهم يستمعون حديث المناطق المختلفة وتدبروا المعاني الجيدة ونقلوا الالفاظ المستحدثة ، وكذلك اختلطوا بالامم الاخرى وكانوا على صلة بالكتب المنزلة ، يضاف الى ذلك موقع مكة ، وكل هذا له أثره البالغ في وحدة اللغة ونهوضها .

واذا قامت في قلب الجزيرة العربية لغة استكملت عناصر نجاحها ، فملكت أعنة الفصاحة ، وكان للناطقين بها كل مظاهر السؤدد والحفاوة والاعزاز والتقدير ، فمن سنة التقليد أن يقلد الأدنى من هو أفضل منه ، ومقتضى هذا كان لابد أن تنزل القبائل التي تحاكي لهجة قريش ومفرداتها ونهج الكلام على منوالها ، وأول من سبق الى هذا الشأن ذوو القرائح والمواهب والمبدعون من الشعراء والخطباء والحكماء ، فتقارب الشعراء في اللهجة انما جاء من جهة محاكاتهم بشعرهم أفصح لهجة وأشهرها بين القبائل ، وهي لغة قريش (١٩) .

« فان الحجازى (٢٠) قد يتكلم بغير لغته وغيره يتكلم بلغته واذا جاز للحجازى أن يتكلم باللغة التميمية ، جاز للتميمى أن يتكلم باللغة الحجازية ، بل التميمى بذلك أولى ، لأن الحجازى أفصح ، والقياس غير الافصح لموافقة الافصح أكثر وقوعا من العكس » .

---

(١٩) راجع في هذا خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٣٤ وراجع نقض الشعر ص ٣٣

(٢٠) راجع شرح الخلاصة لأبى اسحاق الشاطبى ونقض الشعر ص ٩٢ — ٩٣ ومنه كان هذا النص .

أسواق العرب (٢١) :

وكان العرب يقيمون هذه الاسواق في أشهر السنة للبيع والتسويق ، وينتقلون من بعضها الى بعض ، « فتدعوهم طبيعة الاجتماع الى المعارضة بالقول والمفاوضة بالرأى ، والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد وشرف الاصل ».

فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق ، اذ كان الشاعر أو الخطيب انما يتوخى الالفاظ العامة والاساليب الشائعة قصدا الى افهام سامعيه ، وطمعا فى تكثير مشايعيه ، والرواة من ورائه يطيرون شعره بين القبائل ، وينشرونه فى الانحاء ، فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته .

وأشهر هذه الاسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وأولاهن أشهر فضلا ، وأقوى أثرا فى تهذيب اللغة ، كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر الى العشرين منه ، فتفد اليها الزعماء وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ، ومفاداة الاسرى ، وأداء الحج ، وكان كل شريف انما يحضر سوق ناحيته الا « عكاظ » فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل فج ، لانها متوجههم الى الحج ، ولانها تقام فى الاشهر الحرم ، وذلك لا ريب سر قوتها وسبب شهرتها ، وكان مرجعهم فى الفصل بينهم الى محكمين ، اتفقوا عليهم وخضعوا لهم ، فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه .

رابعا : لماذا نزل القرآن بها :

القرآن الكريم معجزة الاسلام الخالدة التى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين ، على رسول عربى مبين ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسل الا بلسان قومه ليبين لهم (١) » . (ابراهيم — ٤) وقال تعالى : « فانما يسرناه بلسانك

---

(٢١) راجع تاريخ الادب العربى للاستاذ احمد حسن الزيات ص ١٥ ط ٢٦ دار الثقافة بيروت

لعلهم يتذكرون » (الدخان ــ ٥٨) « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (القمر ــ ٢٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من الانبياء نبى الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » أخرجه البخارى •

وقال سبحانه : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » (فصلت ــ ٤٤) •

وقال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » (النحل ١٠١ ، ١٠٢) •

وقال تعالى : « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » (الشعراء ــ ١٩٥) •

وقال تعالى : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف ــ ٢) •

وقال تعالى : « قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » (الزمر ــ ٢٨) •

وقال تعالى : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا » (الشورى ــ ٧) •

وقال تعالى : « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » (الاحقاف ــ ١٢) •

ونلاحظ من هذا العرض أن القرآن أداة البيان للعرب ولابد أن يكون بلسانهم حتى يتأتى البيان ويتحقق ، ولابد أن يكون بأصفى لسان وأفصح لغة حتى يكون التيسير للذكر ، ولابد أن يكون على

أفصح لسان حتى يصل الى كل وجدان كل سامع وقلبه ، ويحدث التأثير المطلوب ، ولابد أن يكون الرسول أكثر الرسل تابعا من أن يصل قوله الى القلوب ، ويجد فى نفوس الناس القبول ، ويحدث فى وجداناتهم الاثر البليغ ، ولابد لكى يتحقق ذلك كله م نأن يكون على أجمل وجه وأحسن بيان وأفصح لسان .

ولقد رد القرآن بصورة حاسمة قاطعة ما رددته قريش عندما اتهمت رسول الله بقولهم : « انما يعلمه بشر » يشير الى بعض العجم . فقال القرآن لهم فى انكار « لسان الذين يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ..

ونلاحظ أن الآيات السابقة التى تحدثت عن القرآن وصفته بأنه عربى اللسان مبين ، غير ذى عوج ، أى هو قرآن (٢٢) نزل بلسا نعربى مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وانما جعله الله كذلك حتى يحدث أثره من التقوى والتذكر والعقل .

كما نلاحظ أن عبارة « لسان عربى مبين » قد وردت مرفوعة ومنصوبة ومجرورة اشارة الى جميع حالات الاعراب الموجودة التى يحتملها التعبير ، وهذا يفيد أن القرآن فى كل أحواله عربى .

ولقد كانت اللغة الادبية التى اعتمدت على لغة قريش ، والتى كانت اللسان الادبى للعرب جميعا ، اللغة المرشحة لنزول القرآن بها للاسباب التى ذكرناها سابقا ، والتى كان من بينها أن هذه اللغة أفصح اللغات ، وأنها كانت باختيار واتفاق من العرب كلهم دون تدخل أو فرض خرجى، ولانها كانت اللسان الادبى الفصيح للعرب كلهم ، ولانها اعتمدت على لغة قريش وهى أفصح العرب ، ولانها لغة قريش التى منها وفى شرفها السامى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(٢٢) راجع مختصر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الزمر

بل أكاد أعتقد أن هذا التقارب اللغوى الذى حدث بين القبائل العربية كلها ، كان ارهاصا بنزول القرآن ، وكان نزول القرآن بهذه اللغة الفصيحة تتويجا لجهد الادباء العرب ، وصولا بالقرآن الى كل القبائل بلسان عربى مبين .

وان كان نزول القرآن بلغة قريش لم يمنع نزول بعض آياته، أو بعض ألفاظه بلغات أخرى غير اللغة القرشية ، مما أحصاه السيوطى فى « الاتقان » (٢٣) والزركشى فى « البرهان » .

هذا وقد ثبت فى الصحيحين (٢٤) من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، ثم لم أزل أستزيده فيزيدنى ، حتى انتهى الى سبعة أحرف » ..

قال ابن حبان (٢٥) : أقرب الاقوال الى الصحة أن المراد به سبع لغات ، ثم قال : والسر فى انزاله على سبع لغات تسهيله على الناس لقوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » فلو كان تعالى أنزله على حرف واحد لانعكس المقصود ..

ولقد بقى أثر بعض لهجات القبائل واضحا فى لغة القرآن ، وقد أثبتها السيوطى فى الاتقان ، والزركشى فى البرهان وغيرهما .

خامسا : هل فرض على العرب استخدام لغة القرآن :

وهذا مما أثاره الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، حيث أنكر أن يكون للاسلام أولوية فى بلاد العرب (٢٦) ، ثم تطرق من هذا المفهوم الذى ينكر دين ابراهيم واسماعيل ، وينكر حتى وجودهما

---

(٢٣) راجع الاتقان والنوع الثامن والثلاثين فيما وقع لغير لغة الحجاز ج ١ ص ١٣٥ وما بعدها طبعة الحلبى القاهرة ط ٣ عام ١٣٧٠ هـ وعام ١٩٥١ م

(٢٤) راجع ج ١ ص ٢١١ — ٢٢٧ صحيح البخارى ج ٣ : ٢٢٦ وصحيح مسلم ط ١ — ٥٦١ بسندهما عن عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة

(٢٥) البرهان ج ١ ص ٢٢٦ الحلبى ط ١ عام ١٣٧٦ هـ وعام ١٩٥٧ م

(٢٦) راجع فى الشعر الجاهلى ص ٨٠

التاريخى • تطرق الى القول من منطوق غير سليم الى أن الاســلام فرض لغة القرآن على العرب ، والفرض هنا يعنى اجبارهم بالسيف وهذا محض افتراء كما سبق عرضه باستفاضة •

فلقد كان العرب أباة تغلب عليهم الأنفة وحميــة الجاهلية ، ومن الصعب فرض لغــة عليهم ، فضـــلا عن فرض دين الاسلام عليهم •

لقد نزل القرآن بلغة قريش أو باللغة الادبية التى اصـــطلح عليها العرب جميعا لتكون لســـان الادب والمتأدبين ، والقـــرآن قمة هذا الاسلوب ، فلينزل بـــه ليبلغ الى أقصى مدى فى شعورهم ووجدانهم •

لم يفرض الاسلا ملغته ولم يفرض على العرب دينه ، وانما توج لغة قريش التى أصبحت لغة العرب بأن ينزل بلسانها ، لكونها أكثر اللغات فصاحة وسلامة •

والدكتور طه حسين نفسه يعترف بأن القرآن الكريم كتـــاب عربى ، « لغته هى اللغة الادبية التى كا نيصطنعها الناس فى عصره أى فى العصر الجاهلى » (٢٧) •

---

(٢٧) راجع فى الادب الجاهلى ص ٧١

البـــاب الســـابع

ظاهرة الثقافة العامة فى العصر الجاهلى

وأثرها فى العملية الابداعية

ظاهرة الثقافة العامة فى العصر الجاهلى

وأثرها فى العملية الابداعية

كانت العرب (١) فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك ديوانها •

وذهبت العجم على أن تفيد مآثرها بالبنيان ، فبنوا مثل « كودبيدار وبنى أزدشير » والمدن والحصون والقناطر والجسور•

ثم أن العرب أحبت أن تشارك العجم فى البناء ، وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مأرب ، وقصر شعوب ، والابلق الفرد ، قالوا : تمرد مارد وعز الابلق ، وغير ذلك من البنيان •

وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب •

وفن الشعر (٢) من بين الكلام كان شريفا عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم ومستودع أخبارهم وحكمهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، وهو أصل يرجعون اليه فى الكثير من علومهم وحكمهم ، قال عمر بن الخطاب « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه (٣) » •

وكانت ملكته مستحكمة (٤) فيهم شأن الملكات كلها ، والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض ••

---

(١) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ص ٥٣ — ٥٤ الكتاب اللبنانى طبعة أولى عام ١٩٦٨ م

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠

(٣) طبقات الشعراء ص ١٧ طبعة الباز بمكة

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ وما بعدها

وأول شروطه واحكام صنعته الحفظ م نجنسه ، أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس الملكة ويتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفى فيـــه شعر شاعر من الفحول ..

واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ .

وقد تحدث (٥) ابن خلدون فى مقدمته عن الشعر وخصص له الفصـــول من السادس والاربعين حتى الخمســين ، فتحدث عن صياغته ووجوه تعلمه ومكانته عند العرب وعن كيفية نظمه ، وخــير أوقاته ، كما تحدث عن فنونه وأوزانه وقوافيه وقال : « ان المحصل لهذه القوالب فى الذهن انما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وذكر أن تحصيل الاساليب الشعرية لا يكون الا بحفظ كلام العـــرب نظما ونثرا .

وقد خصص الفصل الثامن والاربعين من مقدمته للحديث عن تحصيل ملكة الشعر ، فذكر أنها تكون بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ» . فلابد من كثرة المحفوظ لمن يروم تعلم اللسان العربى ، وعلى قــدر جــــودة المحفـــوظ وطبقتـــه فى جنســـه وكثرته من قلتـــه تـــكون جودة الملكة ، فمن كان محفوظه أجود تكون ملكته أجود ، وعلى قدر جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال ، ثم اجادة الملكة من بعدهما ، فبارتقاء المحفوظ من طبقته من الكلام ترتقى الملـــكة الحاصلة ، لان الطبع انما ينسج على منوالها ، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها .. والملكات التى تحصل لها انما تحصل على التدريج ، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ، وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون الملكة فى نفسها .

فملـــكة البلاغة العالية فى جنسها ، انما تحصل بحفظ العالى فى طبقته من الكلام .

---

(٥) مقدمة ص ٥٧٢ و ٥٧٣

ثم يستنتج ابن خلدون بناء على جودة المحفوظ يستنتج أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، فى منثورهم ومنظومهم •

ويستدل على ذلك بأن شعر حسان بن ثابت وعمــر بن أبى ربيعــة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيــلان ، ذى الرمة والاحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية فى خطبهم وترســلهم ومحــاوراتهم للملوك أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة وعنتــرة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم •

ثم قال : « والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك »•

ويعلل لذلك بقوله : « والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحــديث ، اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثيلهما •• فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا » (٦) •

لابد اذن لقول الشعر من ثقافة ، ومن كثرة المحفوظ ، وتتبع جودة الشعر جودة المحفوظ ، لان الملكة تكون اجادتها من بعد جودة الحفظ وجودة السماع•

وهذا ما ألمح اليه ابن سلام فى طبقات الشعراء حـ ينقال (٧) : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كســائر أصــــناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الاذن ، ومنهــا تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ••

---

(٦) المقــدمة من ص ٥٧٠ — ٥٨٠

(٧) طبقات الشعراء ص ٦ ، ٧

ومن هذا نرى أن ابن سلام لا يقف بثقافة الشاعر المبدع عندما رسم ابن خلدون من جودة الحفظ وجودة السماع ، بل يضم اليهما ثقافة العين بالمشاهدات والاستجلاء وثقافة اليد بالكتابة واللمس والتجارب ، وثقافة اللسان بالاطلاع والقراءة ومداومة النظر .

لابد للشاعر من ثقافة متنوعة تتناول كل ما يقع تحت حس الشاعر وبصره ومحيطه وما وقع فى دائرة مدركاته ، حسية كانت هذه المدركات أو معنوية ..

« وأن كثرة المدارسة لتعدى على العلم » (٨) .

هذا كله الى جانب الموهبة ، لان الشعر نابع من الموهبة العظيمة ، فالموهوبون يحسنون أن يلبسوا لبوسا مختلفة ، وصناعة الشعر للماهر أكثر منها للذين هم تائهو العقول (٩) ، والاحاسيس والعواطف أيضا لازمة لصناعة الشعر ..

ويؤكد على سلامة الطبع والرواية أيضا الجرجانى فى الوساطة فيقول : (١٠)

« الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان » .

ويقول : « وطريق الرواية السماع ، وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض ، كما قيل : ان زهيرا كان راوية أوس ، وأن الحطيئة راوية

---

(٨) طبقات الشعراء ص ٦، ٧
(٩) الشعر لأرسطو المكتبة العربية ص ٩٨ ، ٩٩
(١٠) الوساطة للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى طبعة الحلبى بمصر ص ١٥ ، ١٦

زهير ، وأن أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جويرية ، فبلغ هؤلاء في الشعر حيث هم ((١٠)) .

واذن فلابد للشعر من الموهبة أو الملكة ولابد من الثقافة في كل صورها وأشكالها وسلامة الطبع والذكاء ، كما أنه لابد من الرواية وجودة المحفوظ من الجيد والدراسة .

وبعد هذا العرض يمكننا أن نتساءل كيف كانت ثقافة الشاعر الجاهلي ؟ ونجيب : كانت ثقافة الشاعر الجاهلي تتمثل في أزهى صورها في الشعر الجاهلي ذاته ، اذ لم تكن للعرب ثقافة أو علوم مدروسة وكان الشعر ديوان علومهم ومعارفهم كما أشار مؤرخو الادب الى ذلك ، وسبقت الاشارة اليه هنا .

فلو أننا قرأنا ديوان شاعر جاهلي ، في محاولة للعثور على ثقافته والتعرف على ألوانها ، لم نظفر الا ببعض التجارب الشعرية لشعراء معاصرين له أو سابقين عليه ، والا ما استفاده من محفوظهم الشعري ، وبعض خيالاتهم وأساليبهم وموسيقاهم ، وربما رأينا بعض المعارف السائدة في العصر الجاهلي كالحكم والامثال ، وبعض التجارب الطبية التي تشيع في العصر الجاهلي ، وشيء من الكهانة والقيافة والتاريخ وحفظ الانساب .

دواعي الاستفادة :

ومادامت المادة الثقافية الاساسية ، أو المادة الخام التي يصنع منها الشاعر عمله الادبي ، مادامت المادة واحدة والتربة الثقافية والغذاء العقلي والبيئة والمناخ الثقافي يتفق فيها أغلب الشعراء ، فاننا واجدون تلاقيا واستفادة وتأثرا وتواردا واشتراكا لا يقف عند المعنى واللفظ والتشبيه ، ولكن ربما تعدى ذلك الى القصيدة ومضمونها وأوزانها وقافيتها ، وخيالها (١١) .

---

(١١) راجع الصناعتين لابي هلال العسكري ص ٢٣ .

ويتحتم ذلك اذا كان الشعراء « من قبيلة واحدة ، فان خيالهم وخواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تسكون متضارعة » ، ولا ينكر على شاعرين متناسبين ومن أهل بلد متقاربين أن يتفقا فى كثير من المعانى (١٢) .

ويتأكد التأثر وتقوى الاستفادة ، ويكون التلاقى أشد ما يكون وضوحا فى الاستاذية والتلمذة ، بأن يكون هناك شاعر أو شعراء يتلقون توجيهات شاعر بعينه ، فهم لابد متأثرون بالاستاذ ومتلاقون فى أغلب التجارب والافكار ، ومستقون من معانيه (١٣) .

وأنواع التلاقى والتأثر كثيرة ومتنوعة :

أولا :

فمنها ما نرى فيه الشاعر معتمدا على حكاية حدثت ، ومثال ذلك حكاية المرقش عندما خطب بنت عمه أسماء بنت عوف عم المرقش ، وكان قد وعده بزواجه منها ، ثم زوجها أبوها من رجل مرادى فى غياب المرقش ، فلما عاد قيل له أنها ماتت ، ولكنه عرف حقيقة الامر فخرج يطلبها الى أن مرض بعد أن دنا من أرضها ، ومر به راع لزوجها وهى فى حالة الاعياء ، فأعطاه المرقش خاتمه ، فأخذه وأعطاه الى أسماء ، فأسرعت اليه هى وزوجها فاحتملاه الى منزلهما فأقام زمنا يمرضانه حتى مات .

وقد حفلت كتب الادب بهذه الحكاية ، ومما لا شك فيه أنها شاعت فى العصر الجاهلى .

وقد اعتمد عليها طرفة فى قصيدته « خيال سلمى » (١٤) يقول من هذه القصيدة .

(١٢ و ١٣) الموازنة للآمدى ج ١ ص ٨ و ٩ ، ٥٦ ط ١ المعارف مصر سلسلة ذخائر العرب . وراجع « النقد الادبى » للدكتور سعد ظلام ص ٢٠٢ الامانة القاهرة

(١٤) راجع ديوانه ص ١٠٧ ــ ١٠٩

وقـــد ذهبت سـلمى بعقلك كـــله
فهـــل غــير صيد أحـــرزته حبائله
كمـا أحــرزت أسـماء قلب مرقش
بحب كلمع البـرق لاحــت مخـــايله
وأنــكح أســـماء المــرادى •• يبتغى
بذلك عــــوف أن تصــاب مقــــاتله
فلمـــا رأى أن لا قــــرار يقـــره
وأن هوى أســماء •• لابــــد قاتــله
ترحــل من أرض العــــراق مــرقش
على طـــر ب•• تهــوى سراعا رواحله
الى السرو ، أرض ســاقه نحوها الهوى
ولم يــدر أن المــوت بالســرو غائــله
فغـــــودر بالفـــردين • أرض نطيـــــة
مســـيرة شـــهر ، دائب لا يواكــــله
فيالك من ذى حاجة•• حيــل دونهـــا
وما كــل ما يهــوى امــرؤ هو نائــله
فوجــدى بســلمى مثــل وجد مرقش
بأســماء ، اذ لا تســتفيق عــــواذله
قضى نحبــــه وجــدا عليهـــا مرقش
وعلقـــت من ســامى خبــالا أماطــله

ومثل ذلك قصيدة جليلة بنت مرة التى تحكى فجيعتها فى زوجها كليب ، بيد أخيها جساس ، وكيف أنها قاتلة مقتولة ، هدم بيتهــا الذى اســتحدثه ، ثم أتى الهــول على بيتهــا الاول تقـــــول جليلة :

يــا ابنــة الاقـــوام ان شـــئت فـــلا
تعجلى باللـــــوم حتى تســـــــألى
فـــاذا أنـــت تبينـــت الــــذى
يــوجب اللـــوم فــــلومى واعــذلى

ان تـــكن أخت امـــرئ ليمـــت على
شـــفق منهـــا •• عليـــه فافعلى
جـــل عنـــدى فعـــل جســـاس فيا
حســـرتى عمـــا انجلـــت ، أو تنجـــلى
فعـــل جســـاس عـــلى وجـــدى بـــه
قاطـــع ظهـــــرى ومـــــدن أجـــلى
يـــا قتيـــلا قـــوض الدهـــر بـــه
ســـقف بيتى جميعـــا من عـــل
هـــدم البيت الـــذى اســـتحدثته
وانثنى فى هـــــدم بيتـــى الاول

الى آخر القصيدة ، وقد اتكأت هذه القصيدة على حادثة حرب البسوس ، تلك المرأة التى كان كليب قد قتل أخا لها ، فأضـــمرت الثأر ، وجاءت فاستجارت بجساس بن مرة من بكر فأجارها ، ثم أنهـــا طردت ناقتها حتى رعت فى حمى كليب ســـيد ربيعة فرمى الناقة بسهم فماتت ، فصرخت، مستنجدة بجساس ، الـــذى قتـــل كليبا فقامت الحرب بين بكر وتغلب حتى كادت تفنى الحيين •

وكذلك معلقة عمرو بن كلثوم تحكى حكايته مع عمرو بن هند ، ومعلقة زهير تحكى نهوض هرم بن سنان لايقاف نزيف الـــدم بين عبس وذبيان فى حرب واحس والغبراء •

وكذلك معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى تحكى لنا ما حدث بين بـــكر وربيعـــة فى حضرة عمرو بن هند ، وكانت فى القصيدة استجابة فورية ورفض للضيم ، وارتجال ينم عن مقدرة عظيمة فى التمكن والوثوق الشعرى •

وأكثر الشعر الجاهلى يغلب عليه اللـــــون القصصى ، اذ أن الشاعر فيه أدنى الى القصاص ، الذى يسجل أحداث العصـــر (١٥)

---

(١٥) راجع ديوان الاعشى ص ٢٧

وقيمه ، ولست أقصد ذلك ، وانما قصدى أن الشاعر اعتمد عـلى حكاية أو رواية أو حادثة حدثت فى عصره أو قبله ، وقد علم بهـا وأصبحت من مخزونه الثقافى فهو يستخدمها •

ثانيـــا :

وقد يكو نالتلاقى فى فكرة القصيدة ووزنها وقافيتها وربمـا بعض أبياتها •

١ ــ ومثال ذلك قصيدة أمية بىأبى الصلت (١٦) النونية ، فهى تسير على نفس الوزن والقافية لمعلقة عمرو بن كلثوم التغلبى •

ومطلع قصيدة عمرو بن كلثوم (١٧) :

ألا هبى بصـــحنك فاصـــبحينا
ولا تبقى خمـــور الاندرينـــا

ومطلع قصيدة أمية بن أبى الصلت :

عــرفت الــدار قــد أقــوت ســنينا
لزينب اذ تحـل بهـــا قطينـــا

والقصيدتان فى غرض واحد هو الفخر والتطـاول بالاحسـاب والانساب ، والشجاعة وأخذ الثأر •

يقــول عمرو فى قصيدته :

أبـــا هنـــد فــلا تعجــل علينـــا
وأنظـــرنا نخبـــرك اليقينـــا

---

(١٦) راجع قصيدة امية فى جمهرة أشعار العرب ط ١ القسم الثانى ص ٥٠٧ ــ ٥١٤ نهضة مصر القـاهرة

(١٧) راجع شرح المعلقات السبع للزوزنى طبعة صبيح القـاهرة ص ١٤ ــ ١٦٢ وراجع شرح القصـائد التسـع لابن النحاس ج ٢ ص ٧٧١ ــ ٨٣٨

بأنا نورد الروايات بيضا
ونصدرهن حمرا قدروينا

الى أن يقول :

وقد علم القبائل من معد
اذا قبت بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون اذا قدرنا
وأنا المهلكون اذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا
وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون اذا سخطنا
وأنا الآخذون اذا رضينا
ونشرب ا نوردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

الى آخر هذه القصيدة التى تبرر الظلم ، وتدفع الهوان ، وتكاد تدوس عل ىكل شىء فى الجزيرة كلها بما تحمله فى طياتها من تحد وجبروت .

ولقد كان فى سببها ما ينهض دليلا على ظهورها بهذه الصورة ، فعمرو بن هند ملك كان يتسامر مع بعض أعوانه ، فقال لهم : هل هناك من العرب من تأنف أمه أن تخدم أمى ، قالوا له : لا : الا أن يكون عمرو بن كلثوم ، فأمه ليلى بنت مهلهل أخى كليب سيد ربيعة ، وأبوه كلثوم بن مالك فارس تغلب .

ودبر عمرو بن هند مع أمه مؤامرة لتخدمها أم عمرو بن كلثوم، وأرسلت اليها لتنزل ضيفا عليها ، وجاء معها ابنها عمرو وبعض الفرسان ، ولما نزلوا أخذ منهم عمرو بن هند سيوفهم ، ثم دخلت ليلى أم عمرو بن كلثوم القصر مع الحريم ، ثم طردت أم عمرو ابن هند الخدم ، وطلبت من ليلى أم عمرو أن تناولها الطبق ، وصرخت

ليلى : يا ذلاه ، يا تغلباه ، يـــا ولداه ، فقام عمرو بن كلثوم فاستل سيف عمرو بن هند وقتله ، وقام من معه بأخذ سيوف رجال عمرو ابن هند وقتلوهم ،ثم قام عمرو بن كلثوم بنظم هذه القصيدة •

ولنقف مع أمية بن أبى الصلت وهو يقول :

فتخبـــرك القبـــائل من معـــــد
اذا عــــدوا ســـعاية أولينـــــا
بأنـــا النـــازلون بـكل ثغـــر
وأنـــا الضـــاربون اذا التقينـــا
وأنـــا المانعـــون اذا أردنـــا
وأنـــا العـــاطفون اذا دعينـــا
وأنـــا الحامـــلون اذا أنـا خـت
خطـــوب فى العشـــيرة يبتلينـا
وأنـــا الرافعـــون على معـــــد
أكفـــا فى المـــكارم مـا علينـــا

وهكذا تتشابه القصيدتان فى الفخر والنبرة العاليـة ، وفى الوزن والقافية وفى كثير من أبياتها ، وعمرو بن كلثوم كانت معلقته معروفة ذائعة ، وهو أسبق ، وقد حفظها بغـير شـك أميـة بن أبى الصلت ، وأصبحت م نحصيلته الثقافية ، وتصرف فيهـا على النحو الذى رأينا •

٢ ــ ومثال آخر على ذلك معلقـة طرفـة بن العبـــد (١٨) البكرى ومطلعهـا :

لخولة اطـــلال ببرقـة ثهمـــد
تـلوح كباقى الوشـم فى ظاهر اليـد

وقصيدة عدى بن زيد (١٩) ومطلعها :

---

(١٨) ديوان طرفه ص ٣٢ ــ ٥٧ الشركة اللبنانية للـكتاب بيروت
(١٩) جمهرة أشعار العرب القسم الثانى ص ٤٨٥ نهضـة مصر ط ١ القـاهرة

أتعرف رسم الدار من أم معبد
نعم .. ورماك الشوق قبل التجلد

ويظل كل م نالشاعرين يصور شخصيته فى الحياة ، وهى على أية حال شخصية قوية واثقة ، بدوية ظاهرة البداوة ، واضحة الالحاد . أثر الحزن فيها فمالت الى اليأس ، الذى تكسره بشىء من الاباحية فى اعتدال وقصد ، وهى أيضا شخصية رجل حاول أن يصل من حياته الى قنديل هدى ، والتمس الخير فلم يظفر بشىء منهما ، وأيضا هى شخصية رجل صادق فى تجربة الحزن كما هو صادق فى تجربة الاباحية ، وصادق فى لهوه الذى ينسى فيه آلامه ويغمس فيه يأسه وتبريحه .

ويطلعنا أيضا كل من الشاعرين على مذهبه فى الحياة ، وهما متفقان فى المذهب ، مذهب المتعة واللهو ، واللذة ، مذهب من لا يؤمن بشىء بعد الموت ، ولا يطمع من حياته الا فيما أتاحت أو تتيح له من نعيم برىء من الاثم ومن العار .

يقول طرفة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى (٢٠)
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى بادرها بما ملكت يدى (٢١)
ولولا ثلاث هن من لذة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى (٢٢)

---

(٢٠) الوغى . الحرب . والخلود البقاء . يقول يا من تلومنى على حضور الحرب وهى لذتى هل تخلدنى أن كففت عنها

(٢١) اسطاع لغة فى استطاع . يقول : اذا كنت لا تستطيع دفع الموت عنى فدعنى أبادر الموت بانفاق كل ما أملك ، أى ان الموت لابد منه فلا معنى للبخل وترك اللذات

(٢٢) الجد الحظ والبخت ، وجدك قسم والحفل المبالاة ، والعود جمع عائد ، يقول ولولا حبى لخصال ثلاث لم أبال متى مت .

فمهن سبقى العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد (٢٣)
وكرى اذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نبهته المتورد (٢٤)
وتقصير يوم الدجن • والدجن معجب
ببهكنة تحت الخباء المعمد (٢٥)
كريم يروى نفسه فى حياته
ستعلم ان متنا غدا أينا الصدى (٢٦)

ويقول عدى :

أعاذل أن الجهل من لذة الفتى
وان المنايا للرجال بمرصد (٢٧)
اعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى
وأبعده منه اذا لم يسدد (٢٨)
اعاذل من تكتب له النار يلقها
كفاحاء •ومن يكتب له الفوز يسعد(٢٩)

---

(٢٣) العاذلات اللائمات . شربة كميت ، اى شربة خمر كميت اللون والكميت لون من الوان الخمر ، يقول : احدى تلك الخصال انى سباق الى شرب الخمر قبل انتباه العواذل

(٢٤) كرىعطفى، والمضاف الخائف، والمحنب الذى فى يده الانحناء ، والسيد الذئب والغضا شجر يقول : والخصلة الثانية اغاثة المستغيث فأسرع اليه بفرس سريع العدو كالذئب

(٢٥) الدجن الباس . الغيم آفاق السماء ، والبهكنة المراة الحسنة الخلق السمينة والخباء المعمد المرفوع بالعمد ، يقول والخصلة الثالثة تمتعى بامراة ناعمة حسنة الخلق تحت بيت مرفوع بالعمد

(٢٦) يقول : أنا كريم يروى نفسه فى أيام حياته بالخمر ، وستعلم ان متنا غداً أينا العطشان

(٢٧) العاذل اللائم والمنايا جمع منية وهى الموت ، يقول : لا تلمنى فالجهل لذة ، والموت آت .

(٢٨) الرشاد : الهداية يقول : ما اقرب الانسان من الرشاد اذا استقام له وابعده عنه اذا لم يستقم .

(٢٩) يقول : من كتبت له النار سوف يلقاها ومن كتبت له الجنة سوف يلقاها .

اعـــاذل قــد لاقيت مــا يــزع الفتى
وطابقت فى الحجلين مشى المقيــد (٣٠)
اعــــاذل مــــا يدريــــك أن منيتى
الى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد(٣١)
ذرينى فــانى انمــــا لى مــــا مضى
أمــامى من مالى اذا خف عودى (٣٢)
وحمــــت لميقــــاتى الـــى منيتى
وغــودرت قد وسدت أو لم أوسد (٣٣)
وللــوارث البــاقى من المـــال فاتركى
عتابى ، فانى مصلح غير مفســد (٣٤)

ويتحدث كلا الشاعرين عن الدهر والايام ، وان غدا ربما يكشف المعمى والمخبأ ..

ويقول طرفة :

ســتبدى لــك الايــام مــا كنت جاهلا
ويأتيــك بالاخبـــار من لــم تــزود
ويأتيــك بالاخبــار من لــم تبــع لــه
بتــاتا .. ولم تضرب لــه وقت موعد

ويقول عدى :

---

(٣٠) يزع يمنع ، الحجلين يقصــد الخير والشر ، يقول : الخير والشر واضحان ولقــد سلــكت بينهما مشى العــاجز .
(٣١) يدريك يخبرك . والمنية الموت يقول : لا يعلم الانســـان متى يموت ، وان كان عمره قصيراً .
(٣٢) ذرينى : دعينى ما مضى ما قدمت من مالى ، وعودى جمع عائد، يقول : لا ينتفع الانسان بماله الا ما انفقه على نفسه .
(٣٣) حمت قدرت وحــددت ، والميقات الموعد وغودرت تركت ، وسدت دفنت يقول : سوف اموت ولا يهمنى سوى ما تمتعت به .
(٣٤) العتاب اللوم . يقول : اتركى لومى على انفاقى مالى فاننى أنفع نفسى بما أنفق وأتلذذ به فى حيــاتى .

وأبـــدت لى الايـــام والدهـــر انه
ولو حـبـ من لايصلح المال يفسد (٣٥)

ويذمان البخل ، يقول طرفة فى ذلك :

أرى قبر نحـام بخيـل بمالـــه
كقبـر غوى فى البطالة مفســـد (٣٦)

ويقول عدى :

وللخلــق اذلال لمن كـــان باخـــلا
ضـنينا ومن يبخل يزل ويزهـد (٣٧)
وللبخـلة الاولى لمـن كـان باخـــلا
أعف ، ومن يبخـل يـلم ويزهـــد

كما يتحدث كل منهما عن الظلم ويتفقان على أن ظلم ذوى القربى أكثر ايلاما وأشد تأثيرا .

وقد قال كل منهما نفس القول الذى قاله صاحبه ، وردد نفس العبـــارة .

يقول طرفة :

وظـــلم ذوى القـــربى أشـــد مضاضة
على المـرء من وقع الحسام المهنـــد

ويقول عـــدى :

---

(٣٥) يقول : انه عرف انه من لا يصلح له يفســد .
(٣٦) النحام الحريص ، والغوى الضـــال . يقول : لا فرق بين البخيل والجواد بعد الوفاة ، فقبر البخيل الحريص كقبر الضال فى بطالته المفسد بماله .
(٣٧) يقول : النـــاس يكرهون البخيـــل ويذمونه .

وظلم ذوى القربى أشـــــد مضاضة
على المـرء من وقــع الحسام المهنــد

وليس هــذا فقط ما اتفق فيه الشاعران من أفــكار الى جانب اتفاقهما فى الوزن والقافية ، فهناك أفكار كثيرة تلاقيا فيها تلاقيــا ظاهرا ، والسبب فى هذا التلاقى انما هو الثقافة الواحدة ، فالرصيد الذى يملا الوعاء الثقافى واحد ، وهو الشعر الجاهلى فحسب ،وما كان يضيفه من قيم ، ويرسخه من أفكار واتجاهات ، وأســـــس تعبيرية •

وقد جعل ابن سلام (٣٨) فى طبقات الشعراء طرفة وعدى بن زيد فى طبقة واحدة ، هى الطبقة الرابعة وعلل لذلك بأ نموضعهما مع الاوائل ولكن أخل بهما قلة شعرهما بأيدى الرواة •

وقد قال ابن سلام عن طرفة : انــه أشــعر الناس واحــدة وهى معلقته ، كما جعل قصيدة عدى بن زيد التى استشهدنا بها من غرر قصائده الاربع •

على أننا نلاحظ أن التأثير انما كان بالمعلقات أكثر وأظهـــر وأوضح ، وذلك لانها كانت تمثل قمة شعرية واعترافا من جميــع العرب بقيمتها وجمالها ، فكتب لها الذيوع والصيرورة وحازت على اهتمامات الناس واعجابهم ، ولقيت عندهم قبولا واستحسانا ، فزاد تأثرهم بها واقبالا على ما تحفل به من قيم أخلاقية ومثل اجتماعية، ومذاهب فى الحياة ان صح أن يكون للجاهليين أو بعضهم مذهب فلسفى ، أو اتجاه يقفون عنده ، فتأثروا بــكل ذلك ، كمــا أثروا بجمالياتها وأساليبها وتعبيراتهم •

وقد ترك هذا كله أثرا على الشعر والشعراء فى الجاهليـــة ، وما ظنك بهم أن لا يتأثروا ، والغذاء العقلى واحد ، والتربةالثقافية واحــدة ؟ فهم مهتدون بهذا الشعر الذى فى المعلقات ، وهممدركون

---

(٣٨) راجع الطبقــات ص ٤٩ ــ ٥٢

منه أســبابا وأسبابا ، وهم بلا شك سيغرزون يدهم بغرزة ليحرزوا قسطا من هذا الجمال الذي ارتضاه الذوق العربي وحفل واعترف ، ورضي به وأذعن له •

وإذا كان امرؤ القيس يقف على الدار باكيــــــــا كما بكى ابن خذام (٣٩) ، فما بالك بالشعراء الآتين بعــده ؟

٣ ــ ومن هذا القبيل ، أي من قبيل التلاقي في الافكار والوزن والقافية قصيدتا أبي ذؤيب الهــذلي ، وســعدى بنت الشــمردل الجهنيــة •

و لقصيدتان راثيتان ، وقد اتفقتا غرضا ووزنا وقافيــــة ، وقصيدة أبي ذؤيب الهذلي ذائعة مشهورة ، لما فيها من حزن فاجع، وتنظيم لبواعث الالم والاشفاق على رجل كبر وأدركته الشيخوخة ، ولكنه يصاب في موت بنيه ، فيهزم ويلتاع ويبكي وينتحب ،ويجعلنا نبكي معه وننتحب تأثرا واشفاقا •

يقول أبو ذؤيب :

أمــن المنــــون وريبــــة نتـــوجع
والدهــر ليس بمعتــب من يجــزع ؟
قالت أميمــة : ما لجســمك شـــاحبا
منــذ ابتــذلت • ومثل مالك ينفـــع
فأجبتهــــا : أمــــا لجســمي انـــه
أودى بني من البــــلاد فودعــــوا
أودى بني •• وأعقبـــــوني غصـــة
بعــد الــرقاد •• وعبــرة لا تقلــــع
حتى كــــأني للحـــوادث مـــروة
بصــفا المشــرق كــل يــوم تقــرع
وتجـــلدي للشـــــامتين أريهـــم
أني لــريب الدهـــر لا أتضعضـــع

(٣٩) ابن خذام شاعر جاهلي قديم بكى الديار قبــل امرىء القيس.

وتقول (٤٠) سعدى بنت الشمردل ترثى أخاها الذى قتل ، وهى جهنيه ، وأخوها هذلى من قبيلة أبى ذؤيب تقـــول :

أمـــن الحـــــوادث والمنـــــون أروع
وأبيت ليـــــلى كلـــــــه لا أهجــــع

والقصيدتان كما ترى متفقتان فى الغرض وفى الوزن والقافيـــة وفى كثير من الافكار فهل يكون لنسب أخى ســــعدى فى هذيل أثر فى هذا ؟ ربما يكون له أثر ، ولكن الذى لا شك فيه أن اتفاق سعدى مع أبى ذؤيب له سبب آخر هـــو الاتفاق فى الغرض ، والشعراء الراثون وغيرهم يتأثرون بما ســبقهم أو بالاجود الذائع من هــذا الشعر ، الا أنهم بما هم بصدده من فنون القول يكونون أشـــــــد تأثرا .

ولقد تأثرت سعدى وتلاقت مع أبى ذؤيب ، لان الرثاء فن انسانى ، وهو مثل كل فنون الشعر فى حاجة الى الثقافة ، وحاجته الى الثقافة فى لون الرثاء أكثر .

وكانت قصيدة أبى ذؤيب تمثل طرازا انسانيا فى الـــرثاء ، فقالت سعدى مثل ما قال ، وزادها قنـــاعة كو نأخيهـــــا القتيل من هذيل ، فهى ترثيـــه بمـــا أعجبهم من طـــراز قولى اعترفوا به وهو طراز أبى ذؤيب .

٤ ــ وكذلك قصيدة امرىء القيس العينية التى مطلعها (٤١):

جزعت ولم أجزع من البين مجـــــزعا
وعـــزيت قلبا بالـــكواء بمولعـــا (٤٢)

---

(٤٠) راجع القصيـــدة فى « الاصـــمعيات » ص ١٠١ ـــ ١٠٤ دار المعـــارف مصر ط ٣ تحقيق أحمـــد شـــاكر وعبد السلام هارون .

(٤١) راجع القصيدة بتمامها فى ديوانه ص ١٣٢ ـــ ١٣٤ وهى آخر قصيدة فى الديوان طبعة دار احيـــاء التراث العربى بيروت .

(٤٢) الـــكواعب الفتيات اللائى برزت نهودهن .

وأصــبحت ودعت الصـبا غـير أننى
أراقب خـلات من العيش اربعـا (٤٣)
فمنهن قــولى للنـــدامى ترفقــوا
يداجون نشاجا من الخمــر مترعا (٤٤)
ومنهن ركض الخيـل ترجـم بالقنـــا
يبـادرن سربا آمنـا أن يفـزعا (٤٥)
ومنهن نص العيس والليــل شـامل
تيمم مجهولا من الارض بلقعـــا (٤٦)
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى
تراقب منظـوم التمـائم مرضعا (٤٧)

قصـــيدة امرىء القيس هذه تتلاقى معها قصيدة مالك بن حريم الهمدانى التى مطلعها (٤٨) .

جزعت ولم تجــزع من الشيب مجــزعا
وقــد فــات ربعى الشباب فودعـــا

وقد اتفقت القصيدتان الى جانب الوزن والقافية والاسلوب، اتفقتا فى وصف المرأة والتشبيب بها .

يقول امرؤ القيس فى التشبيب :

---

(٤٣) الصبا الشباب . الخلة الخصــلة .
(٤٤) يداجون : يعالجون ويدارون ، النشاح زق الخمر يسمع له نشيج وصوت عند سحبه .
(٤٥) ركض الخيل : جريها ، ترجم بالقنا : أى تفحـــص الارض بقوائمها ، يبادرن : يسرعن ، والسرب الجماعة من النساء .
(٤٦) النص بفتح النون الســهر السريع ، والعيس الابل البيض ، والبلقع القفر الخالى .
(٤٧) السوف الشم ، والخود المراة الحسنة الناعمة ، بلها الندى، عليها اثر النعيم تراقب منظوم التمائم ، يعنى تحرس طفلهـا ، والتمائم جمع تميمة ما يعلق على الصــغار مخافة العين .
(٤٨) راجع القصيــدة فى الاصمعيـات من ص ٦٢ ــ ٦٧

بعثت اليهـــا والنجـــوم طـوالع
حـذارا عليها أن تقوم فتســمعا (٤٩)
فجــاءت تطوف المشى هيــابة السرى
يدافع ركنــاها كواعب أربعـــا (٥٠)
يزجينهــا مشى النــزيف •• وقد جرى
صـباب الكرى فى مخها فتقطعــا (٥١)
تقــول وقــد جردتهــا من ثيابهـــا
كمــا رعت مكحول المدامع أتلعــا (٥٢)
وجــدك لـــو شيء أتانــا رســوله
ســواك •• ولكن لم نجد لك مدفعا (٥٣)

ويقول مالك فى التشبيب من هذه القصيدة :

تذكــرت ســلمى والــركاب كأنهـــا
قطــا وارد بين اللفاظ ولعلعـــا (٥٤)
فحـــدثت نفسى أنهــا أو خيالهـــا
أتانــا عشــاء حين قمنـــا لنهجعـــا
فقلت لهــا : بيتى لدينـــا وعـــرسى
ومــا طرقت بعــد الرقاد لتنفعــا (٥٥)
منعمـــة لم تلق فى العيش ترحـــة

---

(٤٩) يقول أرسلت اليها قبل نومها حتى لا تهب من نومها مذعورة فيسمعها أهلهــا .

(٥٠) قطوف المشى : خدرة ، يدافع ركناها ، يدفع جانبــاها اى يسرن بجانبهــا .

(٥١) يسرن معها فى رفق كمشى السكران وصبـــــاب الكرى بقية النعــاس .

(٥٢) اى حين جردتها من ثيابها بدت محاسنها ، وقد ذعرت كأنها غزال مروع ينظر بعينيه ويمد جيــده الطويل .

(٥٣) وجدك ، وحظك لو جاءنى رسول أحد غيرك يعنى لم أبال به ولــكننى لم استطع دفع رســولك .

(٥٤) الركاب . الابل ، واللفاظ بضم اللام وكسرها ماء لبنى اياد ولعلع اسم مكان .

(٥٥) التعريس النزول آخر الليل ، يريد أن خيــالها اثار لواعجه واشـــــواقه .

ولم تلق بوسا عند ذاك فتجدعا (٥٦)

أهيم بهـــا لم أقض منهـــا لبانـــة
وكنت بها فى سالف الدهر موزعا (٥٧)

كأن جنا الـكافور والمسك خالصـا
وبرد النـدى والاقحـوان المنزعا (٥٨)

فقـد اتفقت قصيدتا أمرىء القيس ومالك ، وكل فرق بينهمـا فى الغزل انما هو فى كيفية التناول والعلاج وفى مذهب كل منهمـا وخلقه ، فامرؤ القيس فاجر جـرىء ، ومالك يستحيى أن يمشى الى غير المجد ولكنهما اتفقا حتى فى رسم صورة المرأة التى يحبها كل منهما ، فهى ناعمة رافهة •

ثالثا ـ التلاقى فى بعض الافكار والابيات :

ونكتفى بهذا القدر من التلاقى ، لننتقل الى لون آخـر منـه ، وهو التلاقى فى المـذاهب أو فى الفـكرة المصورة ببعض الابيات، وهذا كثير •

١ ـ وذلك مثل ما جاء فى قصيدة امرىء القيس العينية التى ذكرناها قريبا ، وهو فيها يذكر أنه يراقب خلات من العيش أربعـا هى شرب الخمر وركوب الخيـل والارتحـال بالابـل ، والعبث بالنسـاء •

وفى مثل هذا يقول طرفة فى معلقته :

ولولا ثلاث هن من عيشـة الفتى
وجدك لم أحفـل متى قام عـودى

---

(٥٦) الترح بفتح الراء الفقر ، ومنه الحزن ، والترحة المرة الواحدة منه ، تجدع من الجدع بفتحتين وهو سـوء الغـذاء •

(٥٧) اللبانة الحاجة والموزع المغترى من قولهم أوزعه الشىء اغراه.

(٥٨) الجنى كل ما يجنى ، الاقحوان نبت له نور أى زهر ابيض ، المنزع المنزوع •

فمنهن ســبق العــاذلات بشربــة
كميت متى ما تعـل بالمـاء تزبـد

وكـرى اذا نـادى المضـاف محنبـأ
كسـيد الغضـا نبهتـه المتـورد

وتقصير يـوم الدجن • والدجن معجب
ببهكنـة تحت الخبـاء المعمـد

فطرفة يعشق ثلاث خصال هى شرب الخمر وركوب الخيل للاغاثة والغزل أو العبث بالنساء •

٢ ــ وقال طرفة فى معلقتـه :

كـأ نحـدوج المالـكية غـدوة
خـلايا سـفين بالنواصـف من دد

وقال الاعشى (٥٩) من قصيدة له مطلعها :

أتصـدم ريـا أم تـديم وصـالها

يقـول :

كـأن حـدوج المالـكية غـدوة
نواعم يجـرى الماء رفهـا خلالهـا

فقد نقل الاعشى تعبير طرفة والتقى الشاعران عليه •

٣ ــ ومن ذلك قول الشاعر وهو من الشواهد النحوية :

أطـوف مـا أطـوف ثم أوى
الى بيـت قعيـدته لـكاع (٦٠)

---

(٥٩) الديوان ص ٣٧٩ •

(٦٠) لكاع اسم على وزن فعال ، وهو مبنى على الكسر وهو هنا منادى بحرف نداء محذوف ، أى قعيدته يقال لها يالكاع والمذكر لكع وهو اللئيم الاحمق •

ويقول نقيع بن جرموز :

أطـــوف مـــا أطـــوف ثم آوى
الى أمى ويـــروينى النقيـــع (٦١)

رابعـــا :

وقد نرى قصائد أو أبياتا تنسب الى صاحبها والى غيره فى وقت واحد ، والسبب فى ذلك هو الثقافة العامة المشتركة ، ومن هنا يكون اضطراب الرواة فى نسبتها الى أيهما ، وهذا كثير •

١ ـ قصيدة قيس بن الاسلت (٦٢) التى يصف فيها هزيمـة جيش أبرهة والتى منها :

ومن صـــنعه يـــوم فيـــل
الحبـــوش اذ كلمـــا بعثـــوه رزم

قال ابن هشام : وهـــذه الابيات فى قصيدة له أى لقيس ، ثم قال : والقصيدة أيضا تروى لامية بن أبى الصلت •

٢ ـ ويذكر السهيلى (٦٣) أيضا فى الروض الانف أبياتا ينسبها الى سيف بن ذى يزن الحميرى يقول منها :

يظن الناس بالملكين •• أنهما قد التأما

ويذكر الابيات ثم يقول : قال ابن هشام : وهذه الابيـــات فى أبيات له يعنى لسيف بن ذى يزن •

ثم يقول بعد ذلك : وأنشدنى خلاد بن قرة آخرها بيتا لاعشى بنى قيس بن ثعلبة فى قصـــيدة ، وغيره من أهـــل العلم بالشـــعر ينكرها له •

---

(٦١) النقيع والنقيعة المحض من اللبن يبرد راجع الوساطه ص ٨
(٦٢) راجع الروض الانف للسهيلى ج ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ •
(٦٣) المصدر ص ٢٩٧ •

٣ ــ ويذكر بعد ذلك أبياتا ينسبها ابن اسحاق لأبي الصلت ابن أبى ربيعة الثقفى .

ثم يذكر أن ابن هشام نسبها لامية بن أبى الصلت ، يقول فيها :

ان آيات ربنا ثاقبات
لا يمارى فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل
مستبين حسابه مقدور

٤ ــ ويذكر أبو الفرج (٦٤) الاصبهانى بيتين نسبهما الى غريض اليهودى .

والبيتان هما :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه
يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وان من
أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ثم روى أبو الفرج نسبة هذين البيتين الى ورقة بن نوفل من قصيدة له أولها :

رحلت قتيلة عيرها قبل الضحى
وأخال ان شحطت بجارتك النوى (٦٥)

وقد نسبها ابن عبد ربه (٦٦) فى العقد الفريد الى زهير بن

---

(٦٤) الاغانى ج ٣ ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٦٥) شحطت بعدت ، النوى الفراق . يقول رحلت غير قتيله قبل الضحي واظن ان النوى قد بعدت بجارته .
(٦٦) راجع ج ٣ ص ١١٩ باب فضائل الشعر وراجع ايضا هامش ص ١١٧ ج٣ الاغانى لابى الفرج .

جناب ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع عائشة وهى تنشد شعر زهير بن جناب تقول : وذكر البيتين ، فقال صلى الله عليه وسلم : صدق يا عائشة لا شكر الله من لايشكر الناس ، والأبيات فيهـا تصرف عن رواية الأغانى •

٥ ــ وقد يكون الالتقاء فى المعنى ومن ذلك :

١ ــ ما قاله المثقب العبدى (٦٧) جاعلا المال وقاية للعرض :

اجعل المال لعرضى جنة
ان خير المال ما أدى الذمم

ويقول أيضا (٦٨) :

يجعل المال عطايا جمة
ان بذل المال فى العرض امم

ويقول حسان رضى الله عنه فى نفس المعنى :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال أن أودى فأكسبه
ولست للعرض ان أودى بمحتال

٢ ــ ويقول المتلمس (٦٩) مصورا تميز قبليته عن جميع القبائل ، جاعلا دمها يمتاز عن غيرها :

أحارث انا لو تشاط دماؤنا
تزيلن حتى لا يمس دم دما

(٦٧ ، ٦٨) من قصيدة له مطلعها ذاد عنى النوم هم بعدهم ص ٢٢٠ ــ ٢٣٣ .

(٦٩) القصيدة فى ديوانه ص ٢٨٣ مطلعها «لعمرك انى وأبا رياح » .

ويقول المثقب (٧٠) فى هذا المعنى نفسه :

لعمـــــرك انـــى وأبـــا ريـــاح
على طـــول التهاجـــر منـــذ حـــين
ليبغضـــنى وأبغضـــه وأيضـــا
يـــرانى دونـــه وأراه دونى
فـــلو أنـــا على حجـــر ذبحنا
جـــرى الدميـــان بالخبـــر اليقـــين

والمعنى أنه لشدة ما بينهما لا تختلط دماؤهما فلو ذبحا على حجر لافترق الدمان •

خامسا ــ الالتقاء فى الخيال :

والتقاؤهم فى الخيال لان المشاهد واحدة ، وثقافة العين واحدة، والرؤى تقع أمام حسهم وأبصارهم وقوعا واحدا •

ولهذا أدركوا صـورا وخيالات وتشبيهات متقاربة ، تتلاقى وتتحـد •

١ ــ ومن ذلك ما سبقت الاشارة اليه فى الظاهرة الطللية حين ذكرنا ارتحال العربى على الناقة ، وأنهـا لتسـلية هم ، وقـــد أكثر الشعراء فى عصره من ذكر تسلية الهموم بركوب الخيل والضرب فى الفيافى •

٢ ــ كما أكثروا من تشبيه الابل بالسفين وهى صورة مكررة• يقول طرفة (٧١) :

عدوليـــة أو من ســفين بن يـا من
يجـــور بهـا المـلاح طـورا ويهتدى

---

(٧٠) ديوان المتلمس من قصيدة مطلعها يعيرنى أمى •
(٧١) العلقة والعدوليه سفن منسوبة الى قرية بالبحرين اسمها عدولى وابن يامن ملاح من هجر •

ويقول المثقب العبدى (٧٢) :

وهـن كـذاك حين قطعن فلجا
كـأن حدوجهن على سـفين
يشـبهن السـفين وهـن بخت
عراضـات الاباهـر والشـئون

٣ ـ المشاهدات لدى الشعراء كونت عندهم رؤى واحـدة ، ومن تلك الرؤى والمشاهده تصـويرهم الحصى الذى يتطاير من أثر أرجل الناقة .

يقول المثقب العبدى (٧٣) :

تصـك الجـانبين بمشـفتر
لـه صـوت أبـح من الـرنين
وتصك ترمى .

والجانبان هما جانبا الناقة ، والمشفتر المتفرق يعنى الحصى ، والبح صوت فيه غلظ .

وقال المزق العبدى وهو ابن أخت المثقب :

كـأن حصى المعـزاء عنـد فروجهـا
نـوادى رحى رضـاخة لم تـدقق

وقال طرفة :

فتـرى المـرو اذا مـا هجـرت
عـن يديهـا كالفـراش المشـ

---

(٧٢) ديوانه ص ١٤٨ ـ ١٤٩ والبخت وبضم الباء وسكون الخاء الابل معربة وهى جمال طوال الاعناق . والاباهر الظهور .
(٧٣) الديوان ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

والمرو : الحجارة .

وقال عبدة بن الطيب فى المفضلية :

تــرى الحصى مشـــفترا عن مناسمها
كمـــا تحلجـل بالوغـل الغرابيـــل

وقال امرؤ القيس (٧٤) من قصيدته « سما لك شوق » التى يصف فيها رحلته الى الروم :

كـــأن الحصى من خلفهـا وأمامهـــا
اذا أنجلتـــه رجلهـا حـــذف أعسرا
كـــأن صـــليل المـرو حين تشـذه
صـــليل زيـوف ينتقـدن بعبقـرا

ويروى البيتان فى بديع ابن المعتز هكذا :

كـــأن حصى المعـــزاء بين فروجهـا
اذا أحذفتـــه رجلهـا حذف أعسـرا
كـــأن صـــليل المـرو حـين تشذه
صـــليل زيـوف ينتقـــدن بعبقـرا

والمعزاء الصخر ، والمراد حصى الصخر الصـلب ، والاعسر الذى يعتمد فى عمله على يده اليسرى ، وصليل المرو صوته ، تشذه تقذفه على غير هدى ، والمراد تطيره ، والزيوف الدراهم المغشوشة، وينتقدون ينقرن بالاصبع لتعرف جودتها من سماع صوتها ، وعبقر مدينة باليمن ينسب اليها كل عمـل خارق وقـد زعمـوا أن الجن تسكنها .

يشبه امرؤ القيس حالة الحصى وقد حذفته رجل الناقة فتطاير من فروجها بحالة رجل أعسر يقذف بيده فى غير قصد ولا اعتدال ،

---

(٧٤) الديوان ص ٦١ — ٧٠ .

وشبه كذلك حالة صوت المرو ، وهى تقذفه فتسمع له صوتا بحالة صوت الدراهم المغشوشة حين تختبر جودتها من رداءتها ، وهو تشبيه شائع فى كل الشعر الجاهلى .

ولقد كانت الناقة عندهم ، وسيلة الارتحال ونسيان الهموم، وكان وصفها فى كل صورها ، ووصف أجزائها وأعضائها فى كل حركة وكل وقفة ، فى رحلة الصحراء مشاهد مألوفة فى الشعر الجاهلى كله .

تتكرر (٧٥) هذه الصور بتفاصيلها وبألفاظها فى بعض الاحيان فى كل الشعر الجاهلى ، ويتداولها الشعراء ، لا يجدون حرجا فى التكرار ، ونحن وان كنا ننكر ما فى هذا الشعر من جمال نقول أن هذا الجمال قد ضاع شطر كبير منه ، وأن هاذ الفن قد صار الى جمود ، لا نعرف له نظيرا فى أى فن من الفنون .

وقد ألغى هذا الجمود شخصيات الشعراء ، فالشاعر اذا وصف الناقة والصحراء نسى فنه وألغى شخصيته ، وأنشأ شعره فى هذه القيود الضيقة ، وصبه فى هذه القوالب الميتة ، ولم ير نفسه مطالبا بأكثر من ذلك ، ولم تقف هذه القيود عند المعانى والصور ، بل تعدتها الى الاسلوب والطريقة ، فالشاعر اذا أراد أن يتخلص من الغزل الى وصف الرحلة تخلص بطريقة معروفة فلما يشذ عنها ، فان كان واقفا بالاطلال قال : (لما رأيت أن الاطلال لا تجيبنى نهضت الى ناقتى) كقول زهير :

فلمـــا رأيت أنهـــا لا تجيبنى
نهضت الى وجناء كالفحل جلعـد (٧٦)

وان كان يتحدث عن رحيل صاحبته قال : « هل تلحقنى بهم ناقتى ؟ » كقول زهير :

---

(٧٥) راجع مقدمة ديوان الاعشى للدكتور محمد محمد حسين ص ٢٨ — ٣٢
(٧٦) الوجناء الناقة الشديدة والجلعد الصلب الشديدة ، وفى النوق السريعة فى الهرب والسير .

هـــــــل تلحقنى أدنى دراهم قلــص
يزجى أوائلهــا التبغيــــل والرتك (٧٧)

وقال الاعشى :

أجـــــدوا فلمــا خفت أن يتفـــــرقوا
فــريقين منهم مصـــعد ومصوب (٧٨)
طلبتهم تطـــوى الى البيـــــد جسرة
شـــويقئة النـــابين وجنـــاء ذعلب (٧٩)

وان كان يذكر صدورها عنه واعراضها قال : « فصرم حبلهـــا اذ صرمته بالسفر على ناقة شديدة » .

كما يقول زهـــير :

فصــــــــرم حبلهـــــا اذ صرمتــــــــه
وعـــادى أن تلاقيهـــــــا العداء (٨٠)
بـــآزرة الفقـــــــــارة لم يخنهـــــــا
قطـــــاف فى الــــــركاب ولا خـــلاء

وكقول لبيد :

---

(٧٧) القلوص من الابل الشابة القوية او الباقية على السير ، والناقة الطويلة القوائم والجمـــع قلائص وقلص والتبغيل مشــــيها بين الهملجة والعنق ، أى مشى فيه قوة وسرعة والرتك مقاربة الخطو .

(٧٨) الاصعاد خلاف الاصابة ، والاصابة المجيء من عل ، فيـــكون الاصعاد المجيء من اسفل

(٧٩) الجسرة الناقة الماضية ، وشويقئة النابين بارزتهما وطالعتهما والوجناء القوية والذعلب بكسر الذال واللام الناقة السريعة

(٨٠) صرم اقطع والعداء الموالاة فى السير ، وآزرة الفقـــار قويته وهو عظم الظهر ، والقطاف المشى الوئيد ، يقال قطفت الدابة ضـــــاق مشيها والخلاء بكسر الخاء البروك أو الامتنـــاع عن المشى ، يقـــال خلأت الدابة أو النـــاقة بركت أو حرنت فلم تبرح وكذلك الجمل

فاقطـع لبـــانة من تعـــرض وصله
ولشـر واصـل خـلة صرامهـا (٨١)
بطليـح أســـفار تـــركن بقيـــة
منهـــا فأحنق صـلبها وسنامها (٨٢)

وان ذكـر ما كان بينه وبينها من ود قـــال : « فدعها وسل همومك فوق الناقة برحلة فى الصـحراء وهو أكثر مذاهبهم شيوعا كقول الاعشى :

وقــد أســـلى الهم حـين اعتــرى
بجســـرة دوســـرة عاقـر (٨٣)

وقـــال :

فدعهــا وســل الهـــم عنــك بجسرة
تزيــد فى فضــل الزمام وتغتلى (٨٤)

وكذلك قول امرىء القيس :

فدعهــا وســـل الهم عنهـــا بجسرة
ذمــول اذا صــام النهار وهجرا (٨٥)

وقد أشرنا الى ذلك فى كتابتنا عن الظاهرة الطللية فراجعهــا هنـــاك .

---

(٨١) اللبـــانة الحاجة ، والخلـــة المودة المتناهية ، والصرام القطع يقول : اضرب عن ذكر نوار ، ثم أقبل على نفسه مخاطبا اياها فقـــال : قطع حاجتك ممن كان وصله معرضا للزوال والانتقاص ، وسر من وصل محبة من قطعها . اى شر الاحباب قطـــاع المودة

(٨٢) الطلح والطليح المعرض للأسفار ، والاحناق الضمر والصلابة يقول اذا زال ودك فاقطعه بركوب ناقة أعيتها الاســـفار حتى صـــارت ضامرة متمرنة على السفر

(٨٣) الجسرة الناقة الضخمة النشيطةوكذلكدوسرةوعاقر غيرحامل

(٨٤) وتزيدت الناقة مدت عنقها وســـارت دون العنق وهو المشى الفسيح والزمام الحبـــل الذى تقاد به وفضله طرفـــه ، وتغتلى بالغين الاسراع فى الســـير

(٨٥) الذمول السريعة الســـير

ويستمر الدكتور محمد محمد حسين فيقول : فاذا أخذ الشاعر فى الكلام عن رحلته كان له فى ذلك طريقان : اما أن يشبه ناقته بالنعامة أو الحمار أو الثور ، واما أن يصفها فينظم معانى الذين سبقوه ، فيتم له بهذا النظم المعاد شعر فى وصف الناقة وفى وصف الصحراء ، لا يرى نفسه مطالبا بأكثر منه ••• ولهم فى ذلك تشبيهات معروفة •• ومن ذلك تشبيههم الطريق فى الصحراء بالكساء المخطط يقول الاعشى :

وبيداء قفر كبرد السدير
مشاربها دائرات أجن (٨٦)
فأفنيتها •• وتعاللتها
على صحصح كرداء الردن (٨٧)

ويقول طرفة :

أمون كألواح الاران نسأتها
على لاحب كأنه ظهر برجد (٨٨)

ويقول المثقب العبدى :

فى لاحب تعزف جنانه
منفهق القفرة كالبرجد (٨٩)

---

(٨٦) السدير ارض باليمن ، والبرد ثوب مخطط ، والمشارب ما يشرب منه المسافر من آبار وغيرها ، دائرات مطموسة بالرمال . وأجن جمع آجن وهو الماء المتغير اللون والطعم لركوده

(٨٧) العلالة البقية من كل شيء وتعاللتها اخذت علالتها وهى الصحيح المستوى من الارض ، الردن الخز

(٨٨) الامون المأمونة العثار ، الاران التابوت العظيم ونسأتها ونصاتها زجرتها ، لاحب طريق واضح ، برجد ثوب مخطط

(٨٩) اللاحب الطريق الواضح سمى بذلك لانه لحب أى تقشر عن وجهه التراب وتعزف تصوت ، والعرب تجعل العزيف وهو صوت الرمال اذا هبت بها الرياح تسميه اصوات الجن ، والجنان بكسر الجيم الجن ومنفهق متسع القفرة ، واسع ، والبرجد بضم الباء والجيم كساء فيه خطوط

ويقـــول النابغة :

وناجيــــــة عـــــديت فى متن لاحب
كســـحل اليمـــانى قاصد للمناهل (٩٠)

ومنه تصوير وحشة الصحراء بصوت البوم يقول الاعشى :

لا يســـــمع المـــرء فيهـــا ما يؤنســـه
باالليـــل الا نئيم البوم والضوعا (٩١)

ويقول المرقش الاكبر :

وتســــمع تزقاء من البـــوم حولنـــــا
كمـــا ضربت بعد الهدوء النواقس (٩٢).

ويقول المنقب العبدى :

أمضى بهــــا الاهـــوال فى كل قفـــرة
ينـــادى صـــداها آخر الليـــل بوقهـــا

ويقول علقمة الفحل :

بمثلهــــــا تقطع المـــوماة عن عـــــرض
اذا تبغـــم فى ظلمـــــائه البـــوم (٩٣)

ويقول الاســـود بن يعفر :

مقهـــامهـــا وخـــروقا لا أنيس بهـــا
الا الضوابح والأصداء والبوما (٩٤)

---

(٩٠) الناجية الناقة السريعة ، لاحب واضح ، ســـــحل ثوب أبيض اللون ، المناهل المشارب ، والسحل بفتح السين ثوب لا يبرم غـــزله أو ثوب أبيض

(٩١) الضـــوع طائر من طيور الليل أسود كالغراب والنئيم صـــوته

(٩٢) التزقاء الصـــدى أو الصيـــاح والنواقس النواقيس

(٩٣) الموماة المفازة والصحراء ، وتبغم صوت

(٩٤) يقال ضبحت الخيل كمنع ضبحا وضباحا اسمعت من افواههـــا صوتا ليس بالصهيل اوعدت دون التقريب والضوابح جمع ضـــابحة وهى التى تحدث الصـــوت

ولقد صوروا وحشة الصحراء بعزيف الجن ، ويقول الاعشى:

وبهمـــاء تعـــــزف جنانهـــا
مناهلهـــا دائــرات ســـدوم (٩٥)

وقال طرفة :

وركـــوب تعـــزف الجــن بـــه
قبـل هــذا الجيــل من عهـــد أبـد

ومنه تشبيه الهوادج وقد لاحت من بعيد وسط الصـــحراء بالسفين فى لج البحـر ، وقـد سبقت الاشارة الى ذلك •

وهذه التشبيهات شائعة كثيرة فى شعرهم الجاهلى •

كما شاع فى شعرهم تشبيه النساء بالظباء وعيونهن بعيـون البقر الوحشى ، كما شبهوا وجوههن الوضاء بالقمـر ، وأردافهن بالكثيب ، والاسنان باللؤلؤ والبلور وأوراق زهر الاقحوان ، وشبهوا شعرها الاسود الفاحم بالليل والجيد بجيد الغزال وريقهن بالخمـر والعسل ، وأناملهن بهداب الحرير وأطراف الاكف بالعنم ، ووصفوا القوام بغصن البان والمشىء بمشى القطا ، وقالوا عن دقـة الخصر صفر الوشاح ، وعن امتلاء الارداف بملء الذراع وعن امتلاءالساقين بصامتة الخلخال •

وقد شبهوا الوصـل بالحبل ، والدمـــوع الغزيرة بفيض الـدلاء •

وفى مجال الفروسية والشجاعة ، شبهوا الشـجاع بالليث

---

(٩٥) البهمـــاء الارض التى تنبت البهمى وهو نبت لا يظهـر الا فى الصحراء ، والجنان بكسر الجيم وتشديد النون الجن والمنــاهل جمع منهل وهو المشرب والشرب والموضع الذى فيه المشرب والمنزل يكون بالمفــازة وســـدم مختفيــة

وبالسيف ، وتشبيه الفرس السريع بالعقاب وبالسابح فى المــاء ، وشبهوا الفرس الطويل الظهر بجذع النخلة وبقناة الرمح ،وصوروه فى سرعته بأنه يبارى رمح راكبه محاولا أن يسبقه ، وتشبيه السهام حين تنطلق بالنحل ، وتشبيه لمعان السيوف والدروع برقرقة الغدير ، وشبهوا العدو المغير بالضيف والتنكيل بالعــدو بالقرى تهكمـــا ، وكنوا عن طول القامة بطول النجـــاد ، وعن الشريف بأنه رفيع العمـــاد .

ووصفوا الفرس القوى الضخم فى اندفاعه وسرعته بجملود صخر حطه السيل من عل .. وقالوا عنه « قيــد الاوابد » وقالوا عنه فى جريه الكثير أنه «مسح» ووصفوا سلاسته فى الجرى بالسبح وأرجله بالسابحات ، وقالوا عن سرعته وخفته كخذروف الوليد أى الدوارة التى يلعب بها الصبى ، ووصفوا خاصرتيه بخاصرتى الظبى وساقيه بساقى النعام ، ووصفوا سرعته ووضع رجليه عند السير مكان يديه بجرى الذئب وتقريب ولد الثعلب وربما وصفوا ظهــره بظهر الحمار الوحشى ووصــفوا قوائمه الاربع بأنهــا صم صــلاب وقالوا عن الــكفل والعجز بالدعص وهو الكثيب الصغير ، ووصفوا عين الحصان بمرآة الصناع الحاذق الماهر ، ووصفوا أذنيه بأذنى بقرة الوحش فى وسط ربرب ، ووصفوا ذيله الاسود بشماريخ النخل التى فيها العناقيد .

ووصفوه فى تعبه بعد جريه وقد ســال العرق منه ، ووصــفوه فى اقباله وأدباره وكره وفره بتيس الظباء المسرع ، وهــــو يعطى الجرى قبل أن يطلب منه . يعطى أفانين جرى غــير منقبض ولا بطىء كتيس الظبــاء الــذى انقضت عليــه من الجو كواسر فأسرع فى الجرى هربا .

سادسا ــ الاسلوب وتقاليد القصيدة :

شاعت هذه التشبيهات وذاعت على ألسنة الشعراء الجاهليين، حتى أصبحت تشكل صورة الشعر الجاهلى كله ، لا يختلف فى ذلك

شاعر عن شاعر الا من حيث عوامل أخرى كالبيئة الحضارية أو البدوية ، أو العفوية والارتجال أو التثقيف والصنعة أو الحكمة والتكفير ، ثم هم بعد ذلك يتمايزون فى النظم والصياغة والذوق •

وسلوك الشعر الجاهلى هذا المسلك له وجهان ، وجه يصوره مقلدا جامدا ، ووجه آخر يصوره عريقا موغلا فى القدم ، تقوم تقاليده وأطره على نظام عريق قديم ناضج بالغ الغاية فى النضج وملكة التصوير •

وكما شكل الشعر الجاهلى ثقافتهم وطبع ملكاتهم ، وأمد خيالاتهم بجملة كبيرة من التشبيهات والكنايات ، شكل الشعر لغتهم ، ولقد كان شيوع لغة قريش أثرا من المنافسة المعاصرة بين القحطانية والاسماعيلية المؤدى الى اختلاف الكلمة •

وكانت الاسواق الادبية وسيلة أدبية لغوية فى نفس الوقت، وقد بذل الشعراء جهدا خارقا فى سبيل شيوع هذه اللغة واستقرارها وثباتها فى لسان الشعراء •

كما رسخ الشعر تقاليد القصيدة من حيث الوحدة أو عدم تماسك الابيات ، كما يظهر لنا أثر الدفقات الشعرية فى الاستطراد والاستدارة ، والاستطراد الخروج عن الغرض لحين ، وكانوا لا يخرجون الا عند وصفهم الناقة فتنساب أنغامهم وتتسرب أنفسهم، أما الاستدارة فهى من صور الترابط فى القصيدة •

واذا كانت البدايات الاولى فى الشعر الجاهلى لم نطلع عليها اطلاعا يوثق صلتنا بها فانها تركت أثرا ضخما وبصمات قوية على الشعر الجاهلى برمته ، لغة وخيالا وفكرة وأسلوبا •

ما أرانا الا نقول معارا
ومعادا من لفظنا مكرورا

حتى أن عنترة ليفجؤنا فى بداية معلقته بأنه لم يترك الاوائل للاواخر شيئا يقول :

هــل غــادر الشــعراء من متـــــردم
أم هــل عــرفت الــدار بعــد تــوهم

ولو أننا عرفنا هذه البدايات لعرفنا الكثير مما خفى علينا فى الشعر الجاهلى ثقافة وأثرا وتأثيرا • وتأثرا ••

اهم المصادر والمراجع

اولا : اهم المصـــادر

١ ــ ديوان امرئ القيس ــ دار احياء التراث العربى بيروت
٢ ــ ديوان النابغة الذبيانى ــ الشركة اللبنانية للكتاب بيروت
٣ ــ ديوان حسان بن ثابت الانصارى ــ دار احياء التراث العـــربى بيروت
٤ ــ ديوان طرفة بن العبد ــ الشركة اللبنانية للكتاب بيروت
٥ ــ ديوان الخنساء ــ دار التراث بيروت
٦ ــ ديوان حاتم الطائى ــ الشركة اللبنانية للكتاب بيروت
٧ ــ الاصمعيات تحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف مصر الطبعة الثالثة
٨ ــ ديوان الاعشى الكبير شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حســـين ــ المكتب الشرقى للنشر والتوزيع بيروت
٩ ــ شرح المعلقات السبع للزوزنى ــ طبعة محمد على صبيح مصر .
١٠ــ شرح القصائد التسع المشهورة لابى جعفر احمد بن محمد النحاس ــ وزارة الاعلام العراقية ــ تحقيق احمد خطاب جزاين سلسلة كتب التراث .
١١ــ ديوان المتلمس الضبعى ــ معهد المخطوطات العربية تحقيق حسن كامل الصيرفى سنة ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .
١٢ــ ديوان المثقب العبدى ــ مجلة معهد المخطوطات ج ١٦ تحقيق حسن كامل الصيرفى ١٩٣٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .
١٣ــ فى الادب الجاهلى للدكتور طه حسين ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٤م

ثانيا : المراجع

١ ــ البيان والتبيين للجاحظ ــ دار صعب بيروت .
٢ ــ الحيوان للجاحظ ــ ٣ اجزاء ــ الكتاب اللبنانى ــ بيروت طبعة اولى ١٩٦٨ .
٣ ــ الفصول للعقاد ــ دار الكتاب العربى بيروت .
٤ ــ مقدمة ابن خلدون ــ دار الباز بمكة المكرمة .

٥ ــ طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ــ دار الباز بمكه المكرمة.
٦ ــ جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ دار المعارف بمصر ــ ذخائر العرب ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢م
٧ ــ الاصنام لابى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى تحقيق احمد زكى ــ المكتبة العربية القاهرة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٥ م .
٨ ــ العرب قبل الاسلام ــ جرجى زيدان ــ دار مكتبة الحياة بيروت.
٩ ــ مصادر الشعر الجاهلى وقيمها التاريخية ــ للدكتور ناصر الدين الاسد.
١٠ــ العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ــ دار المعارف مصر ط ٢ .
١١ــ الشعر الجاهلى مراحله واتجاهاته الفنية دكتور سيد حنفى حسنين الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٢ م .
١٢ــ دراسات فى العصر الجاهلى للاستاذ احمد ابو الفضل..
١٣ــ الاغانى لابى الفرج الاصبهانى ــ دار الكتب .
١٤ــ الفهرست لابن النديم ..
١٥ــ الشعر والشعراء لابن قتيبه الكتبى ــ مصر .
١٦ــ ضحى الاسلام للدكتور احمد امين ــ النهضة المصرية .
١٧ــ مقال فى المنهج تاليف رينيه ديكارت ترجمة محمود الخضيرى ــ دار الكاتب العربى مصر .
١٨ــ ديكارت للدكتور عثمان امين ــ القاهرة .
١٩ــ زكى مبارك ناقدا ــ دار الشعب مصر اولى ١٩٧٨ .
٢٠ــ طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام للاستاذ أنور الجندى نشر دار الاعتصام مصر الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م .
٢١ــ ت. س. اليوت للدكتور فائق متى ــ دار المعارف مصر سلسلة نوابغ الفكر ١٩٦٦ .
٢٢ــ نقض كتاب فى الشعر الجاهلى الشيخ محمد الخضرى حسين ــ المطبعة السلفية مصر ١٣٤٥ هـ .
٢٣ــ نقد كتاب الشعر الجاهلى للاستاذ محمد فريد وجدى ــ مطبعة دائرة معارف القرن العشرين فى ٥ اكتوبر ١٩٢٥ الطبعة الاولى .
٢٤ــ الاتقان للسيوطى ــ الحلبى مصر .
٢٥ــ البرهان للزركشى ــ الحلبى مصر تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.
٢٦ــ القرآن يتحدى احمد خلف الله ــ السعادة مصر ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧م
٢٧ــ القرآن معجزة الله الكبرى للشيخ محمد ابو زهرة ــ دار الفكر العربى مصر .

٢٨ـ النابغة الذبياني للاستاذ عمر الدسوقي ـ مطبعة لجنة البيان العربي مصر ط ٣ ـ ١٩٥٤ .
هذا عدا بحوث وكتب ومراجع أخرى كثيرة .

ثالثا : مجلات ودوريات

١ ـ مجلة الهلال عدد يولية سنة ١٩٧٠ .
٢ ـ مجلة الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩٦٦ .
٣ ـ مجلة الفيصل المجلد الثالث العدد الرابع سنة ١٩٨٣ .

تصويب الاخطاء المطبعية

وقعت اخطاء مطبعية ينبغى الاشارة اليها ، وهى يسيرة على اى حال ولا تخفى على فطنة القارىء ، ومن ذلك .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	١٦	ومدارس	ومدارسه
١٢	هامش	القرمزى	الترمذى
١٧	١٩	جمع ولا واحد له	جمع لا واحد له
١٨	١٥	والاردن	فى الأردن
٢٠	١٩	حان الشعوب	كل الشعوب
٢٧	٨	اد ب	آدب
٢٨	١٨	واصبحت على	واصبحت تدل على
٢٩	١٩	واقسى منهما	واقسى منهما
٣٢	٧	يجنبه	يجنيه
٣٢	٢٤	حائفة	طائفة
٣٧	٥ ، ٦	وفهمه .	يحذف ما بعدها من السطر الخامس ويحذف السطر السادس كله
٣٩	١٨	ينو أنف	دنو أنف
٤٠	١٧	المرقس	المرقش
٤١	٥	الطول	الطلول
٤١	هامش	(٩)	(٣)
٥١	٨	جمرة	جمهرة
٥٣	٦	هشا	هشام
٥٤	٢٢	لقبيد	لعبيد
٥٥	٥	لسبع	لسبعة
٥٩	١	الباب الثالث	الباب الرابع
٦٣	هامش اول سطر	للمبرر	للمبرد
٧٤	٣	لايا	لأيا
٧٤	١٣	الاشراخ	الاشداخ
٧٥	٨	اسدان	ابدات
٧٧	٢	المنتظر	المتنظر
٧٨	١٠	بالازم	بالأدم
٨٠	هامش	٣٥	٣٦
٨١	١	واحنا	واحيانا
٨١	٣	فى الجزيرة	فى الجريرة
٨٢	٢١	ودمدت	ودمدمت
٨٤	٦	الحددية	الحديدية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٥	١٤	وسامها	وسامها
٩٠	١٩	ورشن	ودش
٩١	٩	روجة	زوجته
٩١	١٧ ، ١٨	عفزرا	عفزرا
٩٤	٨	مأوى	ماوى
٩٤	١١	اغنى	أفنى
٩٤	هامش	١٠	١١
٩٤	هامش	١١	١٠
٩٦	١٤	الا ينفى نفسه	الا يلقى نفسه
١٠٠	٣	تخافتنى	تحامتنى
١٠٠	٧	قتنا	منسا
١٠٤	٧	وتطيب العيش	ويطيب العيش
١٠٥	٦	والغناء	والغثاء
١١١	١	أمرى	اسرى
	١	المهموم	الهموم
	٢	عدائرة	عذافرة
١١٣	٣	سئن	سفين
	١٦	كالعدلى	كالعدولى
١١٣	هامش	٢٤ ديوان	٢٤ ديوانه
١١٥	٢٠	وخطواطره	وخواطره
١١٧	٩	يحلو	يخلو
١٢٢	٢	تفاؤل	تفاؤله
١٢٣	٣	السكلاس	السكلام
	٥	الدابلة	الذابلة
١٨٧	١٢	لآية	الآية
١٨٨	١٨	بن عبد البر	ابن عبد البر
١٩٤	٥	تكسب	تكسبه
١٩٦	١١	ينادمونه	ينادمون
	٢١	من يكرب	معد يكرب
	٢٢	وتبئت	ونبئت
٢٠٤	١١	بض	بعض
٢١٣	١	الى كل وجدان	الى وجدان

فهرس الموضـــــــــوعات

---

* حدث اضطراب في ترتيب الابواب نرجو ملاحظته .

رقم الايداع ٥٧٤٦/٨٣

مطبعــة
مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ــ القاهرة